

# وهم الإعجاز العلمى

د. خالد منتصر

دار العين للنشر





# وهم الإعجاز العلمى


**الطبعة الأولى ٢٠٠٥**





دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل - روض الفرج
ت فاكس: ٤٥٨٠٩٥٥ - ت ٤٥٨٠٣٦٠
E mail : elainco 2002@yahoo.com
رقم الإيداع : ١٦٦٨ / ٢٠٠٥

دار العين للنشر



# وهم الإعجاز العلمى

الدكتـور
خالد منتصـر

دار العين للنشر



# ١ - الإعجاز العلمى

## ( أ ) الإعجاز العلمى فى القرآن وهم صنعته عقدة النقص عند المسلمين

**• القرآن كتاب دين وهداية وليس كتاب فيزياء أو كيمياء**

القرآن كتاب دين وهداية وليس كتاب كيمياء أو فيزياء، وإنكار الإعجاز العلمى فى القرآن ليس كفراً ولاهو إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة، فالقرآن ليس مطلوباً منه ولاينبغى له أن يكون مرجعاً فى الطب أو رسالة دكتوراه فى الجيولوجيا، والآن نستطيع أن نقول وبكل راحة ضمير وإنطلاقاً من خوفنا سواء على الدين أوعلى العلم أن الإعجاز العلمى فى القرآن أو الأحاديث النبوية وهم وأكذوبة كبرى يسترزق منها البعض ويجعلون منها "بيزنس"،وأن عدم وجود إعجاز علمى لاينتقص من قدر القرآن ككتاب مقدس وعظيم ومعجز أيضاً ولكنه إعجاز الأفكار العظيمة التى تحدث عنها، والقيم الجليلة التى بشر بها، والثورة التى صنعها والتى كانت شرارتها الأولى العقل وإحترامه وتبجيله، ومن يروجون للإعجاز

العلمى لايحترمون هذا العقل بل يتعاملون معنا كبلهاء ومتخلفين ماعلينا إلا أن نفتح أفواهنا مندهشين ومسبحين بمعجزاتهم بعد كلامهم الملفوف الغامض الذى يعجب معظم المسلمين بسبب الدونية التى يحسون بها وعقدة النقص التى تتملكهم والفجوة التى مازالت تتسع بيننا وبين الغرب فلم نعد نملك من متاع الحياة إلا أن نغيظهم بأننا الأجدع والأفضل وأن كل ماينعمون به ومايعيشون فيه من علوم وتكنولوجيا تحدث عنها قرآننا قبلهم بألف وأربعمائة سنة، كل هذا الكلام يرددونه وبجرأة وثبات وثقة يحسدون عليها ذلك كله يتم بالرغم من أن الرد بسيط والمنطق مفحم ولايحتاج إلى جدل فبرغم وجود القرآن بين أيدينا كل هذه السنين فمازلنا أكثر الشعوب فقراً وجهلاً وتخلفاً ومرضاً، ومازلنا نستورد العلم والتكنولوجيا من هؤلاء الكفرة ونستخدم الدش والتليفزيون والفيديو والإنترنت وهى بعض من منجزاتهم نستغلها ونسخرها للهجوم عليهم وعلى ماديتهم ومعايرتهم بجهلهم بالإعجاز العلمى، والمشكلة أننا الأفقر والأجهل والأمرض وكل أفاعل التفضيل المهينة تلك لأننا لم نتبع الخطوط العريضة التى وضعها لنا القرآن والقيم الرفيعة التى دعا إليها من عدل وحرية وتفكر وتدبر فى الكون وسعى وعمل وجد وإجتهاد، وليس السبب فى تأخرنا كما يقول حزب زغلول النجار وشركاه أننا لم نقرأ جيداً الإعجاز العلمى، فالقرآن شرح لنا طريق الهداية والخلاص ووضع لنا العلامات الإرشادية ولكنه لم يسع أبداً إلى شرح التكوين الإمبريولوجى

للجنين ولاإلى تفسير التركيب الفسيولوجى للإنسان ولاإلى وضع نظريات الفلك والهندسة وعلم الحشرات، والرد المنطقى الثانى على جمعية المنتفعين بالإعجاز العلمى هو أن منهج تناولهم للكشوف والتنبؤات العلمية للقرآن منهج مقلوب ومغلوط، فنحن ننتظر الغرب الكافر الزنديق حتى يكتشف الإكتشاف أو يخرج النظرية من معمله ثم نخرج لساننا له ونقول كنت حاقولها ماهى موجودة عندنا بين دفتى القرآن ونتهمهم بالغباء والمعاندة والتكبر ولانسأل أنفسنا إذا كانت تخريخاتهم ودعبساتهم فى القرآن الكريم التى يقولون عنها إعجازًا علميًا بهذا الوضوح فلماذا لم يحدث العكس فتخرج النظريات بعد دراسة القرآن ونسبق بها الغرب ونغيظهم ونقهرهم بعلمنا الفياض بدلاً من الإنتظار على محطة الكسل المشمسة المخدرة كل منا يعبث فى لحيته ويلعب فى أصابع قدميه ويفلى فى رأس جاره متربصين بالكشوف والقوانين والإنجازات الغربية التى ماأن تمر علينا حتى نصرخ دى بتاعتنا ياحرامية مع أن الحقيقة أننا نحن اللصوص المتطفلين على موائدهم العلمية العامرة ؟!!،وللأسف نظل نحن المسلمين نتحدث عن العلاج بالحجامة وبول الإبل وحبة البركة وهم يعالجون بالهندسة الوراثية ويقرأون الخريطة الجينية، ونظل حتى هذه اللحظة غير متفقين على تحديد بدايات الشهور الهجرية فلكياً بينما هم يهبطون على سطح القمر ويرتادون المريخ ويراقبون دبة النملة من خلال أقمارهم الصناعية .

**● الإعجاز العلمى خطر على العلم وعلى الدين كما ذكرنا وذلك للأسباب التالية :**

منهج العلم مختلف عن منهج الدين ، وهذا لا يعيب كليهما ولا يعنى بالضرورة أن النقص كامن فى أحدهما، فالمقارنة لا محل لها ومحاولة صنع الأرابيسك "العلمدينى" بتعشيق هذا فى ذاك محاولة محكوم عليها بالفشل مقدماً، فالعلم هو تساؤل دائم أما الدين فيقين ثابت، العلم لا يعرف إلا علامات الاستفهام والدين لا يمنح إلا نقاط الاجابة، كلمة السر فى العلم هى القلق أما فى الدين فهى الاطمئنان، هذا يشك وذاك يحسم، وكل القضايا العلمية المعلقة والتى تنظر الاجابات الشرعية لن تجد اجاباتها عند رجال الدين لسبب بسيط هو أن من عرضوها منتظرين الاجابة قد ضلوا الطريق ، فالاجابة تحت ميكروسكوب العالم وليست تحت عمامة الفقيه،والعلم منهجه متغير وقابل للتصديق والتكذيب ويطور من نفسه بمنطقه الداخلى وربطه بالدين يجعل الدين عرضة للتصديق والتكذيب هو الآخر، ويهدد العقيدة الدينية بتحويلها إلى مجرد قارب يمتطيه المتاجرون بالدين معرض ببساطة للعواصف والأمواج تأخذه فى كل إتجاه، ويتحول الدين إلى مجرد موضوع ومعادلة ورموز من السهل أن تتغير وتتغير معه معتقدات المؤمنين ببساطة ويتملكهم وسواس الشك ويأخذ بتلابيبهم ويزعزع إيمانهم، وكذلك جر العلم من المعمل إلى المسجد يجعل معيار نجاح النظرية العلمية هو مطابقته للنص الدينى سواء كان آية أو حديث نبوى

وليس مطابقته للشواهد والتجارب العلمية والمعملية، فتصبح الحجامة هى الصحيحة علمياً وجناح الذبابة هو الشافى طبياً ، وبول الإبل هو الناجع صحياً لمجرد أن هذه الوسائل وردت فى أحاديث نبوية، ويصير العسل دواء لمرض البول السكرى بدون مناقشة لأعراضه الجانبية فى هذه الحالة ذلك لأن المفسرين جعلوا منه شفاء قرآنياً لكل الأمراض، ويصمت الجميع خوفاً من إتهامات التكفير وإيثاراً للسلامة لأن الطوفان عالى والجميع يريد تصديقه.

هذا الخلط بين الدين والعلم من خلال تضخيم حدوتة الإعجاز العلمى المخدرة تغرى رجل الدين بالتدخل فى شئون العلم وتعطيل تقدمه وشل إنجازاته، والأمثلة كثيرة على هذا التعطيل فى بلادنا المسلمة ، فهذه النظرة الكوكتيل التى تنظر من خلال عمامة رجل الدين إلى الأمور العلمية هى التى عطلت قانون زرع الأعضاء حتى هذه اللحظة فى مصر، وهى التى تقنع البعض بأن ختان الإناث فريضة دينية، وتجعل معظم رجال الدين يتشبثون برؤية الهلال كوسيلة لتحديد بدايات الشهور الهجرية برغم التقدم الهائل فى علوم الفلك ...الخ، والأخطر أنها تجعل علماء المسلمين دراويش فى مولد أو كودية زار، فيجهدون أنفسهم فى دراسة فوائد الحجامة أو يؤلفون رسالة دكتوراه فى فوائد بول الإبل ...الخ، يمارسون كل ذلك وهم يعرفون تمام المعرفة أنهم يكذبون ويدجلون ويمارسون شعوذة لا علماً ، ويؤلفون نصباً لا إبداعاً، ويركنون إلى الدعة والتراخى

والترهل فيكفيهم أنهم أصحاب العلم اللدنى لدرجة أن البعض فسر تقدم الغرب العلمى بأن الله قد خدمنا وسخرهم لخدمة المسلمين يعنى هم يتعبوا وإحنا ناخد على الجاهز !!.

القرآن كتاب سماوى محكم وشامل، أحدث ثورة وتغييراً شاملاً فى مجتمع صحراوى بدوى ضيق ومنه إلى الكون كله، ولكى تحدث هذه الثورة كان لابد أن يتكلم القرآن مع أصحاب هذا المجتمع البدوى بلغته ومفاهيمه بمافيها المفاهيم العلمية السائدة فى هذا الوقت،ومهما كانت هذه المفاهيم والأفكار العلمية ساذجة أو مغلوطة بمقاييسنا العصرية فإنها كانت ضرورة وقتها وإلا لكنا أمام كتاب ألغاز غامض وليس كتاباً دينياً هادياً ومرشداً ولابد أن يكون واضحاً لكى يقنع ويهدى ويرشد، ولايعنى وجود هذه الأفكار أن القرآن منقوص ففى إعتقادى أن وجود هذه المفاهيم هى دليل قوة لأنها تحترم مبدأ هاماً وترسخه وهو أن الدين الإسلامى وكتابه الجليل الكريم المقدس يتفاعل مع الواقع بقوة وحميمية وهذه هى معجزته الحقيقية فهو ليس ألواحاً أو أوامر قبلية تهبط فجأة مجتمعة ومتكاملة بدون وضع أدنى إعتبار للبشر الذين سينفذون أو الواقع الحياتى الذى سيحتوى ويتفاعل مع هذه الأوامر والنواهى والأفكار، ويؤيد كلامى هذا علوم القرآن المختلفة مثل أسباب النزول والناسخ والمنسوخ... الخ التى تشير كلها إلى الصفة التفاعلية مع الواقع التى يحملها القرآن، وهو ماينفى عنه أنه كتاب

تنجيم علمى وألغاز كونية تستعصى على الفهم ولن تحل إلا بعد ألف سنة، فالقرآن قد نزل للتفهيم وليس للتعجيز، ومايفعله بهلوانات الإعجاز العلمى من لوى لعنق الألفاظ وتعسف فى تفسيرها للدلالة على الإعجاز العلمى هو تعارض وتناقض مع جوهر فكرة القرآن الذى يخاطب ويلتحم بالواقع ويتفاعل معه .

فكرة أنه لايوجد فى القرآن إعجاز علمى فكرة قديمة ليست وليدة اليوم ولست أنا أول من رددها ولكن رددها من قبل أناس لايمكننا أن نشكك فى إسلامهم وغيرتهم على دينهم، وقد أحس الكثير من المفكرين المسلمين المستنيرين بخطر هذه المحاولة المتعسفة التى تحمل بداخلها ديناميت شديد الإنفجار ، وأول ماسيفجره هذا الديناميت هو الدين نفسه، ومنذ أكثر من نصف قرن هاجم الشيخ الراحل الإمام الأكبر محمود شلتوت هذه المحاولات وسخر منها قائلاً « لسنا نستبعد إذا راجت عند الناس فى يوم ما - نظرية دارون مثلاً - أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول أن نظرية داروين قد قال بها القرآن الكريم منذ مئات السنين، ورفض الشيخ شلتوت فى كتابه تفسير للقرآن الكريم ص ١٣عن التفسير بالإعجاز العلمى قائلاً «إن هذه النظرة لقرآن خاطئة من غير شك، أولاً :لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف، ثانياً : لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها

على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ولايستسيغه الذوق السليم، ثالثاً: لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان، والعلوم لاتعرف الثبات ولاالقرار ولاالرأى الأخير فقد يصح اليوم فى نظر العلم مايصبح غداً من الخرافات»، إنتهى كلام الشيخ شلتوت فهل يكفره تجار الإعجاز العلمى ودجالوه؟!،تحدث الشيخ وكأنه يتنبأ بماسيفعله بنا د.زغلول النجار بصفحته المفروشة التى تؤجرها له الأهرام كل يوم إثنين والتى لم تتوفر لعمالقة الفكر المصرى طوال تاريخه ولكنه زمن الدروشة الذى جعل صوت العقل أخرس و، يد التنوير مشلولة ، وتجار الدين مليارديرات ونجوم فضائيات وسماسرة فتاوى، المهم أن شيخنا الجليل قد تصدى لمحاولات مروجى وهم الإعجاز العلمى ونجح وقتها لأن هذه المحاولات كانت مجرد بذور جنينية ولم تكن قد إنتظمت فى شكل تيار كاسح وحزب شرس كماهو الحال الآن، ولكن هل هناك من آخرين تصدوا من قبل لهذه الظاهره ؟، الإجابة عند المفكرة الإسلامية العظيمة د. بنت الشاطئ.

## (ب) بنت الشاطئ تصف تجار الإعجاز العلمى بأنهم مجرد حواة !

كانت أعنف المعارك حول الإعجاز العلمى للقرآن المعركة التى خاضتها د.بنت الشاطئ ضد د.مصطفى محمود فى أوائل السبعينات وبالتحديد فى أهرام الجمعه شهرى مارس وأبريل، وملاحظة سريعة على تغير الزمن والفكر والمنطق ففى نفس الجريدة وبعد أكثر من ثلاثين سنة وفى عصر هستيريا الدروشة يحتل د.زغلول النجار أضعاف مساحتها ليزيف وعى البسطاء بنفس الحديث المكرر الساذج الذى هاجمته المفكرة الجريئة بنت الشاطئ وهى ترد على مقالات مصطفى محمود فى مجلة صباح الخير وكأن عقارب الزمن فى مصر المحروسة ثابتة محنطة فى مكانها لاتتحرك .

كانت بنت الشاطئ فى مقالاتها فى منتهى العنف وكأنها كانت تتنبأ بماسيحدث من سيطرة لجيش الإعجاز العلمى الذى كون هيئة ومؤسسة ميزانيتها جبارة تفوق ميزانية دولة بكاملها، وسأقتبس هنا عباراتها الحادة الجامعة المانعة التى ردت بها على مصطفى

محمود وحزب الإعجاز العلمى الذى كان مازال فى مهده حينذاك ولم يتحول إلى سرطان بعد.

تكتب بنت الشاطئ فى المقدمة عن كيفية التعامل مع القرآن فتقول «لابد أن يكون فهمنا لكتاب الإسلام محرراً من كل الشوائب المقحمة والبدع المدسوسة، بأن نلتزم فى تفسيره ضوابط منهجية تصون حرمة كلماته فنرفض بها الزيف والباطل،ونتقى أخذة السحر،وفتنة التمويه،وسكرة التخدير»، وتحذر من أن «الكلام عن التفسير العصرى للقرآن يبدو فى ظاهره منطقياً ومعقولاً يلقى إليه الناس أسماعهم،ويبلغ منهم غاية الإقناع،دون أن يلتفتوا إلى مزالقه الخطرة التى تمسخ العقيدة والعقل معاً، وتختلط فيها المفاهيم وتتشابه السبل فتفضى إلى ضلال بعيد، إلا أن نعتصم بإيماننا وعقولنا لنميز هذا الخلط الماسخ لحرمة الدين المهين لمنطق العصر وكرامة العلم»،والبعض رد بالطبع على د. بنت الشاطئ وهاجمها متعجباً ومتسائلاً «هى زعلانه من إيه، هو فيه حد يزعل من إن كتابه الكريم يحتوى على نبؤات وتفسيرات علمية»!!، وترد الكاتبة على من يدقون طبول الجهل محاولين إسكات صوت الحجة بالضوضاء وليس بالإقناع والمنطق وتصفها بأنها فكرة سامة فتقول «الدعوة إلى فهم القرآن بتفسير عصرى - علمى - على غير مابينه نبى الإسلام، تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامة التى تنأى بأبناء العصر عن معجزة نبى أمى بعث فى قوم أميين، فى عصر كان

يركب الناقة والجمل لاالمرسيدس والرولز رويس والبوينج وأبوللو،ويستضئ بالحطب لابالكهرباء والنيون، ويستقى من نبع زمزم ومياه الآبار والأمطار لامن مصفاة الترشيح ومياه فيشى ومرطبات الكولا !!،ونتورط من هذا إلى المزلق الخطر، يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان وضمائرهم،فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب والتشريح والرياضيات والفلك والفارماكوبيا وأسرار البيولوجيا والإلكترون والذرة فليس صالحاً لزماننا ولاجديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ويقبله منطقنا العصرى».

هكذا وضعت هذه المفكرة الإسلامية الجريئة يدها على مكمن الخطر فالقرآن طبقاً للإعجاز العلمى وتفسيراته سيصبح هو قبلة العلم والتى سيصدم من إتجهوا إليها إذا لم يجدوا فيها ضالتهم العلمية فيغيرون من إتجاه بوصلتهم الإيمانية،وهنا يصبح القرآن دمية فى أيدى المهرجين يدوسون على أزرارها لتتحرك كما يشاءون وكما يوسوس لهم هواهم وليس كما يقصد القرآن،وتشبه الكاتبة الإسلامية دعاة ومدعى الإعجاز العلمى بحواة الموالد الشعبية فتقول «الذى لاأفهمه،ومماينبغى لى أن أفهمه،هو أن يجرؤ مفسرون عصريون على أن يخرجوا على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وصيدلة وطبيعه وكيمياء وجغرافيا وهندسة وفلك وزراعه وحيوان وحشرات وجيولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا ... الخ،إلا أن أتخلى

عن منطق عصرى وكرامة عقلى فآخذ فى المجال العلمى بضاعة ألف صنف معروضة فى الأسواق!،وإلا ان أتخلى عن كبرياء علمى وعزة أصالتى فأعيش فى عصر العلم بمنطق قريتى حين يفد عليها الباعة الجوالون بألف صنف،يروج لها ضجيج إعلانى بالطبل والزمر عن كل شئ لكل شئ، أو بتاع كله فى فكاهتنا الشعبية الساخرة بالإدعاء».

تشبيه بنت الشاطئ لدعاة الإعجاز العلمى بالحواة هو تشبيه دقيق ومهذب فالتشبيه الأكثر دقة هو أنهم نصابون متاجرون بمشاعر المسلمين المتعطشين لأى تفوق أو إنتصار علمى فى عصر هم فيه فى مؤخرة العالم،ويكفى هذا الدليل البسيط المسمى بإعجاز بيت العنكبوت والذى ردت عليه الكاتبة بشكل منطقى وواضح ولايحتمل اللبس مماجعلهم يقعون فى حيص بيص ويتحولون إلى مسخرة ويتعرون أمام مؤيديهم، والمسألة ببساطة أن دعاة الإعجاز العلمى إكتشفوا فى تأنيث القرآن للعنكبوت إعجازاً علمياً فى قوله تعالى «مثل الذين إتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت إتخذت بيتاً»، وتبنى د.مصطفى محمود هذا الرأى وإعتبره من الإعجاز العلمى قائلاً «لأن العلم كشف مؤخراً أن أنثى العنكبوت هى التى تنسج البيت وليس الذكر،وهى حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن»،وترد د. بنت الشاطئ ساخرة أنه وقع فى خطأ لايقع فيه المبتدئون من طلاب اللغة العربية فالقرآن

فى هذه الآية يجرى على لغة العرب الذين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية،كماأنثوا مفرد النمل والنحل والدود،فلم يقولوا فى الواحد منها إلا نملة ونحلة ودودة،وهو تأنيث لغوى لاعلاقة له بالتأنيث البيولوجى كما توهم المفسر العصرى، فأى عربى وثنى من أجلاف البادية كان ينطقها هكذا فأين الإعجاز العلمى فى هذا الكلام ؟!، والمصيبة أن المفسر العصرى يوقع نفسه فى فخ يقرب المسلم من الكفر وليس من الإيمان نتيجة البلبلة والتناقض و"اللخبطة" التى يقع فيها،فالقرآن الذى يصف بيت العنكبوت بالوهن والضعف يأتى المفسر العصرى تحت شهوة الإعجاز العلمى فيهدم المعبد على ساكنيه ويصرح بأن «خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات وأقوى من بيت الحرير وأكثر مرونة» ص ٢١١ كتاب التفسير العصرى لمصطفى محمود !!!، وعلى هذا المنوال يمضى إمام الإعجاز العلمى فى كتابه فيستنبط الإعجاز العلمى من قوله تعالى «أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً» بانه لاتفسير لها إلا أن تكون الأرض كروية دوارة نصفها ليل ونصفها نهار !ص ١٤٦،وهذا تفسير فى منتهى التعسف فقد جرى على لسان العرب آتيك ليلاً أو نهاراً دون أن يدعى أعرابى أنه قد أتى بالإعجاز العلمى،أما ثالثة الأثافى فهى إستنباطاته العلمية من آية آل عمران «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون»، فقد توصلت عبقريته

الإعجازية إلى مالم يخطر على عقل بشر فقد إستنبط منها كل هذه القوانين» قانون الضغط الأوسموزى وقانون التوتر السطحى وتماسك العمود المائى والتوازن الأيونى وقانون التفاضل الكيميائى بين هورمون وهورمون وقانون رفض الفراغ والفعل ورد الفعل "! وضع أنت كل ماتريد من علامات تعجب، وأرجوك أخبرنى قارئى العزيز بالله عليك كيف توصل هؤلاء العباقرة الأفذاذ من هذه الآية إلى كل هذه القوانين دفعة واحدة ولك منى مليون جنيه بدون الإتصال بزيرو تسعمية وذلك إذا فهمت وأفهمتنى فأنا كمايقول المثل الشعبى غلب حمارى !.

كانت هذه هى معركة بنت الشاطئ مع مصطفى محمود،والتى لجأت إلى مقالاتها لحل معركة داخلية ومشكلة شخصية فكرية كادت تعصف بى كان محورها ماآمنت به حينذاك من إعجاز علمى وماحدث بعدها من زعزعة لهذا الإعجاز جعلتنى أطلب الحل وأبحث عن التفسير ، وكان الحل والتفسير أنه لثبات الإيمان وترسيخه لابد أن نقول أنه لايوجد إعجاز علمى فى القرآن وأنه كتاب دين تعامل مع معارف وعلوم عصره فقط، وهذه هى قصة معركتى الداخلية الشخصية التى تصلح دلالة على خطورة الربط بين النسبى وهو العلم بالمطلق وهو الدين.

مازلت أذكر عندما كنت صغيراً أذهب بصحبة أبى إلى مسجد قريتنا فى دمياط يوم الجمعة، المشهد محفور فى الذاكرة كأنه

الأمس القريب خطيب كفيف جهير الصوت يكرر ما يقوله كل أسبوع من أدعية مسجوعة وإنذارات للمصلين بالجحيم والثعبان الأقرع،حتى الأخطاء النحوية كانت تتكرر بنفس الكم ونفس الإيقاع، ولكن أهم ما علق فى الذاكرة حتى الآن مما كان يكرره الشيخ فى كل خطبه هو تفسيره للآية رقم ٣٤ من سورة لقمان «ويعلم ما فى الأرحام» ، والتى كان صوته يتهدج حينها بالتحدى لكل من يتجرأ على القول بأنه يستطيع أن يكشف عن جنس الجنين وهو بداخل الرحم فقد كان العلم فى الآية يفسر عنده على أنه العلم هل الجنين ذكر ام أنثى؟،وعرفت بعدها عندما قرأت تفسير الطبرى بأن شيخنا معذور فهذا هو ما كتب فى هذا التفسير وغيره من التفاسير، وكنت وقتها مبهوراً بالشيخ وأشجع فيه قدرته على التحدى، وعندما كبرت ودخلت كلية الطب كان جهاز الموجات فوق الصوتية «السونار» وقتها هو أحدث الموضات فى التكنولوجيا الطبية، وعرفت من خلال دراستى قدرته على تحديد نوعية جنس الجنين، ولكن بعض الأخطاء البسيطة التى حدثت فى تحديده من أطباء الأشعة جعلتنى اهتف سبحان الله وأخرج لسانى لأغيظهم وظللت على يقينى وتأييدى لشيخ قريتنا فى دمياط، وعندما تخرجت تزامن وقت تعيينى طبيباً مع الضجة التى حدثت حول جنس الطفل القادم للأمير تشارلز والأميرة ديانا وعرفت أنه قد تم تحديده فى بدايات الحمل الأولى بواسطة عينة من السائل

الامنيوسى المحيط بالجنين وقد بلغت دقة هذا التحليل نسبة مائة فى المائة وبدأت السنة الزملاء هى التى تخرج لإغاظتى وبدأ يقينى وتأييدى لشيخ قريتنا يهتز رويداً رويداً، وعندما تمت ولادة طفلى الأولى داعبنى زميلى طبيب النساء والولادة بقوله «ما كنت تقولنا علشان نولده هناك فى أمريكا وهم يشكلوه زى مانت عايز»، وكانت ثورة الهندسة الوراثية واللعب بالجينات قد بدأت تغزو العقول وتسيطر على جميع المنتديات والمجلات العلمية، وبدأت أتجنب الحديث مع الزملاء وبدأ يقينى وتأييدى لشيخ قريتنا ينهار، وهاجمنى زلزال الشك حتى تصدعت الروح وتساءلت: أين الإعجاز العلمى الذى عشت فى كنفه أقرأ عنه وأفاخر به الأجانب الغرباء الذين لا تحتوى كتبهم الدينية على مثل هذا الإعجاز الذى سبقنا به العلم منذ ألف وأربعمائة سنة،وإلتمست النجدة عند شيخنا الشعراوى لعله يكون طوق النجاة فإستمعت إلى حديثه التليفزيونى الذى يدافع فيه عن الإعجاز العلمى فى هذه الآية بالذات ويقول : إلا أن الله لم يكن يقصد الذكر والأنثى وإنما يعلم ما فى الأرحام يعنى يعلم مستقبلهم ، وأغلقت جهاز التليفزيون حفاظاً على ما تبقى من قواى العقلية لأنه حاول الخروج من الفخ بتعسف واضح !، وهنا كان الخطر الذى ينطوى عليه التلاعب بمثل هذه الكلمات من أمثال «الإعجاز العلمى فى القران»، فالقرآن كما ذكرنا من قبل ليس كتاباً فى الفيزياء ولا البيولوجيا ولا الجيولوجيا،وليس مطلوباً

منه ذلك،ولكنه كتاب دينى يضع ضوابط وخطوطاً عامة للأخلاقيات والسلوك والمعاملات، ويتعامل مع المطلق والعموميات وربطه بالعلم الذى يتعامل مع النسبى والمتغير فيه خطورة شديدة على الدين وعلى العلم كليهما على السواء،فالدين سيتأثر عندما نربط بين آية ونظرية علمية تثبت عدم صحتها بعد فترة، والعلم أيضاً سيتأثر عندما نكبح جماحه ونخلخل منهجه الأساسى وهو منهج التساؤل الدائم والقلق المستمر،فالدين إكتفاء والعلم ظمأ،الدين إنسان يعيش فى يقين حاد والعلم مريض بالشك المزمن،الدين يجمع فى جعبته أقصى ما يستطيع من البديهيات والعلم يلقى أقصى ما يمكنه منها فى سلة المهملات،الأول وهو الدين مجاله الأساسى ماوراء الواقع أما الثانى فملعبه الأساسى هو الواقع، وعندما نحاول أن نقرأ الثانى بعيون الأول كنا كمن يحاول أن يرسم لوحة بقوس كمان أو يعزف على العود بفرشاة ألوان، أو يحاول التدريس للمصريين فى فصل لمحو الأمية باللغة الصينية !!،كل هذا لا يعنى أنهما على طرفى نقيض،ولا يعنى أيضاً أن كليهما صورة للآخر فى المرآة، فكل منهما له مجال للبحث لا تطغى فيه أمواج طرف على شاطئ الطرف الآخر وتنحره،وأيضاً لا يلتهم فيه طرف بأقدامه الأميبية الطرف الثانى ويحاول هضمه وتمثله.

## (جـ) ظاهرة د. زغلول النجار

راجت تجارة الإعجاز العلمى وإنتعش بيزنس التفسير العصرى على يد الدكتور زغلول النجار،وهو الظاهرة التى لمعها المذيع أحمد فراج والذى قدم لنا من قبل الشيخ الشعراوى، وفى البداية قدم لنا الدكتور زغلول نفسه على أنه مفسر للآيات الجيولوجية فى القرآن بإعتبارها من صميم تخصصه،ولكنه مالبث أن أعجبته اللعبة وعرج على التفسيرات البيولوجية والفيزيائية والكيميائية والزراعية والفلكية إلى آخر هذه القائمة التى كلما إستطالت وإزدحمت كلما تضخم بالتالى البيزنس وتراكمت الثروة،وقد أصبح زغلول النجار مؤسسة تمشى على قدمين تدعمه مؤسسة أكبر وهى هيئة الإعجاز العلمى فى السعودية والتى تسرطنت وصارت مافيا تتحدث بالمليارات مستغلة الجهل المطبق والفقر المدقع وعقدة النقص المزمنة التى يعيشها المسلمون ونظرية المؤامرة التى تتلبس عقولهم، وتزييفاً للعقول وسداً وهمياً للفجوة العلمية الرهيبة بيننا وبين الغرب ضخت الأموال فى جيوب سماسرة الإعجاز العلمى وعقدت المحاضرات وجندت وسائل الإعلام بمايشبه جلسة دخان أزرق يتخدر فيها المسلمون بأحلام الإعجاز العلمى والتفوق الإيمانى ثم

ينامون بعدها مرتاحى البال أنهم قد إنتصروا على الغرب الكافر، وكان سن الحربة ومقدمة الرمح المسنون اللامع فى هذه الحرب الحلم هو زعيم الإعجازيين زغلول النجار .

أخطر خلل فى ممارسة أصحاب بازارات الإعجاز العلمى هو كيفية التعامل مع اللغة، فهم يتعاملون مع اللغة على أنها مطية لتفسيراتهم الوهمية، وعجينة تتشكل فى أيديهم حسب الرغبة، فتارة تصبح الكلمة لها معنى وتارة أخرى يحملونها معنى آخر تماماً لم يكن على البال أو الخاطر إلا بال وخاطر أصحاب فضيلة وفخامة البيزنس الإعجازى، فاللغة أصلاً وببساطة هى كود أو شفرة أو منظومة صوتية أو دوال صوتية وكتابية نعبر بها عن أنفسنا،فلو قلنا كلمة شجرة مثلاً كان هذا الصوت الذى نطقته هو المعبر عن هذا الشئ ذى الجذع والأوراق الخضراء... الخ، ولكى تصبح اللغة ذات وظيفة محددة وغرض واضح ولكى تنجح فى توصيل المعنى وتساهم فى تواصل البشر كان لابد أن يتفق هؤلاء البشر فى بقعة ما على أن هذا الكود الصوتى هو الذى يدل على هذا الشئ بالذات، فلاعلاقة بين الصوت «شجرة» وبين الشجرة الفعلية سوى إتفاقنا وإلا أصبح هذا الصوت المنطوق عبثاً وهراء فى الفضاء لامعنى له، ولو كنا قد إتفقنا كلنا كعرب على أن الشجرة إسمها زعريط مثلاً لكان هذا الزعريط هو المنطبع فى الذهن .

إذا فهمنا اللغة بهذا الفهم السابق شرحه سهل علينا كشف حقيقة العبث اللغوى الذى يمارسه الإعجازيون، فكلمات القرآن الكريم كانت موجودة فى قاموس العرب حين نزل القرآن عليهم، وإذا لم تكن لهذه الكلمات دلالة عندهم فى ذلك الحين لكان القرآن قد تحول إلى مجموعة ألغاز وأحاجى لغوية ولكان معطلاً عن الفهم ومن ثم الإيمان به، وحتى الكلمات البسيطة التى لم تكن موجودة فى قاموسهم ولم تكن لها مدلولات حينذاك تولى الرسول شرحها مثل كلمة سقر مثلاً وهى كلمة تدل على شئ غيبى لمكان فى جهنم، وعلينا حين نحاول فهم وتفسير القرآن أن نفهمه ونفسره من خلال هذه الوظيفة اللغوية وهى التوضيح وليس «التلغيز» والتعجيز لأن القرآن نزل باللغة العربية وليس بلغة الإسبرانتو ، وهو رسالة ومن أولى شروط الرسالة أن تكون واضحة وبلغة محددة، وأدق اللغات فى العالم هى لغة العلم التى تتحول أحياناً من فرط دقتها وتجريدها إلى رموز ومعادلات، ولاينفع معها مايدعيه الإعجازيون من أنهم يستخدمون التأويل أو المجاز فى إثبات الإعجاز العلمى، وهذا خلط وخطأ كبير ويفتح أبواب البلبلة أمام المسلمين لأننا حينها من الممكن أن نقوم بتأويل أبيات شعرية مثلاً على أنها إعجاز علمى نتيجة هذا الخلط بين وظيفة اللغة فى الأدب والمسموح فيها بالمجاز والتاويل وبينها فى العلم وهو المحدد الواضح الذى لايحتمل إستعارة أو كناية أو تأويلاً،فحيث ينبغى إستعمال لغة محددة لاأستطيع أن أقول أننى كنت أقصد كذا تأويلاً، فمثلاً عندما أصدر

أمراً لشخص بأن يقفز من النافذة وتنكسر رقبته وأدفعه حينها لاأستطيع أن أدعى أمام البوليس بأننى كنت أقصد أن يقفز من نافذة قلبى ووجدانى !!!، وسأقوم بتجربة سريعة من الممكن أن تجربها عزيزى القارئ فى أشعار وكتابات أدبية اخرى لتعرف قدرة التأويل عند الإعجازيين و لتصبح من سماسرة الإعجاز العلمى فى الشعر ولكنك للأسف لن تصبح مليارديراً مثل حزب الإعجاز الزغلولى لأن الشعراء فقراء، والأخطر أنهم مدانون فى كتب الفقه، فمثلاً يصف شاعرنا العظيم المتنبى الحمى فى البيت الشهير الذى يقول:

**وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام**

وبعد قراءة هذا البيت من الممكن تدبيج وإختراع عدة أبحاث فى جامعات بوركينافاسو وجزر القمر والإسكيمو تتحدث عن أن أغلب أنواع الحمى تتصاعد حدتها فى الليل وبهذا نثبت أن المتنبى لم يكن كاذباً حين إدعى النبوة ....الخ!!!، صدقونى ليست هذه سخرية ولكنه نفس الأسلوب الذى يتبعه زغلول النجار فى صفحته المؤجرة بالجريدة الموقرة.

إستعمال اللغة المتعسف الذى سبق شرحه وإيضاح خلله، ولوى عنق العبارات لتتفق مع تفسيرات سماسرة الإعجاز، كل هذا خلق فجوة واسعة وعميقة بيننا وبين فهم القرآن على حقيقته ، وحول المسألة إلى لعبة جلا جلا نستطيع بها إخراج أى معنى مسبق فى

أذهاننا بمجرد فرد الكلمة وثنيها وتشكيلها وعجنها وفعصها حتى تخدم أوهام البعض العنصرية المريضة بداء التفوق المزيف المخلوق من سراب، والأمثلة على هذا التعسف المضحك المبكى الذى يمارسه الإعجازيون كثيرة وسنختار منها بعض الأمثلة التى تشير إلى عملية النصب الإعجازى فى مولد سيدى زغلول، وسأورد الآية ثم أورد إعجازها العلمى الذى يدعونه ويليها معنى الكلمة الحقيقى المتعارف عليه فى قاموس العرب حينذاك والذى أوصل الدلالة اللغوية الصحيحة وإعتمد عليها المفسرون :

● **الآية:** «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء».

**الإعجاز :** الآية أخبرتنا بالحقيقة العلمية أنه كلما إرتفع الإنسان فى السماء إنخفض الضغط الجوى وقل الأوكسيجين وصعب التنفس.

**المعنى الحقيقى فى قاموس العرب:** يصعد فى «كذا» بتشديد الصاد تعنى محاولة على مشقة فى عمل مستحيل، فالمراد من الآية هنا هو تشبيه ضيق صدر الكافر بضيق الشخص الذى يحاول الصعود إلى السماء فلايستطيع لأنها عملية مستحيلة، ولاعلاقة لهذا بمايقوله الإعجازيون أنه صعد إلى السماء فعلاً.

● **الآية:** «والأرض بعد ذلك دحاها»

**الإعجاز :** أثبت القرآن قبل ١٤٠٠ سنة أن الأرض ليست كروية فحسب بل إنها بيضاوية كبيضة النعامة أو كالأدحية .

**المعنى الحقيقى فى قاموس العرب:** دحا الأرض أى بسطها ومدها، أما الأدحية التى يزعم سماسرة الإعجاز أنها أشارت لأحدث البحوث الفلكية التى أثبتت الشكل البيضاوى للأرض فهى لاتعنى بيضة النعامة ولكنها تعنى مبيض النعامة أى المكان الذى تبيض فيه وسمى كذلك لأن النعامة تدحوه برجلها أى تبسطه وتوسعه ، فكيف يصبح بقدرة قادر دليلاً على الشكل البيضاوى، ولو سلمنا مع الإعجازيين أنها بمعنى البيضة فسنوقع أنفسنا فى فخ شائك ومطب خطير وهو أننا سنجد أنفسنا مطالبين بإثبات أن الشعراء كانوا يملكون فى أشعارهم إعجازاً علمياً ، والأخطر أنه سيأتى البعض ويطلبون منا أن نعتبر الشعر الجاهلى كتاباً سماوياً ينافس القرآن حاشا لله، وإلا فليرد الإعجازيون ويفسروا هذا البيت الشعرى الذى قاله شاعر عربى قبل عصر النبوة وهو زيد بن عمرو بن نفيل، تقول الأبيات:

**أسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالاً**

**دحاها فلما رآها إستوت على الأرض أرسى عليها الجبالا**

وإذا سايرنا الإعجازيين فى إستنتاجاتهم الوهمية علينا وقتها أن نمنح هذا الشاعر لقب نبى ونطلق على شعره الشعر المقدس المنزل لأنه يحتوى على إعجاز !!!.

● **الآية:** « خلق الإنسان من علق»، والآية الأخرى «ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة».

**الإعجاز العلمى:** كما كتبه د. زغلول النجار فى جريدة الأهرام ١١ أكتوبر ٢٠٠٤ فالآية تشير إلى مرحلة جنينية محددة هى مرحلة العلق وهى ديدان حلقية تحيا فى الماء العذب وتعيش متطفلة على العديد من العوائل الفقارية، والجنين فى مطلع الأسبوع الثالث يأخذ هيئة دودة العلق فى شكلها.

**المعنى الحقيقى فى قاموس العرب:** العلق هو الدم الغليظ ولاعلاقة له بهذه الدودة التى يتخيلها د. زغلول والتى لاتمت بصلة لشكل الجنين فى الإسبوع الثالث الذى لايشبه الدودة من قريب أوبعيد ولكنه التعسف ولوى الحقائق ومعاملة اللغة بشكل إنتهازى، يجعل إستنتاجاتهم من المضحكات المبكيات.

أدى هذا العبث والتدليس اللغوى إلى فتح طرق عبث وتدليس جديدة من أهمها قولهم أن هذه الإشارات الكونية الإعجازية التى يدعونها لم تذكر من قبل فى أى كتاب، وبهذا وقع الإعجازيون وأوقعونا معهم فى بلبلة وشك وتخبط فقد وجدنا الكثير مما يتحدثون عنه موجود فى أشعار عربية وأساطير سومرية وبابلية وفرعونية وفى كتب مقدسة أخرى، والحل الذى يريحنا من هذه البلبلة أن نتخلص من مرض جنون العظمة وعقدة الإضطهاد ونعترف بأن ماتم ذكره هو تفاعل مع وإستجابة لمعطيات ومعارف ومعلومات الواقع العربى حينذاك، وأنها ليست من الإعجاز العلمى ولاتمت له بصلة، وأن هذه الأساطير أو الكتب المقدسة لاتحتوى

هى الأخرى على أى نوع من الإعجاز العلمى، وسندلل على كلامنا بالأدلة الدامغة مثل:

● الآية رقم ٤٥ من سورة النجم والتى قام سماسرة الإعجاز بلوى عنقها لكى تتسق مع شعاراتهم كنوع من تحلية البضاعة أمام الزبون، الآية هى «وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى» وإستخدموها لإثبات أن القرآن قد سبق الغرب فى إثبات أن الرجل هو المسئول عن تحديد جنس المولود، ولنسمع شعر زوجة أبى حمزة العينى والذى هجرها بعد ان ولدت بنتاً فقالت:

| | |
|---|---|
| ما لأبى حمزة لا يأتينا | ظل فى البيت الذى يلينا |
| غضبان ألا نلد البنينا | تا لله ما ذلك فى أيدينا |
| ونحن كالأرض لزراعينا | ننبت ما قد زرعوه فينا |

هل نصرخ كما صرخ الإعجازيون ونقول إن هذه المرأة البدوية البسيطة يتساقط من فمها إعجاز علمى ويجب أن نقيم لها مقاماً وكعبة!!.

● الآية ١٢ سورة المؤمنون «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»، وقد كتب د. زغلول النجار فى مدى إعجازها صفحة كاملة يوم ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٤ وعن تشابه تركيب جسم الإنسان مع التركيب الكيميائى للطين، وأخذ يعطينا د. زغلول محاضرة فى نسبة الألومنيوم والسليكون والماغنسيوم والبوتاسيوم وأكاسيد الحديد فى كل من الإنسان والتراب، ولكن ماهو رأى د.زغلول إذا

أحضرنا له أدلة على أن هذا الكلام قد قيل فى أساطير سومرية وبابلية ، ونرجوه الرجوع لكتاب فراس السواح مغامرة العقل الأولى ليعرف من خلال الأساطير أن الإله مردوخ البابلى خلق الإنسان من طين وكذلك إنكى السومرى والإله خنوم الفرعونى الذى كان يصور فى النقوش على هيئة صانع الفخار، وحتى فى الأساطير الإغريقية يخلق بروميثيوس الإنسان من تراب وماء، وتسربت هذه الفكرة لسفر التكوين ٢:٧ حيث يقول «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة»، وفى سفر أشعياء ٦٤ : ٨ حيث يقول «أن يارب أنت أبونا نحن الطين وأنت جابلنا»، وهذا يثبت أن كل هذه المعلومات التى يقولون عنها إعجازاً علمياً هى معارف كانت متداولة فى ذلك العصر ، وكل هذه الأساطير سواء سومرية أو بابلية أو فرعونية أو إغريقية، أو حتى الكتب السماوية سواء كانت توراة أو إنجيلاً أو قرآناً لاتحمل أى إعجاز علمى، أعتقد أن د.زغلول لن يستطيع الرد بعد هذه الأدلة التى ذكرناها والتى سنذكرها فى الجزء القادم.

## ( د ) تجارة الإعجاز العلمى تقودنا إلى الضلال

وهم الإعجاز العلمى القرآنى سيطر على عقول القدماء كماسيطر على عقول المعاصرين، وكما تصدى الشيخ شلتوت وبنت الشاطئ لأكاذيب أصحاب بوتيكات الإعجاز حديثاً، تصدى لهم الإمام الشاطبى قديماً فى كتابه المهم «الموافقات فى أصول الشريعه»، فبعد أن تحدث الشاطبى عن عدم جواز تحميل القرآن من المعانى مالايتناسب مع كون العرب أمة أمية قال بوضوح «يجب أن لانلتمس فى القرآن ولافى الحديث مايخرج عن معهود العرب من العلوم والمعارف، وعلوم العرب مذكورة معروفة كالعلم بمواقع النجوم ومايختص بالإهتداء بها فى البر والبحر والعلم بالأنواء وأوقات نزول الأمطار وإنتشار السحاب والعلم بالتاريخ وأخبار الأمم الماضية، وهذا الصنف من المعارف ذكره القرآن فى غير ما آية».. هذه هى أنواع وحدود العلوم التى كانت متداولة حينذاك ولم يطلب الشاطبى من القرآن أن يتخطى هذه الحدود العلمية الضيقة، بل وأنكر أن نبحث فى القرآن عن معارف وعلوم أعلى من مستوى الأمية التى كان عليها العرب، ونقتبس هنا هذا الإستنكار فى قوله «أن كثيراً من الناس قد تجاوزوا فى الدعوى على القرآن

الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع مانظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها»، ويوضح الشاطبى سبب إستنكاره لأننا «إذا عرضناه على ماتقدم ـ من أمية العرب ـ لم يصح»، ولذلك السبب «ليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالايقتضيه، كماأنه لايصح أن ينكر منه مايقتضيه، ويجب الإقتصار فى الإستعانة على فهمه على كل مايضاف علمه إلى العرب خاصة، فيه يوصل إلى علم مأأودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ماهو أداة له ضل عن فهمه».

الضلال هو المصير الذى يتوقعه الإمام الشاطبى لمن يطلبون الإعجاز العلمى والتفسير الكونى فى القرآن، تخيلوا عملية التضليل والتدليس التى يقوم بها دعاة الإعجاز ويغسلون بها أدمغتنا ويزيفون وعينا بدعوى وتحت شعار أنهم يرسخون إيماننا ويثبتون لنا أننا أفضل من الجميع ديناً وعلماً، وأولى أسباب الضلال هى الكارثة المنتظرة إذا إلتمسنا علوم الطبيعة فى القرآن فإننا إن فعلنا ذلك وقلنا عن آيات أنها تحتوى على إعجاز علمى فنحن نفتح الباب لكى يرد علينا من يثبت العكس بأن هذه الآيات بها خطأ علمى، وإذا لم نلجأ للحل الذى طرحته فى البداية وهو أن نعترف بأن القرآن كان يتفاعل مع معارف وعلوم هذه الأمة الأمية كما قال الإمام الشاطبى، ونخرج من هذا الفخ ونرفع عنا الحرج بأن نطلق على مايصفونه خطأ علمياً بأنه مجرد إنعكاس وترديد ورصد لعلوم هذا

العصر الذى من الممكن بل من الأكيد أن علوم زماننا تجاوزته بمراحل ، إذا لم نفعل ذلك فنحن نرتكب جريمة فى حق القرآن، ولكن أن نعاند ونصر على أن هذه الآيات بها إعجاز علمى فبذلك نكون قد فتحنا على أنفسنا أبواب جهنم وقمنا بجر وشد القرآن إلى ملعب ليس بملعبه، وجعلناه مطروحاً على بساط البحوث العلمية الكيميائية ومتأرجحاً على أرجوحة النظريات الفيزيائية والبيولوجية وبذلك نكون قد عبدنا ومهدنا أقصر الطرق لضلال المسلمين وإضلالهم وتزييف وعيهم، وسأضرب بعض الأمثلة من أشهر مايقدمه تجار الإعجاز العلمى تحت إسم إعجاز تطور الجنين ، حين يتناولون الآيات الخاصة بها فى سورة المؤمنون «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ❖ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»، وهى آيات تتحدث إلى المجتمع حينذاك بلغته المتداولة حينذاك عن معجزة الخلق التى هى مجرد خلق هذا الجنين بدون التفاصيل العلمية التى يدعونها، وعملية خلق الجنين والحمل والولادة فى حد ذاتها إقشعر لها بدن الإنسان منذ العصر الحجرى ، ولم يكن وقتها محتاجاً لأى تفاصيل علمية دقيقة بأن هذه معجزة كانوا ينسبونها قديماً لقوى غامضة ثم نسبت بعد ذلك إلى قدرة سماوية خارقة هى الله خالق الخلق أجمعين، ومايدعيه أصحاب بازارات الإعجاز العلمى من أن هذه الآيات تتحدث عن

أمور علمية معاصرة قول مغلوط، وعدم وجود هذه المعلومات والمفاهيم الحديثة عن تكوين الجنين ليس فيها أى إنتقاص من قدر القرآن وقدسيته. فالمفاهيم القديمة المتداولة وقبت نزول القرآن كانت تتحدث عن أن الجماع ومايندل منه من سائل منوى هو سبب الحمل ، وحتى فى سفر التكوين عندما أدين أونان لممارسته العادة السرية كانت الإدانة بسبب أنه بهذه العادة يمنع النسل، وهذه معلومة متداولة لاتعنى أى إعجاز إذا كانت النطفة تعنى الحيوانات المنوية كمايدعون، وبالطبع لابد أن نفهم الآيات من السياق ومن معانى الكلمات التى تشكل الآيات، فالنطفة هى قطرة الماء، والعلقة هى الدم الغليظ ولاعلاقة لها بالدودة التى يتحدث عنها د.زغلول النجار، والمضغة وغيرها من الأشكال لاعلاقة لها بأطوار تكون الجنين ولكنها ببساطة مراحل شاهدتها القابلات والأمهات والناس حينذاك من ملاحظة بسيطة أثناء الإجهاض، فالإجهاض يتم فى أى مرحلة ومن الوارد جداً عندما يحدث الإجهاض أن يصفه هؤلاء بأنه شبه العلقة أو المضغة ...الخ، كل هذا لايعكس أى معجزة علمية حديثة فالمفاهيم القديمة لاتذكر أبداً دور البويضة ولكن تذكر ماء الرجل وماء المرأة وهو الماء الذى ينزل منها قبل الإيلاج ولاعلاقة له بتكون الجنين بدليل أن فهم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه الأشياء كان مرتبطاً بمعتقدات ذلك الزمان، فعلى سبيل المثال هناك الحديث الذى يجيب فيه الرسول ﷺ عن سؤال المرأة « هل تغتسل إذا إحتلمت ؟فرد الرسول -عندما قالت عائشة تربت

يداك - قائلاً: دعيها وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه» ، هذه المفاهيم وغيرها هى التى كانت سائدة ولانستطيع أن ندعى أنها تعبر عن معلومات علمية معاصرة مثل مفهوم إتحاد الحيوان المنوى بالبويضة التى لم نجد لها أى ذكر فى ثقافة العرب القدماء وبالتالى فى القرآن، أما آية فكسونا العظام لحماً فهى تتحدث أيضاً عن مفهوم قديم أيضاً تفاعل معه القرآن لإقناعهم من داخل ثقافتهم وبلسان معارفهم، وهذا المفهوم يتحدث عن خلق العظام قبل العضلات وهو مايعتبره د. زغلول إعجازاً علمياً، ولكن سيندهش د. زغلول ولن يستطيع التخلص من هذا الفخ الذى أوقع نفسه وأوقعنا فيه حين يعرف أن العظام واللحم خلقا فى نفس الزمن لأن أى دارس لعلم الأجنة يعرف أن خلايا الجنين تنقسم إلى ثلاث طبقات :إكتوديرم وميزودرم وإندوديرم ، والأولى يتكون منها المخ والأعصاب والجلد والثانية وهى محور حديثنا يتكون منها العظام والعضلات بالتزامن والتوازى وليس عظم قبل لحم كما كان القدماء يتصورون ، أما الطبقة الأخيرة فمنها الأمعاء والكبد .... الخ، وأيضاً مفهوم تشكيل الجنين من الماء الدافق بين الصلب والترائب هو مفهوم أيضاً يتسق مع المفهوم الذى كان يقول قديماً هذا الإبن من ظهرى أو من صلبى وبالطبع كان يقولها القدماء قبل القرآن بدون أى إدعاء إعجاز، وكان رجال الدين اليهود والمسيحيون يحاولون نفس المحاولة مع سفر التكوين حين

خاطب الله يعقوب قائلاً وملوك سيخرجون من صلبك، وبالطبع تغيرت تلك الفكرة الآن وعرفنا أن الحيوانات المنوية تفرز من الخصيتين وتسبح فى سائل من البروستاتا والحويصلات المنوية، وبذلك نكون قد تأكدنا من أن محاولات رجال الدين فى كافة الأديان لإثبات الإعجاز العلمى محاولة مكتوب عليها الفشل المزمن.

السبب الثانى للضلال كما يسميه الإمام الشاطبى والذى يدعونا لإنكار الإعجاز العلمى هو تحويل العبادات والأوامر الإلهية القرآنية إلى فوائد علمية ولاأعرف لماذا هذه التعسف والعناء؟، فنحن نصوم لأن الله امرنا بذلك وليس لأن الصوم أفضل للكبد والقلب والبنكرياس ...الخ ولأنه ببساطة إذا كان الأمر يحتوى على كل هذه الفوائد لماذا نأكل الطعام فى كل الشهور الأخرى ولانصومها ؟!،وأنا أصلى لأن الله أمرنى بالصلاة وليس لأنها تمارين رياضية وإلا كانت تمارين الجمباز أفضل !!، وهكذا فتحويل العبادات وتسويقها للبشر بحجة أن فيها فوائد علمية ونظريات فسيولوجية فيه إمتهان للدين والعلم على السواء، ومن أشهر هذه الأوامر الإلهية التى حاول الإعجازيون تبريرها بأسباب علمية وتمريرها على أنها إعجاز علمى أمر الإمتناع عن تناول لحم الخنزير، فأنا كمسلم مطالب بعدم تناول هذا اللحم لأنه أمر إلهى ولكن أن تقدمه لى على أنه إعجاز علمى فأنت تدفعنى بلامبرر على الرد عليك يادكتور زغلول وأقول أن حديثك عن أضرار لحم الخنزير بأنها إعجاز علمى حديث مضلل، وأقول لك لماذا ؟، أولاً لأن الدين الإسلامى ليس

الدين الوحيد الذى حرم لحم الخنزير فهناك الدين اليهودى يحرمه أيضاً ، ففى سفر اللاويين والتثنية تقول التوراه عن الخنزير «من لحمها لاتأكلوا وجثتها لاتلمسوا»، وحتى الديانة المصرية القديمة حضت على كراهية الخنزير فيكفى أن إله الشر ست قتل الإله حورس بينما كان الأول على هيئة خنزير، وفى الأساطير الكنعانية مات كبير الآلهة على يد خنزير برى،وفى الأساطير الإغريقية قتل الإله أدونيس على يد خنزير برى أيضاً، إذن مسألة الإعجاز العلمى لمنع الخنزير ستجرنا إلى مقارنة غير مطلوبة، ثانياً: مسألة أن لحم الخنزير من الممكن أن تصيبه دودة شريطية تسمى التينيا سوليم فإن الإعجازيين يخفون عنا أن البقر من الممكن أن تصيبه دودة شريطية أخرى تسمى التينيا ساجيناتا فلماذا لم نحرم أكل البقر أيضاً ؟!،ويقال أن الخنازير تربى فى حظائر قذرة ولكن إذا عرف د. زغلول أن حظائر الخنازير فى أوروبا أكثر نظافة من بيوت كثيرة موجودة فى بلادنا، وأنه لو شاهد ماذا يأكل الدجاج فى حارات وشوارع القرى سيمتنع فوراً عن أكل الدجاج الذى يتناول أحياناً الفضلات !، هل وقتها سيبيح لحم الخنازير إذا ربيت فى حظائر نظيفة ؟!،أما العجب العجاب فهو ماسمعته من الإعجازيين عن أن لحم الخنزير يجعل الرجل ديوثاً أى لايغار على إمرأته، وهذا كلام فارغ لاأساس علمى له ولاعقلى والحديث فيه إضاعة للوقت !.

ثالث أسباب الضلال هو أن حق اللجوء العلمى للقرآن وإعتباره مرجعاً كيميائياً وفلكياً وبيولوجياً يجعل بعض رجال الدين يفرضون

على العلم الحديث تفسيراتهم الدينية فيتناقضوا معه ويجعلوننا أضحوكة العالم،كما حدث مع الشيخ بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد فى المملكة العربية السعودية الذى قال فى فتواه عام ١٩٧٦ بأن «القول بأن الشمس ثابته وان الأرض دائرة هو قول شنيع ومنكر، ومن قال بدوران الأرض وعدم جريان الشمس فقد كفر وضل ويجب أن يستتاب وإلا قتل كافراً ومرتداً ويكون ماله فيئاً لبيت مال المسلمين»، وقد إستند بن باز للدلالة على جريان الشمس والقمر الى بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى «وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى»، «والشمس تجرى لمستقر لها»، «وسخر لكم الشمس القمر دائبين» «فلا أقسم برب المشارق والمغارب» ويقول بن باز فى تفسيره أن الجرى فى لغة العرب هو السير والإنتقال من مكان الى مكان، أما أدلة ثبوت الأرض فقد جمعها بن باز فى الآيات القرآنية مثل «جعل لكم الأرض قرارا»، «جعل لكم الأرض مهادا»، «الذى جعل لكم الأرض فراشا»، «وألقى فى الأرض رواسى ان تميد بكم» ومن تفسيراته ان كون الأرض فراشًا مشروط بكونها ساكنة لأنها لو كانت متحركة لما كانت فراشًا على الإطلاق، وهكذا أصبح القرآن الكريم بين مطرقة زغلول النجار وسندان بن باز، ولكن هل توقف الإعجاز العلمى عند حدود القرآن أم جذبه البعض إلى حدود السنة النبوية؟.

## ( هـ ) الإعجاز العلمى فى السنة النبوية

الإيمان الدينى لايحتاج إلى كتاب فيزياء أو مرجع بيولوجى كى يثبت فى قلب المرء ووجدانه وعقله، واليقين بأن الله موجود وبأن محمداً عليه الصلاة والسلام نبيه المرسل لايزعزعه أن كتاب الله لم يتحدث فى النسبية أو يتطرق إلى نظرية الكوانتم، فإما إيمان أو لاإيمان، ومن دخل دار الإيمان لايحتاج إلى بواب يرتدى بالطو الطبيب أو لحارس يتقمص دور أمين المعمل لكى يوصله ويهديه إلى ردهة العشق الإلهى، المؤمن لايحتاج إلى هؤلاء لكى يثق بأنه قد دخل من الباب الصحيح، ولكن حزب زغلول النجار من سماسرة الإعجاز العلمى لايعترفون إلا بأن الإسلام يحتاج إلى مذكرات كلية الطب والعلوم لكى نعتنقه، وبأن المسلمين يحتاجون إلى دروس خصوصية فى تركيب الذرة وقانون مندل لكى يتفهموا القرآن!،والمدهش أن أعضاء جمعية المنتفعين بالإعجاز العلمى بعدما فرغوا من تحويل القرآن إلى نظريات فيزيائية ومعادلات كيميائية تحولوا إلى كتب السنة النبوية والأحاديث الشريفة لكى يمارسوا دجلهم وشعوذتهم فيها ويقدموا لنا من بين صفحاتها كوكتيلاً من الإعجاز، وقد تم هذا التحول والإستخراج بمنتهى

التعسف والإفتعال وكأنهم لم يكتفوا بتشويه نظرتنا للقرآن بل إمتد تخريبهم للسنة النبوية.

تم تدشين نظرية الإعجاز العلمى فى كتب الحديث بواسطة د. زغلول النجار فقد كان أول وأبرز صوت يعلن عن هذا الإكتشاف المذهل، فقد كان أستاذه مصطفى محمود أكثر حذراً ولم يحاول الإقتراب من هذه المنطقة الشائكة لأنه كان قد فطن إلى أن التدخل فى منطقة السنة النبوية بنظريات الإعجاز سيتحول إلى مغامرة محفوفة بالمخاطر، فهى منطقة ألغام شديدة الإنفجار لأن السنة النبوية فى النهاية نتاج بشرى فى معظمها وهذا لايعنى إنكاراً للسنة النبوية وإلا ماكان الصحابة يراجعون النبى بسؤالهم الشهير : أهو الرأى أم الوحى ؟،ولذلك فالأخطاء العلمية واردة ولاعيب فيها ولانقيصة، ذلك لأن الرسول - ﷺ - كان يتحدث بمفردات عصره وأفكار وعلوم زمنه وإلا مافهمه ولاإقتنع بنبوته أحد فى هذه البقعة الجافة القاحلة علمياً قبل زراعياً، وكانت جرأة د.زغلول صادمة حين بدأ بحديث الذبابة الشهير محاولاً منحه صبغة علمية فقد أطلق زغلول النجار فى ١١ نوفمبر ٢٠٠٣ فى جريدة الأهرام صفحة ٢٢ قنبلة كانت أقوى من إحتمالى ولاتحتمل السكوت، فقد تحدث عن حديث الذبابة وجعل منه كشفاً علمياً وفتحاً بيولوجياً على الغرب الجاهل أن يحلله ويفتح معامله لإستقباله والإحتفاء به، والحديث يقول «إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى إحدى جناحيه داء وفى الأخرى شفاء»، ويعلق قائلاً

أنه من الناحية العلمية ثبت أن الذباب يتغذى على النفايات والمواد العضوية المتعفنة حيث تنتشر الفيروسات والبكتيريا والجراثيم ولكى ينفرد ربنا بالوحدانية خلق كل شئ فى زوجية واضحة فخلق البكتيريا وأضدادها وقد أعطى الله للذباب القدرة على حمل الفيروسات والبكتيريا على جناح والمضادات على جناح، وأكد الدكتور زغلول على أن مجموعات من أبحاث المسلمين قامت بإجراء أبحاث على أنواع مختلفة من الأشربة وغمست الذباب فى بعضها ولم يغمس فى الباقى وعند الفحص المجهرى إتضح أن الأشربة التى غمس فيها الذباب خالية من كل الجراثيم المسببة للمرض !!،وبالطبع لايصمد هذا الكلام أمام أى تحليل علمى والسؤال ومادام الدكتور زغلول بهذه العبقرية لماذا لم ينشئ لنا مصنعاً إسلامياً لإستخراج المضادات الحيوية من أجنحة الذباب ويكفينا شر الجات وغلاء المضادات الحيوية؟،والمدهش أن هذه البديهية كنا قد تصورنا أنها حسمت فى العشرينات حين تبنى المفكر الإسلامى محمد رشيد رضا فى مجلته المنار ذات التوجه الإسلامى فكرة أن هذا الحديث غريب ويجب ألا نتمسك به حين قال فى المجلد ٢٩ الجزء الأول «حديث الذباب المذكور غريب عن الرأى والتشريع، فمن قواعد الشرع العامة أن كل ضار قطعاً فهو محرم قطعاً، وكل ضار ظناً فهو مكروه كراهة تحريمية أو تنزيهية على الأقل»، وكان بعض الشيوخ قد كفروا د.محمد توفيق صدقى حين هاجم هذا الحديث فى العشرينات فى نفس المجلة وقد دافع

عنه رشيد رضا قائلاً «ذلك المسلم الغيور لم يطعن فى صحة هذا الحديث إلا لعلمه بأن تصحيحه من المطاعن التى تنفر الناس من الإسلام، وتكون سبباً لردة بعض ضعفاء الإيمان، وقليلى العلم الذين لايجدون مخرجاً من مثل هذا المطعن إلا بأن فيه علة فى المتن تمنع صحته، وماكلف الله مسلماً أن يقرأ صحيح البخارى ويؤمن بكل مافيه وإن لم يصح عنده».

الجملة الأخيرة التى قالها رشيد رضا جملة شجاعة ترسخ لنا مبدأ هاماً من الممكن أن يصدم البعض وهو أننا لسنا مطالبين بأن نتبع كل ماكتبه البخارى لمجرد صحة السند فمن المهم جداً أن نناقش المتن إذا كان مخالفاً للعقل حتى ولو أجازه البخارى، والأمثلة كثيرة ومتعددة ولكن علماء الحديث المعاصرين كسالى عن التنقيب والبحث ومرعوبون من فكرة تنقيح أحاديث البخارى، برغم أنه قد رفض من قبلهم أئمة ورجال دين مستنيرون بعض أحاديث البخارى لتعارضها مع العقل ولأنها كانت تتحدث عن معلومات وبيئة هذا الماضى البعيد، وسنكتفى من هذه الأمثلة بمايعارض العلم الحديث ويهدم نظرية الإعجاز العلمى المزعومة:

● الأحاديث التى أخرجها الشيخان بالنسبة لرفض فكرة العدوى وهى «قال رسول الله - ﷺ - لاعدوى ولاصفر ولاهامه، فقال أعرابى :يارسول الله: فمابال إبلى تكون فى الرمل كأنها الظباء فيأتى البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها ؟، فقال من أعدى الأول ؟! «والحديث الثانى «لاعدوى ولاطيرة ويعجبنى الفأل»،

والحديث الثالث «لاعدوى ولاطيرة"، وإنما الشؤم فى ثلاثه :المرأة والفرس والدار»، والغريب أن هناك أحاديث أخرى تثبت العدوى مثل "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلاتدخلوها»، والسؤال هل يكمن الإعجاز فى الأحاديث الأولى أم الحديث الأخير ؟!، وحل هذا التناقض بسيط وهو كما قال كثير من الفقهاء عن أن أحاديث المفاهيم العلمية والطبية والملابس والطعام ...الخ ليست من العقيدة ولا من الأوامر الإلهية الموحاة للنبى ومجال الفصل مابين السنة القولية والفعلية واسع ولامجال هنا لمناقشته .

● الحديث الذى أخرجه الشيخان عن حركة الشمس والذى يقول «كنت مع النبى فى المسجد عند غروب الشمس، فقال ياأبا ذر! أتدرى أين تغرب الشمس ؟، قلت: الله ورسوله أعلم !، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها»، وللعلم إعتمد على هذا الحديث بن باز فى فتواه التى كفر بها من يقول بكروية الأرض وحركتها حول الشمس، وفى رواية أخرى يتحدث الرسول عن أن الشمس يقال لها إرتفعى وإرجعى فتطلع وتغرب ...الخ، ومن المعروف الآن لطلاب المرحلة الإعدادية فى الجغرافيا أن الشمس مستقرة فى مكانها وأن الشروق والغروب ليس سببه حركتها هى بل سببه دوران الأرض حول نفسها، وأن هذا الشروق والغروب مستمران طيلة الأربع والعشرين ساعة وفى كل لحظة تكون فى حالة شروق بالنسبة لمكان فى الأرض، وفى الوقت نفسه فى حالة غروب بالنسبة للمكان المقابل من الأرض،

ومن الواضح أن الحديث يتماشى مع ثقافة أهل هذا الزمان ومفاهيمهم التى تعتبر الأرض ساكنة ومسطحة وأن الشمس هى التى تتحرك، ولم يكن مطلوباً من الرسول أن يكون عالماً بنظريات الفلك فى القرن العشرين ولم يكن تقصيراً منه أن يتحدث بلغة وعلوم قومه وإلا لرفض أهل البادية إعتناق دينه حينذاك .

● حديث خلق الله آدم طوله ستون ذراعاً وأن الخلق لم يزل ينقص بعده حتى الآن والذى أخرجه الشيخان أيضاً، وهنا تبرز إشكالية علمية هامة فالذراع عند العرب إما ٢٤ أصبع أى حوالى ٤٨ سم أو ٣٢ أصبعاً أى حوالى ٦٤ سم، يعنى بهذا القياس فإن أبانا آدم لن يكون طوله أقل من ثلاثين متراً بأى حال من الأحوال وهذا يخالف كل ماإكتشفه علماء الآثار والحفريات عن أقدم هياكل البشر العظمية التى لايختلف طولها عماعليه الإنسان الآن إلا قليلاً، وأيضاً لم يلاحظ هذا القصر التدريجى من ثلاثين إلى عشرين إلى عشرة متر ...الخ، والغريب أن هذا الحديث مثلما أدهشنى أدهش الحافظ بن حجر العسقلانى فقد كتب فى كتابه فتح البارى " ويشكل على هذا مايوجد الآن من آثار الأمم السالفة كديار ثمود، فإن مساكنهم تدل على أن قاماتهم لم تكن مفرطة فى الطول على حسب مايقتضيه الترتيب السابق، ولاشك أن عهدهم قديم، وأن الزمان الذى بينهم وبين أول هذه الأمة، ولم يظهر لى إلى الآن مايزيل هذا الإشكال».

● حديث آخر أخرجه الشيخان يقول «إذا سمعتم صياح الديكة فإسألوا ألله من فضله، فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطاناً»، وهذا الحديث من غرائب مرويات أبى هريرة، وسنناقش بالمنطق هذا الحديث فالقرآن والحديث ينصان على أن لكل إبن آدم ملائكة حفظة وملكان يكتبان أعماله وعلى ذلك فلابد أن تصيح الديكة طيلة الأربع والعشرين ساعه، وكذلك الحال مع الحمار لابد هو الآخر أن ينهق أربعاً وعشرين ساعة لأن لكل إنسان شيطاناً موكلاً به وقريناً يضلله،وفى القرى المصرية نشاهد حميراً كثيرة أمام المساجد وفى الشوارع فيجب عليها طبقاً للأحاديث أن تنهق عند الآذان لأن هناك حديثاً يقول أنه إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان له ضراط، فهنا كان لابد للحمار أن ينهق عند سماع صوت المؤذن لأنه سيشاهد الشيطان الذى خرج وأدبر!!.

● الحديث الذى أخرجه البخارى والذى يقول أن التثاؤب من الشيطان، ونحن درسنا التثاؤب فى كلية الطب بأنه إنعكاس فسيولوجى عند التعب أو النعاس ولاعلاقة له بشيطان أو خلافه .

● وكذلك الحديث الذى أخرجه الشيخان والذى يقول «مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا إبن مريم وأمه»، وبالطبع يعرف جميع أطباء النساء والولادة أن سبب صراخ المولود هو دخول الهواء للرئتين لأول مرة بعد أن كان يعتمد الجنين على الحبل السرى فى الغذاء والأوكسيجين.

● حديث آخر أخرجه الشيخان مروى عن أبى هريرة ويتعارض مع العلم الحديث ويقول «إشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضى بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس فى الشتاء، ونفس فى الصيف، فأشد ماتجدون فى الحر، وأشد ماتجدون من الزمهرير «وبالطبع ينكر علم الجغرافيا هذا الكلام فسبب الحر والبرد عوامل جغرافية وجوية مثل ميل الشمس وعموديتها وحركة الرياح والضغط الجوى والقرب والبعد عن سطح البحر...الخ، والسؤال إذا كان هذا النفس يخرج على العالم كله فكيف نفسر تفاوت وإختلاف درجات الحرارة فى بقاع العالم المختلفة فى نفس الوقت؟!.

وفى النهاية نقول نحن عندما تصدينا لدعاة الإعجاز العلمى كان هدفنا الأول هو الدفاع عن الدين وعن العلم أيضاً، ويجب علينا أن ننظر إلى كم التخلف والجهل الذى نعيش فيه كمسلمين ونعترف بأننا فى القاع فكرياً وعلمياً، والحل هو أن نتسلح بالمنهج العلمى فى التفكير ونؤمن بأن معجزة ديننا فى أفكاره وثورته الإجتماعية وتفاعله مع رغبات البشر وحياتهم البسيطة، وليس عيباً أو نقيصة أو قدحاً فى الدين ألا نجد فيه نظرية فيزياء أو معادلة كيمياء فيكفيه أنه نصحنا بأن نسير فى الأرض ونقرأ وندرس ونحلم بتغيير المستقبل.

# ٢ - خلافات فقهية فى مسائل علمية

يحلو للبعض النظر الى القضايا العلمية بمنظار الدين وتأخذهم النشوة حين يستطيعون جر العلم من المعمل الى المسجد ويبدأون فى محاسبته بالنصوص الفقهية بدلاً من المعادلات الرياضية، وينسون فى غمرة هذا الحساب أن منهج العلم مختلف عن منهج الدين، وهذا لا يعيب كليهما ولا يعنى بالضرورة أن النقص كامن فى أحدهما، فالمقارنة لا محل لها ومحاولة صنع الأرابيسك «العلمدينى» بتعشيق هذا فى ذاك محاولة محكوم عليها بالفشل مقدماً، فالعلم هو تساؤل دائم أما الدين فيقين ثابت ، العلم لا يعرف إلا علامات الاستفهام، والدين لا يمنح إلا نقاط الاجابة، كلمة السر فى العلم هى القلق أما فى الدين فهى الاطمئنان، هذا يشك وذاك يحسم.

وكل القضايا العلمية المعلقة والتى تنتظر الاجابات الشرعية لن تجد هذه الاجابات لسبب بسيط هو أن من عرضوها منتظرين الاجابة قد ضلوا الطريق فالاجابة تحت ميكروسكوب العالم وليست تحت عمامة الفقيه، ولنحاول أن نقوم برحلة عبر أحراش

هذه العلاقة المعقدة ما بين العلم والفقه، وأن نطل سريعا على عينه من هذه القضايا حتى نعرف كم هو مختلف منهج العلم عن منهج الدين، ولنعرف أيضاً أننا كثيراً مانطرق الباب ونظل منتظرين أن يجيب علينا أحد ويفتح لنا الباب، ولكننا فى النهاية نفاجأ بأننا قد طرقنا الباب الخطأ فى الوقت الخطأ .

وتقتضى الأمانة العلمية أن نعرض للقطات سريعة من تاريخ هذه العلاقة فى الغرب والتى حسمت هناك منذ وقت طويل باقتناع الفريقين بأن لكل منهما مجاله، فالقسيس هناك حدوده جدران الكنيسة لا يفتى فى العلم، والعالم هناك لا حدود لطموحه وليس مطلوبًا منه منح صكوك الغفران، ومرجعنا السريع فى علاقة الدين بالعلم فى الغرب هو الكتاب القيم والذى صدر عن دار الهلال وهو من تأليف الفيلسوف برتراند راسل وترجمة د. رمسيس عوض تحت عنوان «الدين والعلم» وفيه يعرض المؤلف لبعض المعارك التى إشتعلت بين رجال الدين والعلم، والتى للأسف فى معظم الأحيان راح ضحيتها علماء قتلوا أو أحرقوا او أجبروا على التوبة ولكن كان ولابد من هذا الثمن حتى تتطور الحضارة، وأعتقد أن سبب تقدمهم وتأخرنا فى هذا المجال، هو أننا لم ندفع ثمن العبور من بوابة الحضارة حتى هذه اللحظة .

الصراع بين الكتاب المقدس والعلم الحديث فى الغرب كان صراعاً محتدماً بين مرجعية النصوص وقوة ودقة الملاحظة والمشاهدة والتجربة، وأولى لقطات هذا الصراع هو نظرية دوران

الأرض، وأول أبطاله هو كـوبرنيكوس والذى قـال عنه لوثر «إنه نصاب يحاول أن يبين أن الارض هى التى تدور وليس السماوات أو الشمس والقمر»، وكان مصدر هذه التهمة هو الإستناد إلى بعض آيات الكتاب المقدس مثل الآية التى تخبرنا بأن يوشح أمر الشمس وليس الأرض ان تقف فى مكانها، والاية رقم ١ من المزمـور ٩٣ والتى تقول «أيضا تثبتت المسكونة لا تتزعزع»، أما المصدر الخفى والحقيقى هو خوف القساوسة والكهنة وغضبهم من أن إقصاء كوكب الأرض عن وضعه المركزى سيقصى الإنسان هو الآخر عن وضعه المميز فى الكون.

أما البطل الثانى فهو جاليليو وتلسكوبه الذى جر عليه المتاعب وأضاف أربعة أجرام سماوية اخرى فوق السبعة الذين آمن بهم القدماء فحدث الانزعاج والرفض لأن هذا لا يستقيم مع إشارات الكتاب المقدس، لأن الأجرام السبعة هى الشمعدانات السبعة التى تحدث عنها سفر الرؤية، وكانت نتيجة هذا الهجوم ترقية قسيس دومنيكانى بسبب موعظة ألقاها حول نص الكتاب المقدس القائل «وأنتم يا سكان الجليل لماذا تقفون محملقين فى السماء؟»، ذهب منها إلى أن الهندسة رجس من الشيطان وأنه ينبغى إستبعاد علماء الرياضة باعتبارهم مؤلفى كل الهرطقات ....، وقد دخل علماء الجيولوجيا والأحياء فى جدل عنيف مع رجال اللاهوت حول قصة سفينة نوح والتى استبنط منها اللاهوتيون أن كل الحيوانات الموجودة حالياً تنتمى إلى أنواع تمثلت فى الحياة فى سفينة نوح،

وبذلك فالأنواع ثابتة لا يطرأ عليها التغيير أو التبديل وكان أى شك فى ذلك خاصة من علماء البيولوجيا المؤمنين بالتطور كفيلاً بإلصاق تهمة الكفر، وجاء اكتشاف أمريكا ليحير اللاهوتيين فأمريكا كانت أبعد ما تكون عن الجبل الذى وجدت عليه سفينة نوح ومع ذلك فقد عثر فيها على حيوانات كثيرة ليس لها وجود فى الأماكن التى تحتل مركزاً وسطاً، فكيف استطاعت هذه الحيوانات السفر إلى هذه الأماكن النائية ؟!، وتلقى داروين معظم الهجوم حتى أنه وصف من قبل المتعصبين من رجال الدين بأنه الرسول الذى يدعو الى عبادة القذارة»...

وبعد الفلك والجيولوجيا جاء الصراع مع علم الطب والذى كان اكثر احتدامًا وعنفاً، ففلسفة المرض عند رجال الدين القدامى هو أنه عقاب من الله، وقد ذهب القديس أو غسطين إلى أن جميع أمراض المسيحيين ترجع إلى الشياطين وكان للقديسين منزلة كبيرة فى جلب الشفاء فعلى سبيل المثال نجد أن الناس ظلوا لقرون كثيرة يعتقدون فى قدرة عظام القديسه روزاليا المحفوظة فى بليرمو بإيطاليا على شفاء الأمراض، ولكن عندما قام عالم تشريح دنيوى بفحص هذه العظام إكتشف أنها بقايا عظام ماعز !!، وقد أفلت هذا العالم لحسن الحظ من الحظر الذى كان قد أجرى على علم التشريح والذى اعتبره القساوسة مانعاً ضد بعث الأجسام من الموت، وإمتدت الخزعبلات من الأمراض الجسمية الى الأمراض النفسية والتى إرتبطت بالسحر إعتمادا على الآية ١٨ فى اصحاح

٢٢ من سفر الخروج والتى تقول "ولا تدع ساحرة تعيش"، ومن الأشياء الطريفة فى تاريخ هذه المحظورات، والتى تجعلنا نقول ما أشبه اليوم بالبارحة وما أشبه اقول القساوسة القدامى بأقوال الشعراوى الحالية والذين قالوا ما يشبه قوله عن غسيل الكلى أنه تأجيل لمشيئة الله ، فقد وقفوا ضد تلقيح الجدرى لدرجة قيام قسيس انجليكانى بنشر موعظة جاء فيها أن «قروح ايوب ترجع دون شك إلى أن الشيطان قام بتلقيحه!!»، واشترك كثير من قساوسة اسكتلندا فى إعداد بيان جاء فيه أن التلقيح يعتبر «محاولة لإصابة حكم الله وتقديره بالارتباك»، وقال أحد القساوسة عن مرض الجدرى «إذا كنا قد إبتلينا بمرض الجدرى فإن ذلك يرجع الى ما مارسناه من عربدة فى الشتاء الماضى فقد انغمسنا فى شهوات الجسد لدرجة أثارت غضب الله» !!.. وحتى التخدير واكتشافه الذى أنقذ البشريةمن الآلم واتاح الفرصة لأعقد العمليات الجراحية ان تجرى فى أمان كامل، حتى هذا الاكتشاف لم ينج من تدخل رجال الدين الذين إعترضوا حين حاول أحد الأطباء سنة ١٨٤٧ ان يستخدم التخدير فى حالات الولادة، وذكروا الآية ١٦ فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين والتى تقول «بالوجع تلدين اولادك»..

وقد قصدت أن أذكر بعضاً من الصراع بين رجال العلم ورجال الدين فى الغرب كى أؤكد بأن الخلاف بينهما هنا فى الشرق لا يرجع إلى طبيعة كامنه فى عقلنا الشرقى أو فى ديننا الاسلامى

ولكن الخلاف يرجع الى ما قلته سابقاً عن الإختلاف بين طبيعة العلم وطبيعة الدين ، وبأن أى خلط متعسف يؤدى بالقطع الى مثل هذه المعارك التى تؤخر وتعوق مسيرة التقدم .

ننتقل إلى المعارك بين العلم والدين وهى كثيرة فى مجتمعنا الاسلامى، ولنبدأ بعلم الفلك والذى يتحكم فى كثير من طقوسنا الدينية كمواقيت الصلاة وصوم رمضان ورؤية هلال بداية الشهور الهجرية ... ... الخ، وهاهو كل رمضان ينذرنا بأن مشكلة تحديد بداية الشهر لم ولن تحسم، هل هى برؤية العين ام بحساب العلم الفلكى؟ وتظل البلاد الاسلامية أسيرة التخبط والانقسام.

والحمد لله فأمتنا لا ينقصها الانقسام، فهى منقسمة أصلاً سياسياً واقتصادياً، ولكن الإنقسام الدينى يأتى ليكمل الحلقة، ولكن المفاجأة ان ما نتحدث عن من تحديد لبداية الشهور الهجرية هو ترف شديد وأمنية حالمة بل ومستحيلة، لأنه لابد من أن نعرف أنه يوجد من لا يعترفون ببديهية علم الفلك الأساسية من أصله، وهى أن الأرض تدور حول الشمس والتى أثبتها كوبرنيكوس وحوكم من أجلها جاليليو حتى اصبحت من أساسيات المعرفة الإنسانية ككل وليس علم الفلك فقط، ولنقرأ سويًا فتوى الشيخ الإمام عبد العزيز باز حتى نحكم بأنفسنا .. يقول الشيخ الامام عبد العزيز بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد فى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٧٦ .

«القول بأن الشمس ثابته وأن الأرض دائرة هو قول شنيع ومنكر، ومن قال بدوران الأرض وعدم جريان الشمس فقد كفر وضل ويجب أن يستتاب وإلا قتل كافراً ومرتداً ويكون ماله فيئاً لبيت مال المسلمين» ، ونأتى هنا الى مسألة المنهج التى تحدثنا عنها فى السابق ونسأل الى ماذا استند الشيخ بن باز فى فتواه، هل استند الى رأى اهل العلم وهم فى هذه الحالة علماء الفلك؟، الواقع لا، فهؤلاء العلماء كفره ولكنه إستند الى القرآن الكريم والأحاديث وكتب السلف الصالح، وهذا المنهج الذى يلوى عنق النصوص لإستخراج الحقائق العلمية طالما هاجمه الكثيرون حتى من بين علماء الدين أنفسهم، أما عن هذه الأدلة التى قدمها بن باز فيما بعد سنة ١٩٨٢ فقد كانت كالتالى:

**أولاً:** الدلالة على جريان الشمس والقمر فقد استند بن باز الى بعض الأيات القرآنية مثل قوله تعالى «وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى»، «والشمس تجرى لمستقر لها»، «وسخر لكم الشمس والقمر دائبين»، «فلا أقسم برب المشارق والمغارب» ، ويقول بن باز فى تفسيره أن الجرى فى لغة العرب هو السير والإنتقال من مكان الى مكان، فالشمس جارية أى سائرة متنقلة من منزله ، وأما ما إستمده من الأحاديث الشريفة لإثبات صحة فتواه فهو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوماً أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال ان هذه تجرى حتى تنتهى الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها

إرتفعى وإرجعى حيث جئت ... الخ»، ثم يضيف الإمام بن باز بأن الشمس سقفها ليس بكروى وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، ثم يؤكد الإمام بن باز أنه كان من جملة الناس الذين شاهدوا بعيونهم وأبصارهم سير الشمس وجريانها قبل أن يذهب بصره وهو فى سن التاسعة عشر من عمره...

كانت هذه عينة من الأدلة على جريان الشمس والقمر، أما أدلة ثبوت الأرض فقد جمعها بن باز فى أولاً الآيات القرآنية مثل «جعل لكم الأرض قرارا»، «جعل لكم الأرض مهادا»، «الذى جعل لكم الأرض فراشا"»، «وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم» ، ومن تفسيراته أن كون الأرض فراشًا مشروط بكونها ساكنة لأنها لو كانت متحركة لما كانت فراشا على الإطلاق، وثانياً الأحاديث النبوية الشريفة ومنها الحديث الذى يقول «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت...» ، ومن هنا إستخلص بن باز أن الحديث النبوى قد اثبت ثبوت الأرض، وبذلك إكتملت ملامح فتوى تكفير جاليليو وتلاميذه والتى لم يتنازل عنها بن باز حتى الآن.

والقضية العلمية الأخرى التى تعرضت لخلافات فقهية شديدة هى قضية «اطفال الانابيب» و«الإخصاب الصناعى» وكان السؤال الذى أثار القلق هو متى تبدأ الحياة ؟، وقد تعددت الإجابات على هذا السؤال الشرعى العويص والذى إستغرق جدلاً لم يحسم حتى الآن ، وكانت أكبر مظاهر هذا الجدل فى مؤتمرى "الإنجاب فى

ضوء الإسلام» و «بداية الحياة الانسانية ونهايتها فى المفهوم الاسلامى» واللذين عقدا فى الكويت عامى ١٩٨٣ و ١٩٨٥، وقد إنقسم الفقهاء فى مناقشتهم لموضوع بداية الحياة إلى ثلاث فرق، الفريق الأول يرى أن الحياة تبدأ من لحظة الإخصاب ويعتمد على قوله تعالى «خلقنا الانسان من نطفه»، وأنه إذا أثبت ان المرأة حامل يحفظ حق جنينها الشرعى فى الميراث، والفريق الثانى يرى ان الحياة تبدأ بعد نفخ الروح وذلك إستناداً الى الحديث الشريف الذى يقول «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن امه أربعين يوما، ثم علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: أجله، ورزقه وشقى هو أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح... الخ»... ثم نصل إلى الفريق الثالث الذى يحاول أن يوفق بين الرأيين فيذهب الى أن الحياة لا تبدأ منذ الاخصاب وانما لحظة «العلوق» وهو إلتصاق البويضه الملقحة بجدار الرحم، وتأتى أهمية الإجابة على هذا السؤال من أنه بتبنى رأى فريق وتفضيله على رأى الفريق الأخر تتأثر أبحاث أطفال الأنابيب وتتقلب من النقيض الى النقيض، فمثلاً إذا تبنينا الرأى الأول وهو أن الحياة تبدأ منذ لحظة التقاء الحيوان المنوى بالبويضة فإن هذا يعنى انه لايمكن اجراء تجارب على البويضة الملقحة التى هى عمار أبحاث اطفال الأنابيب وتتوالى الأسئلة التى بلا إجابة مثل ما الذى يمكن ان نفعله بالأجنة التى تم تجميدها؟، وماذا نفعل فى البويضات الملقحة الفائضة؟ وهل يحق للزوجة التى توفى زوجها أن يزرع فى رحمها

بويضتها الملقحة بمنى زوجها المتوفى؟ ، وهذه المسألة الأخيرة بالذات رفضها الشرع لأنه يرى أنه بمجرد وفاة الزوج تنتهى العلاقة الزوجية وبالتالى يعتبر الزوج المتوفى أجنبيا، ومثل هذه القضية عشرات القضايا المماثلة فى صعوبتها والتى أثارتها قضية أطفال الأنابيب التى جرت الفقهاء الى سباق محموم إتضح أنه فخ ملئ بآلاف الألغاز والمتاهات ..

وإذا كان سؤال متى تبدأ الحياة هو الذى أثار الجدل واللغط فى قضية أطفال الأنابيب، فإن سؤال متى تنتهى الحياة او ما هو الموت الشرعى؟ هو السؤال الذى عطل قضية نقل الأعضاء وزرعها من حديثى الوفاه حتى هذه اللحظة ؟! ، أما ما هى الفتاوى التى أجهضت قانون زرع الأعضاء فأكثرها شهرة وتأثيرا فتوى الشيخ الشعراوى بعدم جواز نقل الأعضاء الآدمية من إنسان لإنسان على اعتبار ان الأعضاء ملك لله ولا يجوز للانسان أن يتصرف فيما لا يملكه، أما الفتوى الرسمية التى اعطت ثقلا لفتوى الشعراوى فقد كانت فتوى شيخ الأزهر السابق الشيخ جاد الحق على جاد الحق والتى نشرتها جريدة اللواء الاسلامى فى ٦ مايو ١٩٩٣ والتى تقول" الموت علامته سكوت الأعضاء وهمودها ويؤكد هذا أن الله أمر عباده ألا يأكلوا من الذبيحة أو يقطعوا شيئا من اعضائها او يتعجلوا بالسلخ قبل أن تموت بالذبح ، فإذا كان الله قد أمر بعدم قطع شئ من البهيمة قبل أن تموت وتبرد حركتها فأولى بذلك الإنسان الذى كرمه الله حيًا وميتًا، إن الموت الذى تتبنى عليه

الأحكام الشرعية لا يتحقق الا بمفارقة الروح للجسد وبهذه المفارقة تتوقف جميع أجهزة الجسد وتنتهى مظاهر الحياة من تنفس ونبض وتماسك عضلات وغير ذلك، وانتهى فضيلته إلى أنه «يعتبر قتلاً لهذه النفس قطع أى جزء من جسد المريض المحتضر قبل التيقن من موته بتلك العلامات الشرعية».

ومما هو معروف أنه مع هذه العلامات الشرعية التى ذكرها شيخ الأزهر السابق ستفشل أى عملية لزرع الأعضاء حتما لأنها تتطلب أن يكون القلب نابضًا فى معظم هذه العمليات، وما زالت هذه الفتاوى هى صاحبة الصوت الأعلى برغم الفتاوى المبيحة مثل فتوى شيخ الأزهر الحالى والمفتى السابق د. سيد طنطاوى وأيضًا فتوى الشيخ يوسف القرضاوى..

القضية الأخرى وهى قضية مرضى «ترانسكس» أو الخنثى النفسية والتى نعرض فيه للأدلة الشرعية التى إعتمد عليها الفقهاء فى منع إجراء عمليات تحويل الجنس ، وأهم هذه الأدلة هو الحديث الشريف والذى رواه البخارى عن ابن عباس قال «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء».. وحديث آخر هو «لعن النبى صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال «وحديث ثالث يقول» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجوا المخنثين من بيوتكم»... وقد امتنع جراحو التجميل وجرمت نقابة

الأطباء هذه العمليات بناء على ما سبق إستنتاجه من الأحاديث بعد أن كانت مثل هذه العمليات تجرى فى مصر وبمنتهى السهولة وبدون اى قلق او ضجة او إدانة وتجريم لأن المسألة طبيًا هى جسد يعلن عن نفسه بأنه ذكر ومخ يلح عليه أنت أنثى، وهنا لاحل بعد فشل العلاج النفسى الكامل إلا الجراحة.

أما اكثر القضايا العلمية إثارة وسخونة وجدلاً، فهى قضية الختان والتى ازدادت حدة المناقشات حولها فى الآونة الأخيرة وخاصة بعد فيلم السى. إن. إن الشهير والذى تحركت وزارة الصحة بعده وبناء على إضطراب اجتماعى وحيره إكتنفت جميع الطبقات فطلبت رسمياً من فضيلة المفتى السابق د. طنطاوى إصدار فتوى رسمية لحسم قضية الختان حتى تتمكن الوزارة من إعداد مشروع قانون ينظم أو يمنع هذه العملية بما لا يتعارض مع الشريعة، أعلن فضيلته هذه الفتوى التى قال فيها» عن ختان الإناث لم يرد بشأنه حديث يحتج به وإنما وردت آثار، حكم المحققون عليها بالضعف ومنها حديث «الختان سنة للرجال مكرمة للنساء» وحديث لا تنهكى فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للرجل، وقد ذكر هذه الأحاديث جميعها الإمام الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار وحكم عليها بالضعف، وذكر قول الإمام بن المندر «ليس فى الختان خبر يرجع اليه ولا سنة تتبع وهكذا فإن جميع أحاديث ختان المرأة ضعيفة معلولة مخدوشة لا يصح الاحتجاج بها»، ثم يضيف فضيلته

إن من الأدلة على أنه عادة وليس سنة أن معظم الدول الاسلامية التى تزخر بالعلماء والفقهاء لا تلتزم بالختان، ولكن هل إنتهت المسألة عند هذا الحد ؟، الواقع أن شيخ الأزهر السابق جاد الحق لم يدع الفرصة تمر وخرج على الجميع بفتوى مفاجئة يقرر فيها أن ختان الإناث من شعائر الاسلام ، وأن تركه يوجب القتال وأن عدم ختان البنات يؤدى بهن الى الإنحراف وأنه لا يجوز ترك الفصل فى القضية للأطباء لأن الطب يقوم على العلم والعلم متغير، وأدت هذه الفتوى المفزعة بالدكتور على عبد الفتاح وزير الصحة السابق إلى التراجع عن القرار الذى كان يعد له بمنع ختان الإناث تماماً حتى فى المستشفيات الى أن تولى الدكتور سلام وزارة الصحة وأصدر قراره الحاسم بالمنع ، والذى جعل بعض الأطباء وعلى رأسهم د. منير فوزى يرفعون قضية يطالبون فيها بمنع هذا القرار، ودفع أيضا بعضو فى مجلس الشعب لأن ينادى بإصدار قانون يبيح ختان الإناث، وكان الطرفان الطبيب وعضو مجلس الشعب مستندين الى فتوى شيخ الأزهر السابقة.

وهكذا تتداخل المسائل وتتشابك القضايا وتتعقد الاستنتاجات والقرارات، وللأسف فإن هذا التداخل والتعقد والتشابك والاضطراب يؤذى العلم والدين على السواء فيقف العلم مكتوف الأيدى مكبلاً مشلولاً تنقصه الجرأة والمبادرة، يعانى من الخوف ومن سطوة العادات والتقاليد والأحكام الأخلاقية وفى المقابل

يوضع الدين فى مكان غير مكانه وينزل من عليائه وقدسيته ليطالب بالتحكيم فى قضايا علمية يضار منها بسطاء الناس، والذين للأسف يغضبون من الأحكام الفقهية ويعاملونها على أنها هى الدين، فيتهمونه بما ليس فيه وبما ليس مطلوباً منه، وبهذا المنطق يحدث التصادم بدلاً من التكامل، ويحدث الشقاق بدلا من الوفاق ، والخاسر فى النهاية هو الإنسان الذى هو فى الحقيقة الهدف والغاية للدين والعلم.

# ٣ - التيار المتخلف ينتصر فى معركة زرع الأعضاء

«المهزله» لم أجد أدق من هذه الكلمة التى قالها د .غنيم فى إحدى حواراته لأصف بها اللامبالاة التى يواجه بها المسئولون قضية نقل الأعضاء، فالتشريع موجود والكون كله قد إستقر على الضوابط والمعايير وكبار الأساتذه حمدى السيد وعبد المنعم حسب الله ومحمد غنيم والمرحومين يس عبد الغفار وخيرى السمرة وغيرهم من كبار الأساتذه صرخوا «نقل الأعضاء من المتوفين حديثاً هو الحل»، وشيخ الأزهر أقر أصحاب الإختصاص رأيهم، وبعد كل هذا فالقانون مازال يغط فى نوم عميق ولانعرف لماذا ولالمن نلجأ؟؟، وتأخذ المهزلة شكل الفاجعة وتفقد كل أبعادها الكوميدية حين تصبح قضية زرع الأعضاء ساحة لتصفية الخلافات وإستعراض العضلات، فيصفى رئيس تحرير جريدة كبرى حساباته مع حمدى السيد من خلالها بعد أن قاد حملة مؤيدة للقانون منذ أقل من عام ولكن لاأعرف لماذا تغيرت البوصلة

الآن!!، ويستغل التيار الدينى هذه القضية ليستعرض قوته بضغطه على الحكومة ومجلس الشعب حتى لايمر وكلما تعطل القانون تأكدت قوتهم، وحتى مجلس الشورى وجدها فرصة لإثبات أنه ليس مجلس ديكور و«ماصدق» حين أحال الرئيس مبارك القانون إليه ليثبت أن له صوت وأنه مؤثر فى صنع القرار، وإنتهز المرحوم د.ماهر مهران عضو مجلس الشورى الفرصة ليقول «نحن هنا وكعكة الشهرة التى ذهبت عنى بذهاب الوزارة قد آن الأوان لأن تعود» ، فقرر خطف الأضواء من حمدى السيد وشريف عمر عضوى مجلس الشعب وقتها، ورفض القانون بدعوى التمهل والتأنى ومزيد من التمحيص والتفعيص والدراسة، ونسى أن قانون الصحافة الجائر تم تمريره فى أربعه وعشرين ساعة فقط!!، وأصبحت ساحة مناقشة هذا القانون ساحة غوغائية كسوق التلات كسب الجميع فيها وغنموا ماعدا المريض الغلبان الذى يصرخ أين الحل؟!.

يستحق قانون نقل و زرع الأعضاء أن يدخل موسوعة جينس للأرقام القياسيه فهو القانون الوحيد فى العالم الذى إستغرقت مناقشته ربع قرن ولم يحسم بعد، ونحن نعرف أن المواطن المصرى مشهور بطول البال والصبر ولكنى أعتقد أنه ليس لهذه الدرجه فهذا ليس طول بال أو صبر ولكننا يمكن أن نضعه تحت بند البلاده أو التناحه وهذا بالطبع نستبعده ولانتمناه،وهذا يجعلنا نتساءل ماهى الحكايه إذن ولماذا يتعطل هذا القانون فى أروقة مجلس

الشعب ؟، وكيف لقانون بمثل هذه الأهمية والخطورة أن نتصرف حياله بأعصاب بارده وكأننا نناقش قضية إرتفاع أسعار السيمون فيميه لاقضيه يموت بسبب برودنا حيالها الألاف كل يوم؟!!، ومصدر الأهمية والخطورة لايتأتى من غموضه فهو فى رأيى محسوم على مستوى العالم كله علمياً و دينياً كما سأوضح فيمابعد، ولكنه يتأتى من كونه قضية حياتية فيها ساحة صراع بين قوى التخلف والتقدم فى هذا الوطن، بين من يريد جرنا للماضى وبين من ينشد شدنا للمستقبل، وحسم هذه القضية سيوضح بما لايدع مجالاً للشك فيمن له الغلبة فى مصرنا المحروسة، هل هم تتار الماضى أم حماة المستقبل ؟،وسيضع من أدمنوا مسك العصا من المنتصف فى موقف مواجهة ترفض الحلول الوسط و«الممَاينة» واللعب على كل الحبال، وتطرد من ساحتها من يأكلون على موائد معاوية صباحاً ويصلون خلف علىّ ظهراً ، ويسبون الإثنين قبل هبوط الليل! .

وأتمنى أن تكون هذه الدراسة ورقة عمل متواضعة ومبسطة أقدمها للقراء والمسئولين، بعد أن أصابنى اليأس والإحباط من الحكومات التى تعاقبت على مصر ومن طريقة تعاملها مع هذا القانون بالذات، وحتى يصبح القراء الذين هم ضحايا ذلك التلكؤ ، يصبحون أيضاً وقود تلك المعركة التى تعامل معها المسئولون بمنتهى الخوف والتردد بالرغم من وضوح الحقيقة وضوح الشمس على مستوى العالم كله، وبالرغم من أن أبناء مصر ينهشهم الموت

فالكل حولهم يبحث بأصابع من الثلج وعقول من الجرانيت عن حلول فى فتاوى وكتب قيلت و كتبت منذ مئات السنين، وسأحاول فى هذه الدراسه أن أكشف أوراق هذا التيار الذى أدمن كسب الجولات بالضجيج لابالمنطق، وبتملق المشاعر لابمخاطبة العقول، وبتقديم تفسيراتهم الخاصة للدين والذى يعرضونه كتقطيبة جبين قاسية وليس كلمسة يد حانية، فأصبح تفسيرهم الدينى مرادفاً للتجهم وسبباً فى قتل مريض بفشل كلوى أو عمى لإنسان يحتاج لقرنية، والدين منهم ومن فهمهم وتفسيرهم براء.

**أولاً :** ماهى حجم المشكلة ؟وهل هى تحتاج إلى كل هذا الضجيج؟، والإجابة هى نعم تحتاج لأنها مأساة مجتمع ومصيبة وطن، ولتتكلم الأرقام نيابة عنى ففيها كل البلاغة وأيضاً فيها كافة ملامح الكارثة ..

ولنأخذ كمثال مشكلة الفشل الكلوى فنحن لدينا حوالى١٥ ألف مريض بالفشل الكلوى بواقع ٢٠٠ مريض لكل مليون نسمة،وهذه النسبة المفجعة تحتاج لإثنين ونصف مليون جلسة غسيل كلوى كل عام تكلفتها ٢٠٠ مليون جنيه وذلك إلى جانب تكاليف الأدوية وعبوات الدم وغيرها من الخدمات والتى تصل إلى ١٠٠ مليون جنيه اخرى، وتبلغ نسبة الزيادة فى عدد مرضى الفشل الكلوى ٢٥٪ سنوياًوبحلول عام ٢٠٠٥ ستصل النسبة لألف فى كل مليون مما يزيد نسبة الإنفاق إلى حوالى خمسة أضعاف.

وفى الكبد فالأرقام أكثر إفزاعاً ويكفى أن نورد رقماً واحداً من الأرقام التى ذكرت فى المؤتمر العربى الأفريقى التاسع لأمراض الكبد والذى عقد منذ عدة سنوات والذى يقول أن ٥٠٪ من الوفيات فى الريف المصرى من الذكور فى المرحلة السنية من ٢٥ إلى ٤٥ سببها نزيف دوالى المرئ والفشل الكبدى.

وليست هذه كل ملامح الصورة بل مازالت هناك أرقام مأساوية أخرى بالنسبة لمن يعانون من عتامة القرنية وفشل القلب.....الخ، والسؤال الذى سيطرح هنا، هل نقل الأعضاء وزرعها هو الحل وألا تكفى المواجهات الحالية التى تقوم بها المستشفيات؟

والإجابة هى أن المواجهات الحالية ليست كافية بالطبع وأن الزرع فى أغلب الأحيان هو الحل بل نقول أنه فى حالات كالكبد هو الحل الوحيد لأنه لايوجد شئ إسمه غسيل الكبد وكما قال أستاذنا المرحوم د. يس عبد الغفار فى المؤتمر السابق لن ينقذنا إلا تشريع حديثى الوفاة، وإذا رد أحد المعارضين وقال إذا وافقنا عليه فى الكبد فلماذا نوافق عليه فى حالة الكلى فعندنا الغسيل الكلوى المتوافر فى مستشفيات حكومية كثيرة وهذا يكفى ؟، وهذا بالطبع كلام خاطئ ظاهره الحق ويراد به الباطل ويرد عليه أستاذنا عبد المنعم حسب الله بقوله حتى لو تساوت تكاليف الغسيل والزرع وهذا غير صحيح فإنه يكفى أنه بعد عملية الزرع يعود المريض إلى ممارسة حياته الطبيعية والعملية بنسبة ١٠٠٪ بينما فى الغسيل فهى ٥٠٪، ويقول الأستاذ د.محمد غنيم الغسيل حل مؤقت لايغنى

عن الزرع فوظيفة الكلى هى تنظيم بيولوجية الجسم والذى يتولى هذا التنظيم لابد أن يكون نسيجاً حياً.

ويبرز سؤال آخر يرفعه المعارضون دوماً فى وجوهنا وهو وماذا عن الكلية الأخرى المتبقية إذا كان المتبرع حياً ؟،والإجابة هى أننا نتمنى إصدار التشريع الذى يبيح نقل الأعضاء من حديثى الوفاة حتى نوقف هذا الجدل ونحد من الخوف الذى يعترى المتبرعين الأحياء، ولكن حتى يصدر هذا التشريع فالوهم الرابض فى عقول المتبرعين الأحياء ومن يروجون لهم ويغسلون أدمغتهم لاأساس له من الصحة بدليل الدراسة التى أجراها مركز الكلى بالمنصورة على مدى ١٣ عاماً منذ سنة ١٩٧٦ وهو تاريخ أول عملية زرع يجريها المركز وحتى ١٩٨٩ ، ووجد أنه لاتوجد تغيرات فى الوظائف المختلفة للكلية المتبقية، وإن التبرع بالكلية لايؤثر بأى صورة على حياة صاحبها، والكارثة أن هذا الكلام موجود فى المرجع الذى إستعان به زعيم معارضى نقل الأعضاء ولكنه حذف أجزاء فى دراسته وتحت يدنا المرجع الأصلى وأيضاً التشويه الذى أحدثه هذا المعارض لمن يريد الإطلاع ونتحداه أن يثبت العكس.

ونأتى إلى السؤال الذى يعتبره المعارضون للنقل مفحماً وخاصة فى حالة الكلى وهو عن مثبطات المناعة التى يتعاطاها المريض بعد الزرع ومدى الضرر الذى تلحقه به؟

أما الرد فهو ببساطة أن الأبحاث تتقدم فى مجال تقليل هذه الأعراض الجانبية، وهذا السؤال يرد عليه بسؤال آخر وهو منذ متى وصل الطب إلى حد الكمال حتى نتكلم بمثل هذه الطريقة الشامته ، وعندكم الأمثلة كثيرة فهل علاج سرطان الثدى والقولون والمثانة بإستئصالهم علاج يتمشى مع المنطق و يحقق غاية الطبيب وأمانيه،بالطبع لا، فالطبيب يريد إستئصال الورم مع الحفاظ على هذه الأعضاء ولكن هذا هو المتاح حالياً وأيضاً الناجح حتى ظهور طرق أخرى أكثر نجاحاً وتمشياً مع المنطق، ولكن حتى يحدث ذلك هل نقف مكتوفى الأيدى حتى يحسم الجدل واللغط ؟ أم ننقذ مايمكن إنقاذه إنطلاقاً من حب الحياة والإنتصار لها، وتمشياً مع واجبات مهنتنا كأطباء وليس كحفارى قبور!!.

ونأتى إلى الوتر الذى لايمل المعارضون للنقل من العزف عليه وهو تجارة الأعضاء التى سيؤدى لها وينشرها ويقننها إصدار القانون ؟

ونرد على هذا بأننا ضد تجارة الأعضاء ونعتبرها نخاسة جديدة ولذلك نقف وراء القانون بكل قوة، وذلك لأن تأخير القانون هو الذى أدى إلى إنتشار التجارة وليس العكس،فعندما نسمح بنقل الأعضاء من المتوفين حديثاً وننشر الوعى بين الناس لكى يكتبوا توصية بأعضائهم بعد الموت فإننا بذلك نسد الطريق على تجارة الأعضاء بين الأحياء لأنها فى ذلك الوقت لن يكون لها سوق،ومن الأوهام التى روجت لها الأفلام السينمائية مثل COMA والتى

جعلت المعارضين يوهموننا بأن الجراحين ينتظرون على باب الميت وهم يرهفون السمع ويفركون أيديهم فرحاً بعد رشوة فريق الأطباء الذين يحددون الوفاة، والحقيقة غير ذلك بالمرة ففريق تحديد الوفاة فى مكان وفريق الزرع من الممكن أن يبعد الآف الأميال وتربطهما شبكة كومبيوتر بها قائمة الإنتظار والنسيج المطلوب، وبهذا الفهم ينتفى مفهوم العصابة الذى يروجه معارضو النقل ويحل محله مفهوم من يبذرون الأمل فى رحم الغد ويعزفون لحن الحياة ويسدون الأذان عن نعيق الغربان.

ولكن ماذا يقف أمام إصدار القانون، وماهى الحجة التى يستند إليها دعاة الرفض؟ إنه الإختلاف حول تعريف الموت حيث أن هؤلاء لايعترفون بوفاة جذع المخ ويصفونها بأنها غير شرعية.

وبداية نقول أنه لايوجد مايسمى بالموت الشرعى والموت غير الشرعى، هناك فقط مايسمى بالموت والذى كانوا قديماً يشخصونه حسب ماكانوا يعرفونه من علم حينذاك بعلامات معينة أصبحنا ومع تقدم العلم نشخص بأدق منها، والعلامات القديمة التى ذكروها مثل إنقطاع النفس وإنخساف الصدغين وبرودة البدن وتدلى الخصيتين...الخ، كل هذه العلامات صحيحة ومفيدة ولكنها صحيحة ومفيدة بالنسبة للحانوتى وليس للطبيب!، أما مايعرفه الطب وموثق فى كل الكتب العلمية المحترمة فهو علامات محددة وغاية فى الدقة مثل :عدم وجود الأفعال المنعكسة من جذع الدماغ، وعدم وجود تنفس بعد إيقاف جهاز التنفس لمدة عشر دقائق وتحت

شروط معينة، وعدم وجود ذبذبات برسام المخ الكهربى وأيضاً عدم وجود دورة بالدماغ بعد تصوير الشرايين....الخ، وكل مايقال عن عودة الحياة لأناس ماتوا إكلينيكياً هو محض كذب وإفتراء، وسنقتبس من المجلة البريطانية للتخدير عدد نوفمبر ١٩٨١ ، وهى نفس المجلة التى إعتمد عليها زعيم جبهة المعارضة د.صفوت لطفى فى دراسته وثبت أنه لم يراع الأمانة العلمية ولوى عنق الكلمات لمصلحته ، وقال فى ص ١٥ من دراسته التى وزعها على أعضاء المجلس من قبل "لقد دب التشكك بين كثير من الأطباء الذين يمارسون عمليات نقل الأعضاء فيما إذا كانوا ينتزعون الأعضاء من موتى فعلاً أم أحياء ؟!،وللأسف عندما إطلعت على نفس العدد وجدت كلاماً مختلفاً هذا نصه "لم يثبت بتاتاً ولامرة واحدة أن حالة وفاة جذع المخ عادت إلى الحياة وكل الأقاويل عن حالات عادت إلى الحياة بعد تشخيص وفاة المخ إنما كانت من بنات أفكار أقارب المرضى التى ينسجونها عند علمهم أن مريضهم فى حالة حرجة "،والمشكلة أن الخلط ناتج عن عدم التفرقة بين شيئين هامين وهما الغيبوبة البدائية والتى لاتعد موتاً والسكتة الدماغية التى نقصدها عند كلامنا عن الموت الإكلينيكى ففى الأولى تضيع قدرات المخ العليا ولكن مع بقاء التنفس الطبيعى وقدرات جذع المخ الإنعكاسية، أما فى الثانية وهى سكتة جذع المخ فتضيع مع قدرات المخ العليا قدرات التنفس الطبيعى وكذلك قدرات المخ الإنعكاسية ولابد من الإعتماد على أجهزة التنفس الطبيعى، وظل د.صفوت

لطفى رئيس جمعية الأخلاقيات الطبية يخترع الحجج، وكلما أطل القانون برأسه هوى عليه د.صفوت بسيفه البتار وكأنه مسرور السياف فى ألف ليلة وليلة ليغتاله فى وضح النهار وأمام أعين الصامتين وأحياناً المتواطئين، وتعب ضحاياه ممن سينقذهم زرع الكلى أو الكبد أو القرنية وهم يدقون الأبواب يطلبون الحياة،ولكن كل هذا لم يحرك ساكناً لهذا الأستاذ الذى أصر على أن مهنة الحانوتى أكثر رومانسية ونفعاً من مهنة الطبيب !

وكنا من الممكن أن نتغاضى عن هذا الرفض وعدم الإقتناع لو كان محصوراً فى دائرة الرأى الشخصى ولكن المصيبة أنه تحول إلى كفاح ونضال وشغب وإرهاب فكرى أودى بحياة الآلاف من المرضى الذين ينتظرون تعطف سيادته هو وأنصاره من بعض الشيوخ جامدى الفكر ومتصلبى الرأى، والمدهش أن هذا الدكتور نفسه أشرف على رسالة تقول بعكس ماأشاعه وبلبل به أفكار الناس ومنحها درجة إمتياز مما يعنى الموافقة عليها فى أبشع صور النفاق العلمى التى سمعت عنها فى حياتى، ولأهمية هذه الرسالة التى تفضح أفكار درويش الطب سأقتبس منها بعض فقرات المقدمة العربية، والرسالة قدمها د.حاتم عبد الغنى ماضى تحت إشراف د.صفوت لطفى فى عام ١٩٩٦ لنيل درجة الماجستير، وتقول مقدمة الرسالة:

«يهدف هذا البحث إلى تأكيد أنه يجب المساواة قانوناً بين وفاة المخ والوفاة ككل، حيث يجد هذا المبدأ فى الوقت الحاضر قبولاً

واسعاً لدى الدوائر الطبية والشرعية فى مختلف بلدان العالم، وأن العامل الأساسى فى الوفاة هو وفاة جذع المخ، مع التأكيد بأن جذع المخ يمكن تشخيصه بكل ثقة وتأكيد على فراش المريض»!!!

وأستحلفكم بالله هل رأيتم مثل هذه الجرأة وهذا الوجه المكشوف الذى لايستحى بأن يتاجر بالعلم ويصبح دكتور جيكل ومستر هايد بوجهين أحدهما علمى داخل قاعات البحث وعند مناقشة الرسائل العلمية، ووجه آخر للدعاية يمسح به «جوخ» لبعض شيوخ النفط من الرجعيين وينافق غرائز القطيع ويكون رأس الحربة فى السلاح الذى يوجه لواحد من أكثر القوانين إنسانية معطلاً صدوره ليمنع إنقاذ الاف المرضى الغلابة الذين لايستطيعون السفر لإسرائيل أو السعودية لإجراء عمليات زرع الأعضاء.

وإذا كان هذا هو قول أهل الذكر من علماء الطب، فماذا عن أهل الذكر من علماء الدين ؟،المدهش والعجيب أن شيخ الأزهر قد أصدر فتوى ورأياً واضحاً مؤيداً لايحتمل اللبس أو التأويل وبرغم ذلك فما زلنا مترددين،والأعجب أن كافة الدول الإسلامية قد أقرت هذا القانون ونحن مصر مهد الحضارة مازلنا نتشكك، فالسعودية بناء على قانون إباحة نقل الأعضاء من المتوفين حديثاً إستطاعت حتى عام ١٩٩٥ أن تزرع ٩٤ كبداً و٦٤ قلباً ورئتين وثلاث حالات بنكرياس وأخيراً سبقت العالم كله فى زرع الرحم بواسطة طبيبه!! وواحد على ألف من هذا كله لم يحدث فى مصر مع منتهى الأسف والخجل والعار، وأقول مع الأسف لأن السعودية

عندما تريد تعليم أبناءها الطب فهى ترسلهم إلينا هنا فى مصر، ولكننا عندما نريد زرع كبد فنحن نذهب إليها أو إلى إسرائيل بعد أن أغلقت أمريكا وأوروبا أبوابها أمامنا، وذلك فقط لأننا نخاف ضجيج قلة تعد على الأصابع لانعرف ماهو غرضهم ومن يقف وراءهم مع أننا واثقون أن كل موهبتهم هى الصوت العالى.

وفى الأردن يجرى العمل بهذا القانون منذ سنة١٩٨٠ أى منذ أكثر من ٢٠ سنة، والعراق منذ ١٩٨٦،وكذلك باقى الدول الإسلامية والعربية التى سبقتنا فى هذا المضمار بسنوات عديدة أرجو ألا تطول.

وأخيراً فللناقش بهدوء مسألة الموت الإكلينيكى هذه، أو بتعبير أبسط هل الموت هو موت القلب كما يقول المعارضون أم موت المخ كما يقول المؤيدون؟؟.

وفى البداية سنستند إلى تعريف للموت لن يختلف عليه المؤيد ولاالمعارض وهو أن الموت «هو مفارقة الروح للجسد» وبما أن الروح هى أمر غيبى لايعلمه إلا الله ولايستطيع طبيب أو فقيه أن يدعى معرفته فلسنا نملك إلا الحديث عن العلامات الدالة على هذه المفارقة، وقدإعتمدت على ثلاث قضايا فقهية إستطعت من خلالها إثبات أن الروح تتعلق بجذع المخ وليس بالقلب.

والقضية الأولى هى نفخ الروح فى الجنين قبل الولادة، ففى سورة السجدة يقول المولى عز وجل «الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين

ثم سواه ونفخ فيه من روحه»، وأيضاً فى سورة المؤمنون «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين "،وقد فسرت أنشأناه خلقاً آخر فى جامع العلوم والحكم بأنها نفخ الروح، وقد أيدت الأحاديث النبوية أن نفخ الروح يتم بعد كل هذه المراحل أنظر الحديث الذى رواه عبد الله بن مسعود عن هذه المراحل، كل هذا يثبت أن نفخ الروح يتم بعد تكون الجنين أى بعد ١٢٠ يوماً ، وهذا الرقم هو الذى أقره المجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامى والذى عقد بمكة المكرمة سنة١٩٩٠ حين كان يناقش قضية الإجهاض، وبما أن القلب يتكون وينبض منذ اليوم الثانى والعشرين بعد التلقيح، إذن لايمكن أن يكون مرتبطاً بالروح ونفخها، ولكن الإتصالات والتشابكات مابين جذع المخ ومافوقه من المناطق المخية العليا فهى التى تتكون بعد ال١٢٠ يوماً أى أنها هى المرتبطة بنفخ الروح وليس القلب.

ونأتى إلى القضية الفقهية الثانية التى سنثبت من خلالها أنه المخ وليس القلب هو المرتبط بالروح، وهى قضية العلامة الدالة على حياة الجنين بعد الولادة والتى كانت مهمة عند الفقهاء لإثبات الميراث، فلم يحكم الفقهاء للجنين بعد ولادته بالحياة إلا إذا إستهل صارخاً وذلك إستناداً إلى قول الرسول صلعم "لايرث الصبى حتى يستهل"،وقد ذهب الإمام مالك أبعد من ذلك حين إعتبر أن المولود

لايعتبر حياً إلا إذا صرخ ولو تنفس أو حتى تبول وتحرك، وهنا فالروح ترتبط بالإدراك والإحساس والصراخ وكلها وظائف مخية، إذن هو المخ وليس القلب مرة ثانية.

ثالث القضايا التى ناقشها الفقهاء وإستندنا إليها هى حركة المذبوح والتى إتفق الفقهاء على أنها ليست دليلاً على الحياة، برغم أنه فى هذه الحركة يملك قلباً نابضاً ودورته الدموية لاتزال كاملة ومعظم أعضاء جسمه تعمل، أى أن الذى يحدد مفارقة الروح للجسد هو غياب الحس والإدراك برغم نبض القلب وهو مايتمشى مع الواقع فالذى يعدم شنقاً يظل قلبه ينبض لفترة ونسميه ميتاً لأن جذع المخ قد مات، وفى عمليات القلب المفتوح يوقف القلب تماماً ولكن لأن جذع المخ مازال يعمل فنحن لانصف الذى تجرى له العملية بأنه ميت،أى أن جذع المخ فى الحالتين هو المرتبط بتحديد الموت.

وأخيراً فقد إضطررت لهذه الإطالة فى مناقشة ما أعتبره بديهياً لأننا للأسف كتب علينا أن نناقش مثل هذه البديهيات البسيطة فى عصر يسعى فيه الآخرون لإطالة العمر بالهندسة الوراثية، وأظن أننى بهذه الدراسة قد فندت كل الحجج الواهية التى يستند إليها معارضو هذا القانون، وأرجو ألا يستمر مسلسل رضوخ أعضاء مجلس الشعب الموقرين للرافضين المتسترين وراء الدين، وأن يدركوا أن هؤلاء من أصحاب الصوت العالى بعد أن وضعوا الفن والأدب فى قفص الإتهام فإن الدور آتٍ على العلم،

فنحن مقبلون على حسبة جديدة هى حسبة العلم، وعلى إستعراض عضلات للمتطرفين الذين يختبرون قوة ووعى الحكومة والسلطة بإثارة مثل هذه المخاوف، ولو إنتصر هذا التيار فى معركة زرع الأعضاء فسيعتبر هذا آخر مسمار فى نعش الإستتارة، وسنصير مثل أفغانستان التى تشاركنا فى رفض القانون!، وعلى المسئولين أخيراً أن يتفهموا أن التطرف فكر قبل أن يكون رصاصة، وعقيدة قبل أن يكون كلاشينكوف، ومواجهته ليست مهمة وزير الداخلية فقط بل هى مهمتهم وواجبهم قبله بأن يواجهوا بلاخوف لأن الحياة فى النهاية تستحق أن ندافع عنها مهما كان الثمن مرتفعاً ومهما كان ضجيج الجهل صاخباً.



# ٤.هلال رمضان بين الرؤيتين.. البصرية والعلمية

قال جاليلو قديما «قد كتبت الطبيعة كتابها المجيد بلغة المعادلات الرياضية» ، ومازلنا نحن نقول حديثاً «لقد كتبتها بلغة المعادلات الفقهية»!!.. والدليل على صحة مقولتنا أننا حتى الآن نعتمد على تحديد موعد بداية الشهر الهجرى برؤية الهلال بصرياً ، أما الحساب الفلكى فيحتل عندنا المرتبة الثانية ولو تعارض الإثنان - الرؤية البصرية والحساب الفلكى - قدمنا بكل حسم وبلا أدنى تردد الرؤية البصرية وقلنا فليذهب الحساب الفلكى وأصحابه الى الجحيم فالمهم هو الإحتفال الذى تعقده وزارة الاوقاف، والأهم هو لحظات اللهفة والترقب ونحن مشدودو البصر لشفتى المفتى فى إنتظار إعلان النتيجة حتى ينطلق بميعاد بداية شهر رمضان لينطلق بعدها إذا كان رمضان غداً صوت عبد المطلب «رمضان جانا اهلاً رمضان» ويبدأ بعدها هجومنا التتارى على أكواب الزبادى وأكياس الفول المدمس، وأنا لست ضد الاحتفال فالاحتفال يعنى البهجة، ولكننى ضد الجمود فالجمود يعنى الموت، ومن حق

المفتى أن تحيطه الميكروفونات وعدسات المصورين ولكن من حقنا نحن أيضاً أن نمارس حق إحترام العلم والذى يعنى أولاً وقبل كل شئ إحترام أنفسنا (وللعلم نحن ننفرد دون مخاليق ربنا فى العالم كله بعدم امتلاك نتيجة هجرية معروفة سلفاً إن شا الله لمدة سنة واحدة بس!!)، فنحن لا نستطيع مثلاً أن نحدد أجازاتنا قبلها بفترة معقولة او إمتحاناتنا اذا ساقها القدر وتمت فى أعياد ونظل نضرب أخماساً فى أسداس عند تأكيد أى ميعاد سواء كان حجز فندق او تذكرة طيران... الخ، ويكفى أن أضرب مثالاً على مدى الإضطراب واللخمة التى وقعنا فيها من جراء إصرارنا على الرؤية البصرية للهلال، فمنذ عدة سنوات أعتقد أنها سنة ١٩٨٣ وفى الليلة السابقة لليلة الرؤية وبعد أن خلد معظم الناس للنوم فوجئوا بتليفونات من أقاربهم فى السعودية تخبرهم بأن الهلال قد ظهر هناك، وأن عليهم أن ينووا الصيام فى الغد، ورنت أجراس التليفونات فى البيوت، وشاع الاضطراب بين الناس وسارعوا لإعداد السحور على عجل وحدثت «سربعة» رمضانية لم يسبق لها مثيل، ولكن الغلابة من الذين لا يملكون تليفوناً أو لم ينعم الله عليهم بنعمة الأقارب القاطنين فى الأراضى الحجازية، هؤلاء إستيقظوا ليتناولوا الافطار بكل حسن نية وعندما إكتشفوا الخطأ الجسيم الذى وقعوا فيه ظلوا أسرى الاكتئاب حتى ضرب المدفع، وما دام الشئ بالشئ يذكر لا ننسى أيضاً بعض الجماعات التى تفرض فى كل عام على القرى التى تعيش فيها الصيام أو الإحتفال

بالعيد طبقاً لما تقوله السعودية وليس طبقاً لما تحدده دار الافتاء المصرية.

المهم فى قضية رؤية الهلال هو الهستيريا التى تصيب البعض عندما نقول بالإعتماد على الرؤية الفلكية، وصراخهم وتكفيرهم لمن ينادى بذلك لأن الرؤية عندهم هى بالعين المجردة تطبيقاً لصوموا لرؤيته ، ومن يفتى بغير ذلك فقد خرج من زمرة المؤمنين، وسأسرد لكم مثلاً يثبت لكم أن الإلتزام الحرفى بالنصوص بدون عرضها على العلم الحديث بمافيه علم الفلك يأتى بما لاتحمد عقباه، ولابد من أن نعرف قبل أن نخوض فى هذا الموضوع أن هناك من لا يعترفون ببديهية علم الفلك الأساسية من أصله، وهى أن الأرض تدور حول الشمس والتى أثبتها كوبرنيكوس وحوكم من أجلها جاليليو حتى أصبحت من أساسيات المعرفة الإنسانية ككل وليس علم الفلك فقط، ولنقرأ سوياً فتوى الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز حتى نحكم بأنفسنا.

يقول الشيخ الامام عبد العزيز بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد فى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٧٦:

«القول بأن الشمس ثابته وان الأرض دائرة هو قول شنيع ومنكر، ومن قال بدوران الأرض وعدم جريان الشمس فقد كفر وضل ويجب ان يستتاب وإلا قتل كافراً ومرتداً ويكون ماله فيئاً لبيت مال المسلمين» .

ونأتى هنا الى مسألة المنهج التى تحدثنا عنها كثيراً ونسأل الى ماذا إستند الشيخ بن باز فى فتواه، هل إستند الى رأى اهل العلم وهم فى هذه الحالة علماء الفلك ؟ والإجابة للأسف لا، فهؤلاء العلماء كفره ولكنه إستند إلى القرآن الكريم والأحاديث وكتب السلف الصالح، وهذا المنهج الذى يلوى عنق النصوص لإستخراج الحقائق العلمية طالما هاجمه الكثيرون حتى من بين علماء الدين أنفسهم، أما عن هذه الأدلة التى قدمها بن باز فيما بعد سنة ١٩٨٢ فقد كانت كالتالى أولاً الدلالة على جريان الشمس والقمر فقد استند بن باز الى بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى «وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى»، «والشمس تجرى لمستقر لها»، «وسخر لكم الشمس والقمر دائبين»، «فلا أقسم برب المشارق والمغارب».... ويقول بن باز فى تفسيره أن الجرى فى لغة العرب هو السير والإنتقال من مكان الى مكان، فالشمس جارية أى سائرة متنقلة من منزله، وأما ما إستمده من الأحاديث الشريفة لإثبات صحة فتواه فهو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوماً أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها إرتفعى وإرجعى حيث جئت ... الخ»، ثم يضيف الإمام بن باز بأن الشمس سقفها ليس بكروى، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، ثم يؤكد الإمام بن باز أنه كان من جملة الناس الذين شاهدوا بعيونهم وأبصارهم سير الشمس

وجريانها قبل أن يذهب بصره وهو فى سن التاسعة عشر من عمره...

كانت هذه عينة من الأدلة على جريان الشمس والقمر، أما أدلة ثبوت الأرض فقد جمعها بن باز فى أولاً: الآيات القرآنية مثل «جعل لكم الأرض قرارا»، «جعل لكم الأرض مهادا»، «الذى جعل لكم الأرض فراشا»، «وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم».... ومن تفسيراته ان كون الأرض فراشاً مشروط بكونها ساكنة لأنها لو كانت متحركة لما كانت فراشاً على الإطلاق، وثانياً الأحاديث النبوية الشريفة ومنها الحديث الذى يقول «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت».... ومن هنا إستخلص بن باز أن الحديث النبوى قد أثبت ثبوت الأرض، وبذلك إكتملت ملامح فتوى تكفير جاليليو وتلاميذه والتى تنازلت عنها الكنيسة ولم يتنازل عنها بن باز وتلاميذه حتى الأن...

والشئ الغريب والذى يدعو الى الدهشة حقاً هو أننا نعتمد على الحساب الفلكى فى أشياء أخرى على نفس درجة أهمية الصوم، من أهمها مواقيت الصلاة، ونأتى لتحديد ميعاد الهلال ونقول لا ، الفلكى ليس شرعياً، وأتساءل ماذا لو أصدرت الحكومة قراراً بمصادرة كل النتائج والأجندات وفرضت علينا ان نعود لتحديد مواقيت الصلاة كما كان يحددها الأقدمون اى أن وقت صلاة الظهر سيبدأ من زوال الشمس عن وسط السماء ويمتد إلى أن

يصير ظل كل شئ مثله، أو أن وقت صلاة المغرب سنعرفه إذا غابت الشمس وتوارت بالحجاب حتى مغيب الشفق الأحمر .. الخ، هل سنخضع وقتها لأوامر الحكومة، أعتقد أن الإجابة لا بالثلث..

وإلى القارئ العزيز أورد بعض الأمثلة التى تدل على دقة الحسابات الفلكية التى من الممكن أن نهملها أو نضحى بها علشان خاطر عيون واحد بدوى فى أقاصى الجزيرة العربية أخبر السلطات المختصة هناك بأنه رأى الهلال ويريد قبض صرة الريالات !.

هل يعلم قارئنا العزيز أن عيون المراصد الفلكية المتطورة الآن تستطيع أن ترصد وترى وتتعمق فى الكون لمسافة ١٥ ألف مليون سنة ضوئية، والسنة الضوئية لمن لا يعرف أو لمن كانوا أدبى مش علمى مسافتها حوالى ستة مليون ميل ولاتنسى عزيزى القارئ أن تضرب هذا الرقم فى ١٥ ألف مليون !!، وبمثل هذه المراصد الجبارة أصبح التنبؤ بما سيصير عليه زمن اليوم بعد خمسة الاف مليون سنة شيئاً يسيراً، والمفاجأة أن اليوم بعد هذه المدة (ربنا يديكم ويدينا العمر) سيصير ٣٦ ساعة وليس ٢٤ ساعة لأن ساعة دوران الأرض تقل يومياً وتنعكس بالتالى على إبطاء الزمن مما يجعل يومنا أقصر من غدنا بحوالى ٢٥ جزء من ألف مليون جزء من الثانية، وهكذا تنبأ العلماء بمثل هذه المفاجأة التى هى كذلك بالنسبة لنا، أما بالنسبة لهؤلاء العلماء الذين يحسبون للسفن الفضائية التى تسافر للمريخ بالثانية لا تمثل أى مفاجأة..

ولنذهب أبعد من ذلك ونقول للذين يشككون فى صحة الحسابات الفكلية ماهو رأيكم فى أن كوكبين من كواكب المجموعة الشمسية وهما نبتون وبلوتو قد إكتشفا بواسطة الحساب الفلكى قبل تحديد مكانهما بالمناظير الفلكية !!.

طلبى الأخير فى نهاية المقال هو تطبيق أول أمر قرآنى «إقرأ».. هذا الأمر الذى فهمناه بالمعنى الضيق وليس بالمعنى الرحب للكلمة.. فبجانب قراءة الحروف والكلمات لابد أن نقرأ الطبيعة والكون بلا خوف وبكل ما فى العقل من جسارة وقدرة على الكشف، فالعقل يتنبأ ولا يرجم بالغيب لأنه يتنبأ وفقاً لقوانين الواقع وليس قفزاً أو إهداراً لهذه القوانين وإلا لكان فتحاً للمندل او قراءة للبخت.. والعلم بالتأكيد ليس الا فتحاً للآفاق وقراءة للمستقبل.



# ٥ - العلمانية.. لماذا؟ هل العلمانية كلمة قبيحة؟

**ما هى العلمانية ؟**

تعد العلمانية من اكثر الكلمات فى قاموسنا اللغوى تعرضاً للظلم البين والخلط الشديد عن عمد أو عن جهل وهى قد أصبحت وصمة عار لكل من يتلفظ بها، أما من يتجرأ بأن ينتسب إليها فقد إقتربت رقبته من مقصلة التكفير وأصبح هدفاً لحد الرده وكيف لا وهو منكر لما هو معلوم من الدين بالضرورة فى رأى دعاة الدولة الدينية !!.

والسبب فى هذا الموقف المعادى للعلمانية هو الخلط بينها وبين الإلحاد أما السبب الأقوى فهو أن العلمانية ستسحب البساط من تحت أقدام المستفيدين من دعوة الدولة الدينية والمنظرين لها فهى تدعو لحوار الأفكار على مائدة العقل وتعريتها من رداء القداسة الذى يغطيها به هؤلاء الدعاة للوصول إلى أهدافهم ، وهذا كله يجعل من المسألة مسألة بشرية بحتة فإذا كان حديثهم عن البركة فى الاقتصاد الاسلامى حولته العلمانية لحديث عن محاولة خفض

نسبة التضخم وزيادة الدخل القومى، وإذا كان كلامهم عن حكم الله حولته العلمانية الى كلام عن الديمقراطية والدستور لتنظيم العلاقات بين البشر ، فالله جل جلاله لا يحكم بذاته ولكن عن طريق بشر أيضاً لهم أهواؤهم ومصالحهم التى لابد من تنظيمها وإذا كانت قضيتهم هى قراءة الماضى فقضية العلمانية هى صياغة المستقبل .

وفى السبعينات ومع إستعمال السادات للجماعات الاسلامية كمخلب قط ضد اليسار المصرى وسماحه لهم بالخربشات فى جسد هذا التيار والتى كان لابد أن تتطور بعد ذلك الى نهش فى جسد صاحب الدار والراعى نفسه الذى تصور أن القط ما زال أليفاً ولم يعد الى أصله كنمر مفترس، فى ظل هذا المناخ هوجمت العلمانية من حملة مباخر هذ النظام مما دفع مفكراً كبيراً مثل د.زكى نجيب محمود الى كتابة مقالة فى جريدة الأهرام تحت عنوان عين ـ فتحه ـ عا محاولاً فيها تفسير معنى العلمانية التى كانت ملتبسة على الكثيرين حتى أن مجرد نطقها بفتح العين ام بكسرها صار يمثل قضية تستحق الطرح على صفحات الجرائد فيكتب زكى نجيب محمود بوضعيته المنطقية الساعية لتحديد الألفاظ وفك الغموض عن معانيها قائلاً"سواء كان المتحدث مهاجماً كان أم مدافعاً فكلاهما ينطق اللفظة مكسورة العين وكأنها منسوبة إلى العلم مع أن حقيقتها هى العين مفتوحة نسبة الى هذا العالم الذى نقضى فيه حياتنا الدنيا )... ولو كان الفرق فى المعنى بين أن

تكون العلمانية مكسورة العين او مفتوحة العين فرقاً يسيراً يمكن تجاهله لقلنا أنه خطأ لا ينتج ضرراً كبيراً ولكن الفرق بين الصورتبن فى نطق الكلمة فرق لا يستهان به مما يستوجب الوقوف والمراجعة»[1] .. ويعلل زكى نجيب محمود هذا بأن «كلمة العلمانية ليس لها وجود فى اللغة العربية قبل عصرنا الحديث فالكلمة هناك لها عند القوم أهمية وتاريخ على عكس الحال عندنا»[2]

وتعرض د. فؤاد زكريا إلى الضجة التى أثيرت حول استخلاص كلمة العلمانية بفتح العين من العالم او بكسر العين من العلم ، ويعتبرها ضجة مبالغا فيها لأن كلا من المعنيين لابد أن يؤدى الى الآخر "فالشقة ليست بعيدة بين الاهتمام بأمور هذا العالم وبين الاهتمام بالعلم وذلك لأن العلم بمعناه الحديث لم يظهر إلا منذ بدء التحول نحو إنتزاع أمورالحياة من المؤسسات التى تمثل السلطة الروحية وتركيزها فى يد السلطة الزمنية، والعلم بطبيعته زمانى لا يزعم لنفسه الخلود بل ان الحقيقة الكبرى فيه هى قابليته للتصحيح ولتجاوز ذاته على الدوام وهو أيضا مرتبط بهذا العالم لا يدعى معرفة أسرار غيبية أو عوالم روحانية خافية ومن ثم فهو يفترض أن معرفتنا الدقيقة لا تنصب إلا على العالم الذى نعيش فيه يترك ما وراء هذا العالم لأنواع أخرى من المعرفة دينية كانت ام صوفية (....) فالنظرة العلمية عالمانية بطبيعتها»[3].

ومع تنامى التيار الأصولى الاسلامى وتصاعد سطوته الثقافية والسياسية والاقتصادية على المجتمع المصرى كان لابد للعلمانيين

أن يقدموا تعريفهم الخاص للعلمانية وأن يحاولوا فك الارتباط الشرطى بين العلمانية والالحاد من أذهان الناس ، فالمشكلة كانت قد إنتقلت من برودة الأكاديمية الى سخونة الشارع ، والأمر لم يعد أمر نطق بالفتح او بالكسر وإنما أصبح غزلاً وتملقاً للمشاعر الدينية باسم محاربة العلمانية، أصبح الأمر تخديرًا مزمنًا لكسب الجماهير المغيبة، هنا أصبحت محاولة التعريف ضرورة ملحة وليست ترفاً دراسياً.

والمأساة تكمن فى أن كل ما يكتبه التيار الأصولى الاسلامى يستقى تعريفاته من أصوليين آخرين وتظل الدائرة مغلقة لا تسمح بأى تواصل حتى بقصد الفضول المعرفى ، فالأمانة العلمية تقتضيهم أن يستمدوا آراءهم عن العلمانية من تنظيرات العلمانيين أنفسهم لها، وعلى حد علمى أنه حتى الآن لم يربط علمانى عربى واحد بين العلمانية وبين الإلحاد فالعلمانية نظرة الى المعرفة والسياسة، والالحاد نظرة الى الدين واللاهوت.

وبقراءة متأنية لكتابات رموز العلمانية المصرية الحديثة نستطيع أن نقرر هذه الحقيقة ونعرف العلمانية بالإيجاب وليس بالسلب، بحقيقتها وليست بأنها هى التى غير الإلحاد حتى لا يصبح العلمانيون دائما فى موقف رد الفعل ودفع الهجوم وحتى لا يقعوا فى الشراك اللزجة المنصوبة لهم من قبل المعسكر الأصولى، والذى يجعلهم دائماً فى حالة إستنفار مستمر وقسم دائم بأغلظ الأيمان ها نحن مؤمنون مثلكم بل وأكثر، وينتهى المزاد بفوز التيار الأصولى

بالضربة القاضية لأنه جر العلمانيين من ساحة الواقع الى حلبة الميتافيزيقا والتى يجيد الأصوليون اللعب والمراوغة عليها.

وبداية نتفق على الأصل اللغوى لكلمة العلمانية[٤] فالعلمانية هى المقابل العربى لكلمة Secularism فى الانجليزية اوSeculaire فى الفرنسية، وأصول الكلمة تعنى يستولد أو ينتج او يبذر او يستنبت من الاهتمامات الدنيوية الحياتية ، ومن هنا فإنها استخدمت كصفة أيضًا لأصحاب هذه الاهتمامات الدنيوية، وللكلمة أيضا دلالة زمنية(saeculum) فى اللاتينية بمعنى القرن حيث أنها تصف الأحداث التى قد تقع مرة واحدة فى كل قرن، فالدقة الكاملة لترجمتها كما يشير د. فؤاد زكريا هى الزمانية، إن العلمانية ترتبط بالأمور الزمنية أى بما يحدث فى هذا العالم وعلى هذه الأرض فى مقابل الأمور الروحانية التى تتعلق أساسا بالعالم الآخر،وقد كان المترجمون الشوام قديماً يستعملون لفظ العلمانية كترجمة للكلمة الفرنسية LAIQUE او الانجليزية LAIQUE وهى المأخوذة عن اللاتينية LAICUS اى الجماهير العادية او الناس او الشعب الذى لا يحترف الكهانة تمييزاً لهم عن رجال الدين،والمفهوم الثانى وان كان لا يستخدم الآن يؤكد المفهوم الأول ولا ينفيه فاللفظ قد تطور ليعبر عن التحول من حكم الاكليروس (الكهنوتى) إلى السيطرة المدنية (حكم الرجال العاديين) المعنيين بالشئون الدنيوية (الزمانية)، هذا عن المعنى اللغوى والذى كما رأينا لا يعنى الإلحاد من قريب او بعيد بدليل أن القس الذى لا يخضع لنظام

كنسى محـــدد يطلق عليه Secular priest أى قس عـالمانى وليس قسًا ملحداً وإلا لكانت نكتة !!..

وسيرد المتربصون بالعلمانية ويقولون «هذا هو تعريف الغرب المختلف عنا شكلاً ومضموناً فماذا عن تعريفكم أنتم ؟ ، وإجابة السؤال هو أن تعريفات العلمانيين للعلمانية شأن أى تعريف فى إطار العلوم الانسانية تختلف بإختلاف وجهة النظر والمدرسة الفلسفية التى ينتمى اليها صاحب التعريف ولكن فى النهاية تصب كل التعريفات فى مصب واحد.

● وأول هذه الأنواع من التعريفات هو التعريف الذى يستند الى علاقة العلمانية بالدين :

«العلمانية ليست هى المقابل للدين ولكنها المقابل للكهانة»(٥)

«العلمانية هى التى تجعل السلطة السياسية من شأن هذا العالم والسلطة الدينية شأناً من شئون الله» (٦).

«العلمانية هى فى جوهرها ليست سوى التأويل الحقيقى والفهم العلمى للدين»(٧).

● **ثانياً: تعريف من حيث حقوق المواطنة وأسسها الدستورية:**

«العلمانية لا تجعل الدين أساساً للمواطنة وتفتح أبواب الوطن للجميع من مختلف الأديان هذه هى العلمانية دون زيادة او نقصان فهى لم ترادف فى أى زمان أو مكان نفى الأديان»(٨).

● أسس الدولة العلمانية تتمثل فيما يلى:

( أ ) أن حق المواطنة هو الأساس فى الإنتماء بمعنى أننا جميعا ننتمى إلى مصر بصفتنا مصريين مسلمين كنا ام اقباطاً.

(ب) إن الأساس فى الحكم الدستور الذى يساوى بين جميع المواطنين ويكفل حرية العقيدة دون محاذير أو قيود.

(جـ) أن المصلحة العامة والخاصة هى أساس التشريع.

( د ) ان نظام الحكم مدنى يستمد شرعيته من الدستور ويسعى لتحقيق العدل من خلال تطبيق القانون ويلتزم بميثاق حقوق الانسان» (٩).

● **ثالثاً : التعريف الشامل من وجهه نظر معرفية وفلسفية:**

«التفكير فى النسبى بما هو نسبى وليس بما هو مطلق»(١٠)، هذا هو تعريف العلمانية للدكتور مراد وهبه والذى جاء فى معرض حديثه عن رسالة فى التسامح للمؤلف الانجليزى جون لوك والذى خلص إلى أن المعتقدات الدينية ليست قابلة للبرهنة ولا لغير البرهنة فهى إما أن يعتقد بها أولا ، ولهذا ليس فى إمكان أحد أن يفرضها على أحد ومن ثم يرفض لوك مبدأ الاضطهاد بإسم الدين، ويترتب على ذلك تمييزه بين أمور الحكومة المدنية وأمور الدين ويقرر مراد وهبه إن هذا التمييز هو نتيجة للعلمانية وليس سبباً لها ، فالعلمانية نظرية فى المعرفة وليست نظرية فى

السياسة، وهذا التعريف يتفق إلى حد كبير مع تعريف آخر هو أن «العلمانية محاولة فى سبيل الاستقلال ببعض مجالات المعرفة عن عالم ما وراء الطبيعة وعن المسلمات الغيبية» (١١).

**فى مصر علمانيون بلا علمانية :**

بذل الباحثون المصريون جهداً كبيراً فى محاولة تحديد البدايات الجنينية للعلمانية المصرية وفى إثبات أن مصر قد عاشت مراحل علمانية متعددة قبل الهجمة التتارية الأخيرة التى نكتوى بنارها فى الوقت الحالى، فبعض الآراء ترجع إرهاصات العلمانية الأولى الى الحزب الوطنى(١٨٧٩ ـ ١٨٨٢)(١٢) الذى قاد الثورة العرابية بهدف نقل السلطة من ايدى الأرستوقراطية التركية الشركسية الى أيدى كبار الملاك والتجار الوطنيين ، وتستند هذه الآراء الى البيان التأسيسى للحزب والذى وضعه محمد عبده والذى نص فيه على أن الحزب سياسى وليس دينياً، وأن القاعدة فى المواطنة هى من يعيش على أرض مصر ويستظل بسمائها ويحرث ارضها بصرف النظر عن الجنس والدين والعقيدة »، ويمضى الراى فى تتبع العلمانية المصرية ويقول "ان الحياة الاجتماعية السياسية ظلت بعد ذلك تحت قيادة الفكر الليبرالى العلمانى إلى أن عجزت ليبرالية كبار الملاك فيما بعد الحرب العالمية الثانية عن مواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تطرحها ضرورات التطور المستقل فسقطت الليبرالية العلمانية لتحل محلها راديكالية

ولكن أيضا علمانية تمثلت فى النظام الذى أفرزته حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بكل ما أقدمت عليه من إصلاحات إقتصادية وإجتماعية وإدارية وتعليمية كان مضمونها العلمى واضحًا تمامًا.

وقد تم تدعيم بعض جوانب هذا الرأى وملء فجواته من جانب علمانيين كثيرين بغرض إظهار أن هذه الصورة التى نعيشها الآن انما هى ردة عن واقع متسامح سابق ، ولا يهم ان كان الفرق بين الماضى والحاضر كميًا او كيفيًا، أو إن كانت علمانية الماضى مجرد قشرة هزيلة لواقع مهترئ، فأما عن علمانية الوفد فقد أبرزوا دور سعد زغلول عند تشكيل أول وزارة مصرية بعد الاستقلال وضمه لخمسة وزراء اقباط من بينهم وزير للعدل، واستعان د. فؤاد زكريا فى كتابة "الصحوة الاسلامية فى ميزان العقل" بما رواه الاستاذ ابراهيم فرج (جريدة الوفد عدد يوليو ١٩٨٩) عن كيف أعرب النحاس باشا للزعيم الهندى نهرو خلال زيارة الأخير له عام ١٩٥٤ عن أمله فى ان تكون الجمهورية المصرية جمهورية علمانية" وفرج فوده[١٤] أيضاً أعلن أن النحاس رفض الدولة الدينية ودعا للدولة العلمانية ، وهو ما يصفه فرج فوده بأنه إعلان ثابت بشهادة مكتوبة لا يمكن إنكارها لأنها أتت من ابراهيم فرج وهو من عرف باسم ابن النحاس .

أما عن المرحلة الناصرية فقد إعتبر البعض أن لب المشروع الناصرى موضوعيًا كان علمانيًا نتيجة لملابسات عديدة ونتيجة لطبيعة المرحلة التى نشأ فيها المشروع»[١٥].

وبعد هذه البراهين التى استمدت من خلال الأحزاب أو الأنظمة السياسية أحتاج الأمر أيضا الى براهين أخرى من خلال مفكرين تعزى اليهم بدايات التفكير العلمانى أو تنسب اليهم مراحل عافيته وصعوده، مفكرين من أمثال الطهطاوى حين قال «حب الوطن من الايمان» ، والتى تناقضت مع مقولة عبد العزيز جاويش «لا وطنية فى الاسلام»،أو مثل محمد عبده كما ذكرنا فى البداية، أو الشيخ على عبد الرازق حين أصدر كتابة «الاسلام واصول الحكم» عام ١٩٢٥، «أو طه حسين حين اصدر كتابه فى الشعر الجاهلى عام ١٩٢٦ ، أو سلامه موسى حين قال «إن اختلاط الأديان بالسياسة كان على الدوام مصدر حروب بينما السلم والرخاء كانا فى ابتعاد الدين عن السياسة وان تعاليم الاسلام والمسيحية تقرران أن الدين علاقة خاصة بين الانسان وربه وليس لأحد ان يجعل من نفسه رقيباً عليها»[١٦]، أو المهاجرين الشوام مثل فرح أنطون ويعقوب صروف وأمين المعلوف وجورجى زيدان[١٧] .

و بالرغم من هذا الجهد الذى بذله الكثيرون فإن كل هذه الارهاصات المفترضة لم تكن إنقباضات مخاض ما قبل الولادة بل كانت رعشات وزفرات ماقبل طلوع الروح، وللأسف فالجنين الذى منحتنا إياه تلك المراحل هو جنين مشوه الملامح هلامى القسمات، واذا كان الانتقاء التاريخى قد جمل الصورة فإن الانتقاء المضاد هو الذى سيظهر دمامة وقبح بعض خطوطها وألوانها وضلالها، ولنتساءل أين هى العلمانية من قول سعد زغلول عن كتاب الاسلام

واصول الحكم «قرأت كثيرًا للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم فى الاسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه بل بالبسيط من نظرياته وإلا فكيف يدعى ان الاسلام ليس مدنياً ولا هو بنظام يصلح للحكم (....) وما قرار هيئة كبار العلماء باخراج الشيخ على من زمرتهم الا قرار صحيح لا عيب فيه[١٨]، و أين هى العلمانية من قوله أيضًا عن طه حسين أمام مظاهرة الأزهريين «هبوا أن رجلاً مجنونًا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شئ من ذلك»[١٩].

أين هى العلمانية حين رمى عبد الناصر رموز اليسار المصرى فى غياهب السجون ولم يخرجهم منه الا بناء على تكتيك سياسى وليس بناء على إتضاح للرؤية أو تغيير للاستراتيجية ؟؟، أين هى عندما حافظ على خانة الديانة فى البطاقة الشخصية ، وإتسعت فى عصره كليات العلوم الدنيوية الأزهرية القاصرة على المسلمين؟.

إن العلمانية ليست مجرد نصوص قانونية متفرقة أو مواد دستورية متناثرة وانما هى روح تسرى فى المجتمع، وهذا الخلط هو الذى جعل شهيد التنوير المصرى فرج فودة يعتبر أن «الدولة التى نعيشها دولة علمانية المبنى والنظام»[٢٠] ، ولذلك فأقصى الامانى لدى الكثيرين أن يظل الحال على ما هو عليه فى مقابل المستقبل المظلم الذى ينتظرنا على أيدى أصحاب الدولة الدينية أى بمعنى (اللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش).

حقاً إننا نملك بعض العلمانيين بلا علمانية، بلا تيار حقيقى يسرى فى نخاع المجتمع «فالعالم العربى الحديث لم يعرف العلمانية قط كجزء من مشروع حضارى أشمل وإنما عرفها حيناً كثقافة تنويرية او كمجموعة من القوانين المنقولة عن الغرب[٢١].

وهذه فى الحقيقة هى أهم المشاكل التى تواجه العلمانية، مشكلة الأفراد الجزر المنعزلة التى لا تتجمع الا لتفترق، تطغى خلافاتهم الأيدلوجية من اليسار واليمين على إتفاقهم المبدئى فيكونون هم أنفسهم حملة أكفان علمانيتهم، ثم تأتى المشكلة الثانية وهى أن العلمانية المصرية حتى الآن لم تؤسس مشروعًا وانما هى REFLEX أو ردود أفعال كما نلمس عضلة الضفدعة هكذا بقطب كهربى فتتقبض ، هكذا كانت العلمانية، مقال ينشر فى جريدة فيرد العلمانيون، حدث يجرى فى مكان ما فيهب العلمانيون ...الخ، وردود الأفعال هذه مطلوبة بالطبع وبشدة لكن المفروض أن تكون أحد جوانب الصورة لا أن تحتل كل الصورة بل فى بعض الأحيان الإطار أيضا.

وحين نرفع شعار العلمانية هى الحل فلابد من أن ندفع ثمن هذا الشعار كما دفعه الغرب منذ القرون جهداً ودماء .. فالعلمانية لا تقدم على طبق من ذهب أو تهبط هبة من السماء .. واعتقد أننا ندفع الثمن حالياً فإما ان نشترى المستقبل او نقع غرقى ديون الماضى الى أبد الآبدين .

# الهوامش

١ - زكى نجيب محمود عن الحرية أتحدث ص ١٨٤ ـ دار الشروق.

٢ - نفس المصدر السابق ص ١٨٦ .

٣ - فؤاد زكريا الصحوة الاسلامية فى ميزان العقل ص ٤٦ ـ دار الفكر .

٤ - أنظر فؤاد زكريا فى المصدر السابق ومحمد رضا محرم فى مقاله عن العلمانية والكهانة ومستقبل العمل السياسى فى مصر ص ١١ مجلة فكر عدد نوفمبر ١٩٨٩ ومحمد سعيد العشماوى مجلة القاهرة عدد ١٢١ ص ٧٩ .

٥ - د. محمد رضا محرم المصدر السابق ص ١١

٦ - د. محمد احمد خلف الله ـ جريدة الأهالى العدد رقم ٦٠٣ ص ١٠ .

٧ - د. نصر حامد ابو زيد نقد الخطاب الدينى ص ٩ دار سينا للنشر .

٨ - د.غالى شكرى ـ اقنعة الأرهاب ص ٤٤٣ هيئة الكتاب

٩ - د. فرج فودة ـ حوار حول العلمانية ص ٢٧ دار المحروسة

١٠ـ د. مراد وهبة ـ مجلة ابداع ص ٩ عدد (٦) ١٩٩٢

١١ - حسين أحمد امين ـ دليل المسلم الحزين وحول الدعوة الى تطبيق الشريعة ص ٢٥٤ .

١٢ - مجلة فكر ـ عدد فبراير ١٩٨٥ ص ٥ الافتتاحية

١٣ - المصدر السابق ص ٦ .

١٤ ـ د. فرج فوده مصدر سابق ص ١٤ .

١٥ ـ د. جلال أمين ـ مجلة فكر نفس العدد السابق ص ٥٤ (حوار) .

١٦ ـ فريدة النقاش ـ مجلة اليسار عدد ٣٨ ص ٧٢

١٧ ـ محمد عبد السلام الشاذلى ـ تطور الفكر العربى ـ سلسلة المواجهة الفصل الثالث.

١٨ ـ د. غالى شكرى _النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث ص ٢٤٤ نقلا عن كتاب سعد زغلول ذكريات تاريخية طريفة .

١٩ ـ صلاح عيسى _الكارثة التى تهددنا ص ٢١ .

٢٠ ـ د. فرج فودة مصدر سابق ص ٢١ .

٢١ ـ د. غالى شكرى اقنعة الارهاب ص ١٥ .

# ٦ - فتوى للقرضاوى تثير جدلاً .. القرضاوى يبيح قتل الرحمة!

برغم أننى لاأعترف بفتاوى الشيوخ فى مجالات العلوم الطبيعية والبيولوجية خاصة علوم الطب،لأن معظم هذه الفتاوى المقحمة تعطل التقدم الطبى وتنقله من خانة الصح والخطأ إلى خانة الحلال والحرام،وبرغم أننى أعرف أن المكان الطبيعى لمناقشة المشاكل الطبية هو المعمل وليس المسجد، وحلها يوجد فى المجلات الطبية العلمية وليست فى كتب الفقه الدينية، برغم كل ذلك فقد إسترعى إنتباهى الفتوى الأخيرة التى أطلقها الشيخ يوسف القرضاوى الذى تعودنا منه على إطلاق القنابل الفقهية التى باتت فى الآونة الأخيرة تزعج الكثيرين ومنهم الإخوان المسلمون أنفسهم والذى ينتمى إليهم القرضاوى،فقد أفتى الشيخ القرضاوى فى المجلس الأوروبى للإفتاء الذى إنعقد فى ستوكهولم بفتوى أتوقع لها أن تثير جدلاً كبيراً،الفتوى والتى إهتم بنشرها موقع القرضاوى وموقع إسلام أون لاين تجيز رفع وإيقاف أجهزة الإنعاش الصناعى

عن المريض الميت دماغياً وهو مايعرف بإجازة تيسير الموت وهى فتوى ستحدث ثورة فى مجال السماح بزرع الأعضاء خاصة الكبد،والجزء الأخطر فى الفتوى هو موافقة القرضاوى على إيقاف العلاج عن المرضى الميئوس شفائهم مثل بعض حالات السرطان والإيدز وغيرها من الأمراض التى تتسبب فى آلام مبرحة لايستطيع تحملها المريض وهو مايعرف بموت الرحمة أو قتل الرحمة، وقبل أن نقرأ الفتوى بالتفصيل سنحاول أن نتعرف على هذه المسميات والمصطلحات العلمية وأهمها مصطلح قتل الرحمة.

اليوثينيزيا EUTHANASIA أو قتل الرحمة هى كلمة يونانية تعنى فى الأصل الموت الجيد أو الموت اليسير أو الموت الكريم،وهى تعنى الآن تسهيل موت الشخص المريض بدون ألم لرحمته من المعاناة سواء بطرق إيجابية أو سلبية،والقتل الرحيم الإيجابى يشمل القتل المتعمد للمريض الذى لايحتمل الألم والميئوس من شفائه بواسطة جرعات زائدة وقاتلة من المسكنات مثل المورفين أو الكورارى الذى يوقف التنفس سواء بناء على طلب المريض أو بدون طلبه، والصورة الثانية من الموت الرحيم الإيجابى هو فصل جهاز التنفس لمريض فى حالة غيبوبة أو موت دماغى فى غرفة العناية المركزة،ويرى المؤيدون أن إستمرار العناية فى مثل هذه الظروف غير ذات معنى ولاتطيل الحياة بل تطيل معاناة الأهل، وإيقافها يوفر الجهاز لشخص أكثر إحتياجاً يرجى شفاؤه، أما القتل الرحيم السلبى أو مايطلق عليه تيسير الموت السلبى فأمثلته هى إمساك

ومنع المضاد الحيوى عن مريض سرطان الرئة مثلاً التى يصاحبها إلتهاب لو لم يعالج بالمضادات سيعجل بموت المريض، أو إيقاف العلاج عن طفل مشوه بشلل مخى أو مرض التصلب الأشرم الذى يؤدى لشلل الساقين وعدم التحكم فى المثانة والأمعاء ...الخ، ويعتمد مؤيدو القتل الرحيم على عدة حجج منها أن للإنسان حق التصرف فى جسده وهذا حق من حقوق الإنسان، وأن التخلص من آلامه الرهيبة التى لاتحتمل هو رحمة، وأن معنى الحياة لايكمن فى مجرد التنفس والأكل وإنما فى مقدار مساهمة الإنسان وإنتاجه وإبداعه، وأن حياة تعتمد بشكل كامل على الآخرين لاتستحق أن نطلق عليها لفظ حياة،والقتل الرحيم فى نظر هؤلاء رحمة بالمحيطين بالمريض وله أيضاً فائدة إقتصادية، ولكن الرافضين يقولون أن دور الطبيب بالقتل الرحيم سيتحول من محافظ على الحياة إلى متحكم فى الوفاة ، وسيفقد بذلك مصداقيته بين المرضى وسيقوض فلسفة الطب والعلاج من أساسها .

ومن الجدل العلمى الإجتماعى إلى الجدل الفقهى، حيث ألقى الشيخ القرضاوى بفتواه القنبلة التى سنعرض لها بالتفصيل،يقول القرضاوى أن تيسير الموت بجرعات المسكنات القاتلة لايجوز شرعاً بأية وسيلة،سواء كانت مادة سمية أو صعقة كهربائية فكله قتل، أما تيسير الموت بإيقاف العلاج فالقرضاوى يبيحه قائلاً أن التداوى عند علماء الشرع ليس بواجب،بل هو فى دائرة المباح، بل لقد تنازع العلماء أيهما أفضل: التداوى أم الصبر؟، ومنهم من قال أن الصبر

أفضل تبعاً لحديث بن عباس عن الجارية التى كان يصيبها الصرع وسألت النبى عليه الصلاة والسلام أن يدعو لها، فقال «إن أحببت أن تصبرى ولك الجنة،وإن أحببت دعوت الله أن يشفيك،فقالت بل أصبر وطلبت أن يدعو لها بألا ينكشف جسدها أثناء الصرع»، ويذكر القرضاوى أن الكثير من الصحابة لم يكونوا يتداوون بل منهم من إختار المرض مثل أبى ذر،وقال أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين الجزء الرابع ص ٢٦٠ أن ترك التداوى أفضل !!، وينتهى من ذلك إلى رأى أو فتوى تقول «إذا كان تعريض المريض للعلاج بأى صورة كانت شرباً أو حقناً أو تغذية بالجلوكوز ونحوه، أو توصيلاً بأجهزة التنفس الصناعى أو غير ذلك مماوصل إليه الطب الحديث يطيل عليه مدة المرض ويبقى عليه الالام زمناً أطول، فمن باب أولى ألا يكون ذلك واجباً ولامستحباً بل لعل عكسه هو الواجب أو المستحب، فهذا النوع من تيسير الموت فى رأى القرضاوى ليس قتل رحمة لعدم وجود فعل إيجابى من قبل الطبيب، إنما هو ترك لأمر ليس بواجب ولامندوب وهو أمر جائز ومشروع، وبالنسبة لبقاء المريض ميت الدماغ على أجهزة الإنعاش فهو من وجهة نظره تكلفة باهظة وقلق للأهل لاطائل من ورائه ».

والمدهش أن الشيخ القرضاوى قد توصل لهذه الفتوى التقدمية الصادمة للبعض عن طريق أكثر الأفكار تخلفاً ورجعية، وهى فكرة ترك التداوى أفضل، فأنا أؤيد رفع أجهزة التنفس الصناعى عن مريض ميت الدماغ وخاصة لوكان قد أوصى بأعضائه بعد الوفاة،

ولكنى أؤيدها من باب الإحتياج العلمى والعلاجى والإقتصادى ومن باب التداوى أيضاً ولكن لمريض آخر محتاج أن يعيش بهذه الأعضاء وليس من باب أن ترك العلاج أحسن وأفضل وهو ماذكره القرضاوى فى فتواه !!.

وبالطبع لم تمر هذه الفتوى مرور الكرام على المشايخ فقد هاجموها بشراسة فعلى سبيل المثال وصف د.عبد الفتاح عاشور الطبيب الذى يفعل ذلك بأنه قاتل،وكذلك فعل الكثيرون ممن صدمتهم فتوى القرضاوى، وقال ممثلهم د.عاشور «أنه لايجوز بأى حال من الأحوال التخلص من المريض بقتل الرحمة، فقد وردت الأحاديث فى جزاء الصابرين على مايصيبهم من آلام، ومن قتل نفسه لمرض نزل به فقد إرتكب جرماً عظيماً وإثماً كبيراً، وعلى المؤمن أن يصبر على ماأصابه وأن يحتسب، وقال الله فى محكم تنزيله إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، ولذلك لايجوز للأطباء القيام بقتل المرضى بدعوى الرحمة بهم، لأنهم لايملكون هذه النفس كى يكون لهم حق إصدار القرار»، وكذلك رفض المفكر الإسلامى والقاضى المعروف طارق البشرى قتل الرحمة لأنه من وجهة نظره تجرمه الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، وأكد على أنها فكرة شاذة تتناقض مع جهل الإنسان بموعد وفاته، ويقول فى نهاية تعليقه أنه كم من المرضى أكد الأطباء قرب وفاتهم ولكنهم عاشوا سنيناً طويلة، وقد رفضت المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت مصطلح القتل الرحيم وقالت فى بيانها أنه لايتوافق مع أى

دين سماوى ويعتبر طلباً لتنفيذ وسائل قتل عمد مع سبق الإصرار، وقال د.عبد الرحمن العوضى رئيس المنظمة إن أول مايقسم عليه الطبيب هو الحفاظ على حياة الإنسان فكيف به إذا تحول إلى قاتل !؟، وأضاف أن التدخل الإيجابى أو السلبى بالإمتناع عن تقديم العلاج للمريض يتساويان فى الحرمة،حتى لوطلب المريض أو أهله ذلك،مذكراً بماجاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً».

الجدل حول القتل الرحيم لم يقتصر على الوطن العربى فقط بل دار وبنفس درجة الإحتدام فى أوروبا وأمريكا من قبل،ولكن معظم الجدل تركز على الجزء الإيجابى منه وخاصة إعطاء المسكنات بجرعات قاتلة، أما رفع أجهزة التنفس الصناعى عن مرضى الموت الدماغى فقد أصبح بديهية شبه مستقرة فى العالم كله ماعدا مصر ودول أخرى تعد على أصابع اليد الواحدة،وقد كان اليوم الأول من أبريل فى العام الماضى ٢٠٠٢ هو أكثر الأيام جدلاً بالنسبة لهذه القضية، فقد أصدرت فيه هولندا قانوناً يبيح القتل الرحيم وبذلك أصبحت أول دولة تشرعه قانوناً، وتجيز هولندا للأطباء ممارسة القتل الرحيم دون التعرض لملاحقات قضائية شرط أن يحصلوا على طلب واضح من المريض، وأن يكون المريض مصاباً بمرض مستعصى والامه لاتحتمل ، كما يتعين على الطبيب أن يستشير طبيباً واحداً آخر على الأقل قبل تنفيذ رغبة مريضه، ويتم نقل جميع حالات الموت الرحيم إلى لجان تضم قاضياً وطبيباً

متخصصاً فى الأخلاقيات الطبية للتحقق من إحترام الشروط المنصوص عليها وفى حالة المخالفة يحال الملف إلى القضاء، ويصبح الطبيب معرضاً للمساءلة القانونية، وينبغى إتخاذ قرار التخلص من حياة المريض طبقاً للقانون هناك بالتنسيق مع الأهل بالنسبة للشباب، والغريب أن هذا القانون قد شهد تأييداً حماسياً فى هولندا عند صدوره، وعلقت عليه برناردينا وانرويج المسئولة فى قطاع التعليم الطبى فى مجال العلاج بالمهدئات قائلة «إن القانون يضع معايير واضحة تضمن كذلك حماية المريض، وأضافت أن القتل الرحيم يمارس سراً فى الدول الأخرى ولكن فى غياب تشريعات تنظمه»، ورداً على المخاوف التى أبداها بعض المسئولين فى اللجنة الدولية لحقوق الإنسان بشأن الإستخفاف بالحق فى الحياة قال الطبيب ديك ويلمس «سنظل نحن الأطباء نتعامل مع القتل الرحيم بوصفه عملاً صعباً لايمارس إلا فى غياب أى حل آخر ».

إستمر الجدل حول معنى الآلام غير المحتملة وإمكانية تحسينها، وهل السأم من الحياة واليأس منها هو من قبيل المعاناة غير المحتملة أيضاً ؟... إلى آخر هذه القائمة من التساؤلات التى فجرتها قضية القتل الرحيم،ففى فرنسا أيد وزير الصحة الفرنسى برنار كوشنر القانون الهولندى حين صدر وقال أنه سيضغط من ناحيته لإستصدار قانون مماثل فى بلده،وإعترف أنه شخصياً مارس قتل الرحمة بنفسه فى فيتنام ولبنان، أما فى إستراليا التى

كانت أول بلد فى العالم يبيح قتل الرحمة ويصدر قانوناً بذلك ١٩٩٦ ولكنه لم يعش طويلاً فقد ألغى بعدها بتسعة شهور، هناك مازال الجدل قائماً ومازال البعض يحاول إعادة هذا القانون خاصة بعد تركيز وسائل الإعلام هناك على حالة المريضة الأسترالية نانسى كريك ٧٠ عاماً المريضة بسرطان الأمعاء والتى سجلت معاناتها على شبكة الإنترنت وتوسلت إلى مرتادى الشبكة تقديم عقار يمكن أن تنهى به حياتها،وقد أجرت مجلة مديكال جورنال إستطلاعاً للرأى بين الأطباء هناك فى أستراليا فإتضح أن ثلثى الأطباء هناك يقدمون جرعات عالية من المسكنات لإنهاء حياة المرضى المصابين بأمراض مستعصية للتعجيل بوفاتهم، وقال نحو ٢٠٪ من هؤلاء الأطباء أنهم قاموا بهذه الخطوة دون طلب صريح من المريض.

ومن أستراليا إلى بريطانيا التى شهدت عام ٢٠٠٢ أول حالة سماح بالقتل الرحيم برغم أن قانونها لايسمح بذلك ويسجن من يساعد عليه ١٤ عاماً، إلا أن إليزابيث باتلر سلوس رئيسة قسم القضايا العائلية بالمحكمة العليا البريطانية خرجت على هذا القانون فى ٢٢ مارس ٢٠٠٢ وسمحت للآنسة بى ٤٣ عاماً بإنهاء حياتها بسلام وكرامة حسب تعبير المحكمة، وأوضحت القاضية أنها وضعت نفسها مكان المريضة صاحبة الدعوى التى تعانى، وكانت المريضة تعرضت لتمزق فى الأوعية الدموية فى الرقبة قبلها بعام ممأدى إلى إصابتها بشلل وحرمها من التنفس بشكل طبيعى ،

وعبرت عن سعادتها بعد صدور الحكم الذى كانت تتابعه من غرفتها بالمستشفى بواسطة جهاز إرسال، ووصفته بأنه حكم عاقل ومتوازن،وأيدت جمعية الأطباء البريطانيين قرار المحكمة معتبرة أنه «يعزز القواعد الشرعية والأخلاقية الراسخة التى تمنح أى شخص بالغ يتمتع بالقدرة على التمييز الحق فى رفض تلقى العلاج الطبى حتى ولو أدى ذلك إلى وفاته»، وبالطبع إعتمد هؤلاء الأطباء على قوانين البلاد التى تبيح القتل الرحيم والتى زاد عددها وتضم حالياً السويد والدنمارك وأسبانيا وبلجيكا واليونان والنرويج وتركيا وكولومبيا والصين .

إن صدور فتوى القرضاوى والجدل الذى أحدثته فى الأوساط الطبية يطرح أسئلة فلسفية قبل أن تكون طبية عن معنى الحياة ، وهل هى مجرد التواجد بالجسد حتى ولو كان هذا الجسد متألماً معطباً معطلاً إلى الأبد؟، وماهو الحل أمام صرخات المريض وتأوهاته التى لاتهدأ بالرغم من جرعات المسكنات العالية؟، وهل ترك هذا الألم هو الرحمة وماهو معنى الرحمة الحقيقى فى هذه الحالة ؟، علامات إستفهام كثيرة ومحيرة تطرح نفسها بقوة وعنف أمام الجميع وتريد الإجابة الحاسمة لامجرد الهروب بمصمصة الشفاه وطلب الصبر .



# ٧ - الحجامة نصب واحتيال باسم الدين !

الحجامة ليست طباً نبوياً وإنما نصباً دنيوياً !، أقولها وبالفم المليان وأنا مؤمن أشد الإيمان أننى بهذا القول غير خارج عن الملة، ولست منكراً لماهو معلوم من الدين بالضرورة ،ولست أيضاً منكراً للسنة وأهميتها فى التشريع الإسلامى،وهى التهم الجاهزة التى يلقى بها فى وجوهنا كهنة هذا العصر ممن يسترزقون بالدين ويتاجرون فى الفقه ويمارسون البيزنس بإسم الطب الإسلامى أو النبوى ،وبرغم معرفتى التامة بالأحاديث التى قيلت فى الحجامة مثل «خير ماتداويتم به الحجامة» ومثل «يامحمد بشر أمتك بالحجامة » ، ومثل الأحاديث التى تلخص العلاجات فى شربة العسل أو كى النار أو شرطة المحجم ...الخ، برغم معرفتى بكل هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث النبوية الطبية التى يطلقون عليها تجاوزاً الطب النبوى فإننى غير مطالب بإتباعها كطبيب معالج بل على العكس إننى مطالب كطبيب مسلم يخاف على دينه أن يبتعد عما هو غير صالح لهذا الزمان بعدم تطبيق التعاليم الطبية التى تجاوزها الزمن فى هذه الأحاديث، وأعتقد أن من يفعل ذلك فهو

أكثـر إيمـاناً ويخـدم الإسـلام أكثـر ممـن يروج للأحـاديث الطبيـة النبوية التـى لاتتفق مع العلم الحديث من قـريب أو بعيد ، لأن مثل هذه الأحـاديث الطبيـة تسئ لسمعـة الإسـلام الذى أمرنا بإحتـرام العقل، والخطورة الأكبر هـى ماذا سنقـول كمسلمين لمن يثبت أن متن هذه الأحـاديث خـاطئ من النـاحيـة العلميـة، هل سنرد عليـه بالربط مـابين هـذه الأحـاديث وصـحيح الديـن وبالقـول أنه لكى تكون مؤمناً فعليك أن تقتنع بصحة هذه الأحـاديث من النـاحيـة العلميـة؟!، بهذا الرد سنكون قـد إرتكبنـا أبشع جـريمـة فـى حق الإسـلام لأن الخطأ والعيب وقتها سيكون خطأ وعيب الإسلام نفسه وحاشا لله أن يكون الإسلام معيباً !!، وخـذ عندك من هـذه النوعية بعض هـذه الأحاديث والتى نقرأ معظمها فـى صحيح البخارى، وسأترك التعليق للقراء:

- «لاعدوى ولاطيرة»... وأظن أنه يوجد الآن كتب توزن بالأطنان تبحث فـى الأمراض المعدية.

- «التين يقطع البواسير».... أعتقد أنه لايوجد طبيب جراح واحد على ظهر الكرة الأرضية يكتب التين كعلاج للبواسير الآن.

- «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء».

- «أكل العدس يرقق القلب ويدمع العين ويذهب الكبر».

- «ربيع أمتى العنب والبطيخ».

- «الباذنجان شفاء من كل داء».

- «الهريسة تشد الظهر».

- «من إصطبح كل يوم بسبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولاسحر ذلك اليوم إلى الليل».

- «لايبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة» ... وأعتقد أننا بعد قرن ونصف مازالت فيه نفوس حية على ظهر الأرض !

- «الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء».

هذه الأحاديث السابقة وغيرها من الأحاديث التى تخوض فى الطب هى بنت زمانها ومكانها وبيئتها ، ولايصح أن نلغى عقولنا أمامها ونصدق متنها ونتبناه لمجرد صحة السند ،ولست وحدى الذى يقول ذلك الكلام ولكن بعض رجال الدين المستيرين قالوا مثله ، ولكن بسبب أن صوت الإجتهاد مغيب فى هذه الأيام فإننا لانلتفت إلى هذه الآراء الشجاعة، فمثلاً الشيخ الجليل عبد المنعم النمر فى كتابه العظيم «الإجتهاد» فى صفحتى ٣٨ و ٤٠ يفرق بين السنة الواجب إتباعها والسنة التى لاتثريب على تركها فيقول أن ماصدر عن الرسول - ﷺ - فى الزراعة والطب والطعام ومايحبه الرسول ومايكرهه وكيف يمشى ونومه ولبسه إلى غير ذلك من الأمور العادية كل ذلك من النوع الثانى الذى «لايمنع أحداً من الإجتهاد فيها إذا وجد أنها لم تعد تحقق المصلحة التى أرادها الرسول لتغير الناس والأمكنة»... ونفس المعنى يقوله محمد سليمان

الأشقر أستاذ الشريعة بجامعة الكويت ، والقاضى عياض الذى قال فى ترك العمل بالأحاديث الطبية «ليست فى ذلك محطة ولانقيصة لأنها أمور إعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل بها ،ولذا يجوز على النبى - صلعم - فيها ماذكرنا - أى الخطأ والصواب ».

كان لابد من هذا التقديم المطول لكى لايحتج البعض بحديث الحجامة الذى كمانرى ينطبق عليه نفس ماقيل عن معظم أحاديث الطب التى نأخذ منها ماإتفق مع العلم الحديث مثل ضرورة التداوى ونهجر ماهو نبت زمانه وبيئته كماذكرنا، والآن نذهب إلى الشق العلمى الذى نبدأه بأن نقول لاتوجد مجلة علمية محترمة معترف بها فى العالم تبنت الحجامة كعلاج أو ذكرت فائدة واحدة من الفوائد العديدة التى يذكرها بعض المتاجرين بالدين، ولكن كل مايقال عن الحجامة مذكور فى كتب صفراء ومواقع إنترنت، وكلنا يعلم أن الإنترنت مباح لكل من هب ودب ولايعتد به كحجة علمية أكاديمية، ونعرف أيضاً أنه حتى الدجل والخرافات لها مواقع تعد بعشرات الالاف ،والحجامة لاتصمد لأى مناقشة علمية جادة، وقد حضرت مناقشة ساخنة فى أحد البرامج الفضائية كان يحضرها بعض أدعياء الحجامة وقد أفحمهم الدكتور أحمد شفيق أستاذ الجراحة والدكتورة مؤمنة كامل أستاذة التحاليل ومعهم مدير معهد السرطان وغيرهم من الأساتذة الكبار الذين إتفقوا على أن كل مايقوله هؤلاء الأدعياء ماهو إلا عملية نصب تتم بكل بجاحة متسترة بالدين والدين منها براء.

سأذكر لكم سريعاً الأمراض التى يدعى هؤلاء أن الحجامة تعالجها، وأطالبكم بإسم العقل والدين والإنسانية أن تحلوا هذا اللغز العويص وهو كيف يعالج دواء أو إجراء واحد ثابت لايتغير كل هذه الأمراض مجتمعة، يقول المعالجون بالحجامة أنها تعالج ثمانين مرضاً منها «الروماتيزم والروماتويد والنقرس والشلل النصفى والكلى وضعف المناعة والبواسير وتضخم البروستاتا والغدة الدرقية والضعف الجنسى وإرتفاع ضغط الدم وقرحة المعدة والقولون العصبى والتبول اللاإرادى وضيق الأوعية الدموية وتصلب الشرايين والسكر ودوالى الساقين ودوالى الخصية والسمنة والنحافة والعقم والصداع الكلى والنصفى وأمراض العين والكبد وضعف السمع والتشنجات وضمور خلايا المخ ونزيف الرحم وإنقطاع الطمث» !!!، وإسمحوا لى أن أغلق القوس لأن قائمة الأمراض لم تنته بعد، وأيضاً التساؤلات لم تتوقف ،وإسمحوا لى أيضاً أن أعرض بعضها :

- كيف يعالج دواء أو إجراء جراحى المرض ونقيضه فى نفس الوقت ؟!، وكيف تعالج الحجامة السمنة والنحافة، والنزيف وإنقطاع الدم ....الخ ؟
- هناك بعض الأمراض ذات السبب الواضح مثل الغدة الدرقية التى تحتاج لهورمون الثيروكسين الذى تفرزه هذه الغدة، والسكر الذى يحتاج لهورمون الإنسولين ،والقرحة التى تحتاج لمعادلة الحموضة الزائدة ...الخ، فكيف تحل الحجامة وتعوض هذه الأشياء ؟، هل بمجرد التشريط وكاسات الهواء وفصد الدم؟!.

● إستخدام الحجامة بهذا الشكل الكوميدى سلوك فى منتهى الخطورة، فعندما نعالج به الصداع نحن نغفل الأسباب المهمة والخطيرة أحياناً وراء هذا الصداع الذى من الممكن أن يكون ورماً على سبيل المثال ونحن ننام فى العسل وندعه يكبر ويتضخم فى أحضان الحجامة.

● قمة تخاريف أهل الحجامة وأطباء الدروشة هى مايقولونه عن أوقات الحجامة المستحبة فهم يقولون أن أفضل وقت لها هو فى اليوم السابع عشر والتاسع عشر والحادى والعشرين أو فى الربع الثالث من الشهر العربى وذلك إعتماداً على ماقاله إبن القيم فى زاد المعاد «لأن الدم فى أول الشهر لم يكن بعد قد هاج، وفى آخره يكون قد سكن !!، وأعتقد أن هذا الكلام لايصمد أمام أى مناقشة علمية وينكره طالب الإبتدائية وأعتقد أن الأطفال سيأخذونه على سبيل الهزار، ويقولون أنها مستحبة فى أيام الإثنين والثلاثاء والخميس ومنهى عنها أيام الأربعاء ومكروهة فى الجمعة، وهى فى الصيف أفضل من الشتاء وفى النهار أفضل من الليل ، وأنا بالطبع لاأفهم لماذا وماهى علاقة أيام الأسبوع والفصول بالحجامة ؟، وهل المطلوب من المرض أن يأخذ أجازة عارضة فى هذه الأوقات، ولكن ماأعرفه ومتأكد منه أن أطباء الحجامة المعاصرين قد إخترعوا أحاديثاً تبيح الحجامة طيلة أيام الأسبوع وطوال اليوم حتى تستمر مسيرة السبوبة وطريق الإسترزاق !.

● أما أكبر نكت الحجامين فهى أن الجنس ممنوع لمدة ٢٤ ساعة أثناء الحجامة!!، وأعتقد أنهم بذلك مؤيدون لتنظيم النسل برغم معرفتى بأن تنظيم النسل عندهم حرام ولاأعرف كيف سيحل الحجامون الجدد هذا التناقض ؟، وأعتقد أن النكتة فى هذا المجال عار وفضيحة، لأن العصر لم يعد يحتمل الخرافات، ولن يقبل التلكؤ عن قطار الحضارة بإسم الوقوف فى محطات الكتب الصفراء، وإلا فسيتركنا هذا القطار حتى نتجمد ونتحنط فى مكاننا كالتماثيل لانستطيع إلا أن نصرخ كما صرخ الأقدمون :ياخفى الألطاف نجنا ممانخاف.

# ٨ - قصة ظاهرة التوائم الملتصقة

## ( أ )

فى عام ٢٠٠٣ عشنا دراما فصل التوائم السيامية المصرية محمد وأحمد وتاليا وتالين، كنا نتابعها بشغف وترقب وتلهف وكأننا نتابع مسلسلاً تليفزيونياً ساخن الأحداث، وسر هذا الشغف هو أن هذه العملية هى عبور من نفق مظلم إما أن نجد فى نهايته حياة نابضة أو موتاً مقيماً، إما الصبر وإما القبر، والمثير أن هذا القرار الصعب يتم بمحض إرادة الأب والأم اللذين يعرفان جيداً أن نهاية حتف توأمهما أقرب إليهما من حبل الوريد ولكنهما يعرفان أكثر أن الحياة بهذا الشكل أفضل منها الموت، فالإنسان بطبعه يخاف الحميمية الزائدة عن الحد، ويخشى التعرى النفسى الكامل حتى أمام أقرب الناس إليه، ودائماً يفضل أن يحتفظ بمساحة ما بينه وبين الآخرين، ومسيرة حياة الإنسان الطويلة تقاس بعدد الحواجز التى يبنيها لحماية نفسه من فضول الآخرين وبكمية الأصداف التى يدخلها لينعزل فيها، فمابالك إذا إلتصق ببنى آدم آخر يعد عليه أنفاسه ولايسمح له بملليمتر واحد من الخصوصية أو التفرد،

يعيش فى عالم بلاأسرار وكون مفضوح بلاستائر، ليس لديه أى رصيد من الغموض المحبب المطلوب الذى يضفى على حياته نوعاً ما من المعقولية والحيوية والمعنى، إنها حياة قاسية موحشة مدمرة يعانى منها التوأم الملتصق الذى كتب عليه أن يصادر حلمه فى الإستقلال فهو محتل بتوأمه إحتلالاً أبدياً سرمدياً لاتنفع معه قوات الطوارئ ولافكاك منه إلا بالموت.

عشت مشاعر متضاربة طوال هذه المدة مابين الشفقة والغضب، الشفقة على مصير التوائم الملتصقة ، والغضب من صمت وخرس الأطباء المصريين على ماحدث من بروباجندا سعودية حول عملية فصل التوائم، ولامبالاتهم بتوضيح الصورة عمايحدث أمام المصريين الذين يرون أبناء السعودية يأتون للتعلم فى كليات الطب المصرية فى نفس الوقت الذى تذهب فيه التوائم المصرية لإجراء الجراحات فى السعودية وكأنها كعبة الطب،ويعلمون أن الأطباء المصريين مازالوا الأوائل على قائمة مكاتب التوظيف السعودية، وأقول بداية حتى لاأفهم خطأ أننى أشكر الأطباء السعوديين على إجرائهم لهذه الجراحة لأن الذنب ليس ذنبهم فقد قاموا بواجبهم المهنى على أكمل وجه، ولكننى ألوم المذنبين من الأطباء المصريين ممن لم يحلوا هذه الإزدواجية التى رآها المصريون عن كثب وألوم أيضاً من صوّر عملية فصل تاليا وتالين على أنها فتح طبى غير مسبوق، أنا أقبل أن نقول أن فصل التوأم محمد وأحمد التى

أجريت فى أمريكا عملية أصعب من إمكانياتنا لأنها إلتصاق بالرأس وسنشرح فيما بعد لماذا هى أصعب ؟، لكن مالاأقبله والمفروض الايقبله أى طبيب مصرى هو أن يقال أن جراحة فصل تاليا وتالين لانستطيع إجراءها فى مصر، إنها فضيحة وعار أن نقول مثل هذا الهراء فعملية الفصل التى تمت فى السعودية من الممكن أن يجريها أى مدرس جراحة مصرى فى جامعة إقليمية فمابالك بأساطين الجراحة المصرية الذين لهم بصماتهم العلمية فى العالم كله ولهم عمليات جراحية بأسمائهم فى المراجع العالمية ، وأرجو أن يدلنى أى قارئ مهتم على إسم طبيب سعودى له عملية جراحية بإسمه وهذا لايضير الطب السعودى لأنه مازال طباً وليداً يحبو ولأنه معتمد على الأجانب بشكل أساسى، وتفريخ الأطباء السعوديين الجدد تقابله مصاعب كبيرة من ضمنها طبيعة المجتمع السعودى نفسه الذى يقوم على الإقتصاد الريعى الذى يشجع الكسل ويفضل الأعمال التجارية الأسرع والأكثر ربحاً ،هذه الجراحة من الممكن أن يجريها مدرس الجراحة المصرى لأنها ببساطة عملية فصل كبد وليست فصل توائم ويزيد على فصل الكبد ترقيع الجلد وهو من بديهيات جراحة التجميل والحروق فى مصر، وأطباؤنا المصريون فى مستشفيات كثيرة يجرون فصل الكبد هذا بمنتهى السهولة لأن الكبد بالبلدى لعبتهم نتيجة البلهارسيا المنتشرة فى مصر والتى تصيب الكبد والتى جعلت من جراحات

الكبد فى مصر عمليات يومية شبه روتينية يأتى الأجانب ليتعلموها من المصريين الذين قطعوا فيها شوطاً طويلاً وبلغوا فيها مهارة تجعلهم أساطين هذا الفرع فى العالم،أما الخبر المفاجأة الذى لايعرفه الناس فهو أن جراحى مستشفى أبو الريش الجامعى قد أجروا عمليتين مماثلتين فى عامى ١٩٩٤ و١٩٩٧ لتوأمين ملتصقين من الصدر والبطن والمفاجأة الأكبر أن المستشفى كانت مستعدة لإجراء جراحة لتاليا وتالين بعد أن دخلا المستشفى ولكن حال بينها وبين إجراء الجراحة طلب الأب الخروج بعد ساعتين، والسؤال لمصلحة من تقول الدكتورة مها مراد مديرة مستشفى أبو الريش فى حديثها لجريدة الجمهورية عدد ٩ أكتوبر أن وحدة جراحة الأجنة هناك جديدة لم تكَون وتشكل بعد الفريق المتكامل الذى يجرى هذه الجراحة لذلك لابد من إستقدام فريق جراحى أجنبى، ومن ضمن مبرراتها لعدم إجرائها أن العملية تحتاج ل ١٥ مليون جنيه!! وهو رقم مبالغ فيه جداً يقال لتبرئة الذمة وغسل ماء الوجه ،ولنفرض أن العملية تتكلف مليون جنيه أعتقد أن المردود الإعلامى لهذه الجراحة لايقدر بمال حتى لو إقترضنا هذا المال أو جمعناه من حصيلة تبرعات، وأظن أن المليون أرخص من الفضيحة التى طالت ودنست عتبات الطب المصرى.

الغضب الذى تملكنى سببه أننى أحسست برائحة المؤامرة على الطب المصرى ومحاولة نقل مركز الثقل الطبى من مصر إلى

السعودية كما إنتقل الثقل الإقتصادى من قبل مرتبطاً بظهور النفط هناك ،من الممكن أن تكون مؤامرة غير مخطط لها بعمد مع سبق الإصرار والترصد لكنها على الأقل أمنية غالية وملحة فى ذهن وقلب وضمير البعض ممن تقتلهم الغيرة من التقدم الحضارى والعلمى المصرى برغم الفقر الذى ينشب مخالبه فى بطون المصريين، فبالرغم من هذا الفقر إلا أن جائزة نوبل لم تذهب إلا للمصريين زويل ومحفوظ وإمتنعت عن المنعمين المضمخين بعطر النفط، وبالرغم من فقرنا وثرائهم إلا أن أبناءهم مازالوا يأتون لطلب العلم عندنا ،وبالرغم من فقرنا إلا أن الفن المصرى والمسلسل المصرى والسينما المصرية مازالوا هم المسيطرون على أدمغة ووجدان هؤلاء، وشئنا أم أبينا لابد لكل هذه الأشياء أن تترك أثراً فى النفوس ،وهذا سر غضبى من مؤامرة الصمت التى نسجها الأطباء المصريون، وغيظى من بروباجندا الطبل والزمر السعودى على مدى سبع ساعات على شاشات التليفزيون السعودى وال ART يغسلون فيها أدمغة البسطاء الذين سمعت من أحدهم «ربنا يخلى لنا السعودية اللى بتعالج عيالنا» !! وهو يرى الهدايا تنهال على أهل التوأم من الأثرياء السعوديين، وأعتقد أن من أطلقوا هذا الدعاء الصرخة معذورون فالمذيعه التى خرجت علينا من الشاشة تقول كل دقيقة جملتها الخالدة «علشان تشوفوا التقدم اللى عندنا فى السعودية» وكأن لسان حالها يقول فى السر وفى نفس اللحظة

«إدعوا للبلد اللى عرفت تعالج أطفالكم يامصريين يامتخلفين »!!، هل وصل الطب المصرى إلى هذه المهانة ؟، هل مصر التى أنجبت دكتور على إبراهيم ومورو والكاتب وعسكر والبحيرى وأحمد شفيق وحمدى السيد وخيرى السمرة ومجدى يعقوب وغيرهم، يأتى عليها الوقت لتتسول العلاج من تلامذة هؤلاء فى السعودية بعد أن كان ينتظر السعوديون بلهفة الأسبوع الذى يزورهم فيه الطبيب الإستشارى المصرى من القاهرة لكى يعالجوا ويطلبوا الشفاء على يديه الساحرتين ! ، لا أجد تعريفاً لهذا إلا العار.

المدهش والغريب والمريب فى الأمر أن هناك «لوبى» من داخل الأطباء المصريين يريد لمصر أن تتخلف طبياً ويساهم فى نقل مركز الثقل الطبى من مصر للسعودية وإجهاض جزء هام من الدخل القومى المصرى الذى ياتى عن طريق السياحة العلاجية التى تموت رويداً رويداً ولن يستريح هؤلاء إلا إذا لفظت أنفاسها الأخيرة، ومن ضمن هذا اللوبى التيار المعارض لزرع الأعضاء الذى يتزعمه طبيب تخدير لانعرف كيف يعيش ويتقوت ومتى يعمل وكل وقته مخصص لقضيته المصيرية تلك ،وأكاد أشم رائحة التآمر والبيزنس الذى يؤكده عدد المصريين الذين يسافرون إلى السعودية وإسرائيل لزرع القرنية وأعضاء أخرى محرومون بسببهم من زرعها هنا بتكاليف أقل ،هل هى مجرد صدفة ؟ أترك الإجابة للعقل والزمن.

( ب )

لماذا كانت جراحة فصل التوأم محمد وأحمد أصعب من جراحة فصل تاليا وتالين وتستحق السفر إلى الخارج بالفعل ؟، ولكى نجيب على هذا السؤال لابد أن نعرف حكاية التوأم محمد وأحمد بإختصار، الإسم محمد وأحمد إبراهيم ،السن عامان، الإلتصاق من الدماغ، وقد سافرا إلى أمريكا منذ أكثر من عام للمتابعة وقد أجريت العملية التى إستغرقت يوم ونصف فى مركز دالاس لطب الأطفال بولاية تكساس وشارك فى إجرائها أكثر من ستين جراح وطبيب ،ولم يدفع تكاليفها أمير أو مسئول أمريكى ولكن التكاليف قد تكفل بها صندوق جراحات الجمجمة والوجه الدولى فى أمريكا وقد تنازل الأطباء وفريق التمريض وإدارة المستشفى عن أجورهم بدون أى دعاية فى الART !!، وتكمن صعوبة العملية الجراحية فى أن شبكة الأوعية الدموية المعقدة التى تغذى مخى التوأم مشتركة بينهما ، وفصلهما بشكل صحيح شئ يقترب من الإعجاز الطبى، والمخ عضو حساس جداً لقطع الدم والأوكسيجين عنه ولايتحمل هذا المنع إلا لدقائق قليلة وأيضاً المخ والخلية العصبية عموماً هى الخلية الوحيدة فى الجسم التى لاتتجدد وعندما تموت تنتهى إلى الأبد ولاتعوض، وأجهزة فصل هذه الأوعية وبناء جمجمتين جديديتين هى ماينقصنا فى مصر لأنها أجهزة غاية فى التعقيد على عكس جهاز الليزر الأرجوانى والدياثرمى وغيرها من أجهزة فصل الكبد وهى أجهزة متوفرة فى الكثير من المستشفيات

الجامعية والمستشفيات الخاصة التى تجرى عملية زرع الكبد من أحياء مثل مستشفى دار الفؤاد ووادى النيل التابعة للمخابرات،ونتمنى للتوأم المصرى النجاح مثل عملية جوزيف ولوكا التى تمت فى لوزاكا بزامبيا ١٩٩٧ بقيادة الجراح الأمريكى «بنيامين كارسون» وهذا التوأم يبلغ من العمر الآن خمس سنوات، والتوأم المصرى والحمد لله حتى لحظة كتابة هذه السطور فى أمان.

تذكرنا عملية فصل التوأم الملتصق من الجمجمة أحمد ومحمد بالتوأمتين الإيرانيتين «لادان» و«لاليه» البالغتين من العمر ٢٩ عاماً والمتخرجتين فى كلية الحقوق، وقد أجريت لهما العملية فى يوليو الماضى فى سنغافورة وإستمرت الجراحة ٥٣ ساعة من ضمنها ٢٢ ساعة لفصل الأوعية الدموية فقط، وبعد فصل الأوعية الدموية فوجئ الأطباء بنزيف حاد أدى إلى وفاة لادان ثم شقيقتها، وهناك أيضاً عملية فصل التوأم الجواتيمالى،وهناك العملية التى تمت فى لوس أنجلوس فى أغسطس من العام الماضى وتوفى التوأم نتيجة إلتهاب ميكروبى حاد، وهناك التوأمان لورى وأختها ريبا اللذان يعيشان فى فيلادلفيا وملتصقان من الرأس منذ أربعين عاماً ولكنهما يمثلان إستثناء فريداً فقد وافقتا على العيش بهذه الصورة ،وقد تكيفا مع إلتصاقهما لدرجة أنهما قسما العمل فالأولى تعمل نهاراً بالمستشفى والثانية تعمل مساء فى ملهى ليلى كمطربة!، والأغرب أن كلاً منهما تبحث عن عريس !!!.

( جـ )

تاليا وتالين عمرهما تجاوز أربع شهور مواليد ٢٧ مايو واللذان ولدا فى مستشفى كليوباترا بالقاهرة مسألة مختلفة تمام الإختلاف، فقد صرح الدكتور عبد الله الربيعة رئيس الفريق الطبى أنهما ملتصقان من الكبد فقط ومن الضلوع ولهما حبل سرى واحد،وكل منهما لها قلب وأمعاء ومخ وحوض منفصل ولكن هناك عيباً خلقياً فى قلب تالين يتمثل فى ثقب بسيط بين البطينين، وهذا الكبد المشترك هو ماجعلنى أطلق عليها لفظ عملية فصل كبد، أجريت العملية فى مدينة الملك عبد العزيز الطبية وشارك فى إجراء الجراحة ٤٥ طبيب وجراح ليس من بينهم إلا طبيب مصرى واحد هو طبيب التخدير وإستغرقت العملية سبع ساعات ونصف ،وقد أصر خال التوأم ويعمل طبيباً بالمملكة على إجرائها هناك، ونشكر الله بالطبع على نجاة التوأم ونشكر الفريق الطبى الذى لم يسعى إلى البروباجندا الإعلامية التى إفتعلتها الميديا السعودية بزعيق وصراخ حاولت محاولة متواضعة أن أجد تفسيراً له، وبالطبع قبل هذا وذاك لابد أن ألوم الأطباء المصريين الذين أجرموا فى حق بلدهم حين أعلنوا أن الطب المصرى عاجز عن إجراء هذه الجراحة.

## ( د )

وعالم التوائم الملتصقة بعيداً عن البروباجندا السعودية ملئ بالقصص المأساوية وأيضاً بالحكايات الطريفة، فمثلاً هناك الحكاية المثيرة للتوأم روزى وجريس من جزيرة جوزو الملتصقين من الحوض وبقلب واحد ورئتين ،وأوصى الأطباء بإجراء العملية لإنقاذ أحدهما وهى جريس التى تسحب أختها منها الدم ،ورفض الأب والأم التضحية بأحدهما، ورفع الأطباء قضية وحكمت المحكمة بحق هؤلاء الأطباء فى فصل التوأم، وماتت روزى وعاشت جريس بحالة جيدة.

أما أطرف وأشهر التوائم الملتصقة فهما «إنج» و«تشانج» المولودان فى سيام ١٨١١ وهذا هو سر التسمية بالتوأم السيامى ،الغريب أن التوأم قد عاش حتى سن ٦٣ عاماً برغم إلتصاقهما فى الصدر والحوض وكانا يعملان مهرجين فى سيرك ،أما الذى لاأصدقه وأشك فى صحته هو أنهما تزوجا وأنجبا ١٢طفلاً وفى أقوال أخرى ٢١ طفلاً!!، وبالرغم من طرافة حياتهما إلا أن وفاتهما كانت فى منتهى الدراماتيكية فقد أصيب تشانج بجلطة فى المخ أقعدته وبالتالى أقعدت شقيقه ثلاث سنوات إلى جانبه ،وعندما مات تشانج طلب إنج المساعدة ولكنه مات بعده بثلاث ساعات نتيجة إنسحاب الدم منه ،وحكايات هؤلاء التوائم تحتاج إلى مجلدات منذ أول حالة توأم ملتصق سجلت فى أرمينيا عام ٩٤٥

حتى التوأم أحمد ومحمد، مروراً بأول عملية جراحية لفصل التوأم عام ١٦٨٩ بواسطة الطبيب الألمانى كوينج وحوالى مائتى جراحة فصل منذ ١٩٥٠ حتى الآن.

( هـ )

كيف ولماذا تحدث ظاهرة التوائم الملتصقة ؟، وهل هؤلاء التوائم يختلفون عن على ومصطفى أمين وأشهر التوائم مثل أبناء شيكسبير وبوش ومحمد على كلاى ومادلين أولبرايت وكليوباترا والناشط الزنجى مالكولم إكس ؟.

التوأم الملتصق يحدث نتيجة تلقيح بويضة واحدة بحيوان منوى واحد ثم تنقسم على نفسها ولكن الخلايا تتأخر فى الإنفصال عن بعضها فيحدث الإلتصاق، ونسبة حدوث الإلتصاق تزداد عندما يحدث الإنقسام بعد ١٢ يوماً من حدوث الإخصاب، وبالطبع لابد أن يكون التوأم من نفس الجنس لأنهما أساساً من بويضة واحدة وأيضاً لهما مشيمة واحدة ، ونسبة حدوث التوأم الملتصق تبلغ واحد من كل ٤٠٠ ألف حالة ولادة ،ونسبة حدوثها فى الإناث ثلاثة أضعاف نسبتها فى الذكور، وأنواع إلتصاق التوائم متعددة وهى :

- إلتصاق بالجمجمة ونسبته ٢٪.
- إلتصاق بالظهر ويمثل ١٩٪ من الحالات .
- إلتصاق بالبطن ٣٥٪ من التوائم المتلاصقة .

- إلتصاق جانبى أى إلتصاق نصف الجسم الأعلى مع وجود وجهين ونسبته ٣٤٪.
- إلتصاق من أسفل ونسبته ٥٪ من الحالات .
- جنين داخل جنين وهى حالة نادرة جدًا جدًا.

التوائم الملتصقة قصة مدهشة بل هى ملحمة مثيرة ،رغبة تتناقض مع رغبة، وإنفعال يعاكس إنفعال، ومشاعر ضد مشاعر ومكتوب على هذا الكوكتيل البركانى أن يعيش كل فرد فيه راضياً مع الآخر بل ملتحماً به ،إنها ملحمة الحياة الصاخبة المتناقضة المتضاربة التى لاترضى إلا بأن تصرخ فى وجوهنا كل لحظة نحن هنا ولن تفكوا شفرتى السرية أبداً.

# ٩ - د. مستجير يدافع عن الهندسة الوراثية

- الإستنساخ والهندسة الوراثية شيئان مختلفان .
- علمياً إستنساخ البشر أكثر أماناً من إستنساخ الحيوان ولكنه إجتماعياً أخطر.
- الهندسة الوراثية هى هبة الله للفقراء فى هذا العالم.
- مشكلة مصر الغذائية والزراعية لن تحلها إلا الهندسة الوراثية.
- د. مستجير لايجد تمويلاً لحلم مركز بحوث الإستنساخ المصرى ،برغم أن التمويل لايساوى ثمن حفلة!!

إكتسب علم الهندسة الوراثية سمعة سيئة وعداوات شرسة خاصة فى المجتمعات الإسلامية، وذلك لأن هذه المجتمعات قد تعاملت مع هذا العلم على أنه يمثل تحدياً للإرادة الإلهية، فناصبته العداء بالرغم من أنه قدم للبشرية إنجازات كثيرة خاصة فى مجال العلاج الطبى ،وبالرغم من أنه يمثل علم المستقبل الذى لن يطرق

بابه من يجهل هذا العلم، فإن الأرتيكاريا مازالت موجودة، والتوجس والريبة والتربص مازالوا يمثلون لغة الحوار مع هذا العلم الوليد، وجاء الإستنساخ البشرى للطفلة «إيفا» ومايستجد من إستنساخ زعيم شمال أفريقيا المنتظر الذى كان موعده فى منتصف يناير والذى يتكهن البعض بأنه القذافى!، جاء كل هذا ليصب البنزين فوق النار ويؤجج لهب الظنون السيئة تجاه الهندسة الوراثية، ولأننا نريد أن نفهم ونريد أن نفض هذا الإشتباك المزعوم مابين الدين والعلم توجهنا إلى أكبر عالم عربى فى مجال الهندسة الوراثية وهو دكتور أحمد مستجير، لجأنا إليه لأنه مفكر ومثقف مهموم بمستقبل هذا الوطن المنفتح على العالم قبل أن يكون عالماً أكاديمياً مهتماً بمايدور فى المعامل المغلقة، طرحنا عليه كل تساؤلاتنا وهواجسنا حول الإستنساخ وهل هو نفسه الهندسة الوراثية ؟، وماهى ظروف لجوء العلماء لهذا النوع من الإستنساخ وكيف سيتأكدون من صحة نسب «إيفا»؟، وماهو رأيه الشخصى فيه؟، وماذا عن مستقبل مركز بحوث الإستنساخ الحيوانى الذى كان يود إنشاءه فى مصر ؟، وغيرها من الأسئلة الهامة، وهذه هى الإجابات الشافية التى ستغنينا عن الجدل العقيم والخلط المريب الذى تدور رحاه الآن فى جنبات المجتمع المصرى ،وتهدئ من ضجة المولد المنصوب الذى يفتى فيه الجميع بإستثناء من هو مؤهل للفتوى من العلماء :

س:........؟

الإستنساخ هو إنتاج أكثر من نسخة من تركيب وراثى معين ، وأفضل مثال عليه هو التوائم المتطابقة (على أمين ومصطفى أمين): بويضة مخصبة (زيجوت) إنقسمت إلى إثنين وكون كل منهما جنيناً .

س:........؟

الإستنساخ شئ والهندسة الوراثية شئ آخر ،فالهندسة الوراثية هى نقل بعض من المادة الوراثية لكائن وإيلاجها فى المادة الوراثية لآخر بحيث تعمل فيه ،والمثال الشهير لذلك هو نقل جين الإنسولين من البشر إلى البكتيريا لتقوم البكتيريا بإنتاج الإنسولين البشرى، حدث هذا اللبس بينهما لدى الكثيرين لأن السبب الحقيقى وراء إستنساخ دوللى - وهى غير مهندسة وراثياً - كان محاولة للإكثار من حيوانات مهندسة وراثياً ،فقد كانت الشركة تجرى تجارباً على إيلاج جينات بشرية فى الأغنام لإنتاج عقاقير بشرية، وهذه عملية مكلفة جداً ، ولو تمكنت الشركة من إنتاج مثل هذه الأغنام المحورة سيكون كل منها مصنعاً لإنتاج العقار ،فالأفضل للشركة بالفعل أن تستنسخها مرات ومرات ،ففى كل مرة ستنتج مصنعاً جديداً بتكاليف أقل ،من هنا إختلطت الكلمتان «هندسة وراثية» و«إستنساخ»، أما الإختلاف بين الطفلة «حواء» والنعجة «دوللى» فهو فرق بسيط، فى حالة إستنساخ دوللى تم إيلاج نواة خلية من الفرد

المستنسخ فى بويضة فرد آخر فرغت من نواتها، أى فى سيتوبلازم بويضة نعجة أخرى، والسيتوبلازم يحمل حلقات من المادة الوراثية التى يطلق عليها الدنا DNA بها جينات، ومن ثم فالنعجة دوللى بها دنا سيتوبلازم هذه النعجة الأخرى، فهى هجين بمعنى ما ،أما الطفلة حواء فسيتوبلازم البويضة المفرغة من نواتها هو سيتوبلازم نفس المرأة التى حملت بها، فالطفلة بالضبط هى توأم متطابق لمن حملتها ،تماماً مثل حالة على ومصطفى أمين ،هى ليست أمها وإنما هى مجرد حاملة بالمعنى الوراثى.

س:٠٠٠٠٠٠٠؟

فى ٣٠ يناير ٢٠٠١ أعلن إتحاد من العلماء أنهم ينوون إستنساخ الإنسان لمساعدة «لعقيم» على الإنجاب، وقال إنهم يتوقعون أن يولد أول طفل مستنسخ خلال ١٢ أو ٢٤ شهرًا، كان مؤسس هذا الإتحاد هو الطبيب الإيطالى «سيفيرينو أنتينورى» وهذا الطبيب تمكن عام ١٩٩٤ من تمكين إمرأة عمرها ٦٢ عاماً من أن تلد، وقد توقع أعضاء الإتحاد أن تكون تكاليف هذه العملية فى البداية خمسون ألف دولار أو أكثر، ولكنهم يتوقعون أن تنخفض التكاليف بعد ذلك لتصل إلى نفس سعر «إنتاج» أطفال الأنابيب حالياً أى نحو عشرة آلاف دولار ،تسبب هذا الإعلان فى فزع عالمى ،وقيل أنه قمة اللامسئولية وأنه يعطى العلم صورة قبيحة لدى الجماهير، ثم إن نسبة النجاح فى إستنساخ الحيوانات حتى الآن لاتزيد عن ٢٪،

وكان السؤال هل بالرغم من ذلك سنعرض الإنسان لهذه المخاطر؟، هناك حدود لرغبة الفرد لأن يكون والداً أو أماً، لابد من كبحها لكن هل للمجتمع أن يضع هذه الحدود ؟، وأليس الأفضل ان يعيش الفرد بدون إنجاب بدلاً من أن يحيا مع إبن أو إبنة مشوهة ؟، فالكثير جداً من الحيوانات المستنسخة تخرج بالفعل مشوهة ولنا أن نتوقع مثل هذا فى الإنسان ،وهنا السؤال الهام هل نحن مستعدون لأن يظهر بشر مشوهون بسبب تقنية الإستنساخ الجديدة ؟، أمن الممكن أن يصبح الإنسان مجالاً للتجريب حتى نتقن التكنيك ؟ولماذا؟.

س:۰۰۰۰۰۰؟

علم الهندسة الوراثية هو «تقنية» وليس «علمًا»، إكتسب سمعة سيئة للغاية لاسيما فى بلادنا وبلاد العالم الثالث على وجه الخصوص وأوروبا أيضاً ،وهناك صراع خفى بين الزراعة الأمريكية والزراعة الأوروبية ،فأمريكا متقدمة بكثير عن أوروبا فى هذا المجال، وهى تريد أن تغزو أوروبا بمنتجاتها المهندسة وراثياً، ولايوجد بحث واحد حتى الآن يقول أن هذه النباتات تؤذى الإنسان، حتى مايزعمون وماقيل عن الحساسية التى تسببها ،كل ماهناك تهويل فظيع وتخويف لاأساس له من الحقيقة ،لكنى أعتقد أن الهندسة الوراثية للنبات هى هبة الله للفقراء والجوعى فى هذا العالم ،وتستخدمه الشركات عابرة القارات فى محاولة التحكم فى

غذاء الشعوب الفقيرة، والحل هو أن تقوم هذه الشعوب بتطوير كفاءتها لتصنع نباتاتها المهندسة وراثياً .

س:.......؟

توقعت منذ زمن طويل أن الإنسان سيستنسخ ،وحتى لوكانت ولادة «إيفا» غير حقيقية فإن الطبيب الإيطالى أنتينورى يعد العالم بولادة ستتم فى ظرف أسبوع أو نحو ذلك ،وهناك ثلاث ولادات أخرى فى الطريق!، إن معنى هذا فى واقع الأمر أن إستنساخ الإنسان سهل ،وهو كما سيتضح أكثر أماناً من الأغنام والأبقار، فهناك فى الحيوانات المستنسخة جين لايعمل، يتسبب تعطيله فى أن ينمو الجنين إلى حجم أكبر من الطبيعى فيجهض أو يموت بعد الولادة بقليل، وتسمى هذه «متلازمة النسل كبير الحجم»، هذه الظاهرة لاتظهر فى الإنسان ، ولقد قيل أن الطفلة «حواء» كانت نجاحاً من عشر محاولات ،أى أن نسبة النجاح هى ١٠٪ وقارن هذا بنسبة النجاح فى حالة دوللى (١ : ٢٧٧).

س:......؟

المشكلة الحقيقية فى إستنساخ البشر أنه سيزيد مايسمى ب «العبء الوراثى» للعشيرة البشرية، والعبء الوراثى هو كمية الطفرات السيئة الموجودة فى العشيرة ،كتلك التى تسبب الموت أو العقم، هذه الطفرات تتكفل طبيعتها بالتخلص منها حتى تصل العشيرة لإتزان معين، ومع الإستنساخ لن يموت الجين المطلوب

،وإنما سيتكاثر، سيزداد تكراره ويبقى، فإذا كنا سنستنسخ مثلاً من يحمل «جينات عقم »، فمعنى ذلك أنها ستبقى وسيولد «النسخ» هو الآخر عقيمًا، وكذلك الأمر مع باقى الطفرات المؤذية، فإذا كان للشذوذ الجنسى مثلاً جينات وتم إستنساخ المصابين فمعنى ذلك أننا نرفع من تكرارهم فى العشيرة البشرية ،لكن هذا تهويل للواقع فى الحقيقة فلو إفترضنا جدلاً أن قد سمح بالإستنساخ فى البشر، فإن هذا سيقتصر على أعداد محدودة، فالمؤكد أن التكاثر الطبيعى أفضل.

س:.........؟

أرى أن القانون القاضى بمنع الإستنساخ البشرى لابد أن يكون عالمياً ومن الأمم المتحدة، إذ يكفى أن ترفضه دولة واحدة الخضوع له ليتجه إليها كل من يريد الإستنساخ لتظهر «سياحة الإستنساخ»!!.

س:.......؟

أنا فى غاية الإحباط فمشروع إقامة معهد أو مركز لبحوث إستنساخ الحيوان قد تعطل لعدم وجود تمويل (٨ مليون جنيه فقط) ،كنت أود أن أبدأ مدرسة علمية مصرية فى الإستنساخ فى بداية هذا العام الجديد ليكون لدينا فى مصر منارة علمية، وحتى بعد أن وضعنا حجر الأساس مازلنا لم نتمكن من الحصول على التمويل الذى لايزيد على تكلفة مؤتمر كبير ،ولكن ماذا أقول ؟!!!.

س:.........؟

صدقنى.. الهندسة الوراثية هى أملنا الكبير وهى تمثل جزءاً كبيرًا من التقدم العلمى والزراعى فى بلادنا، فلنتجه إلى القمح والأرز والذرة والقطن ، لنحاول بالهندسة الوراثية فى بلادنا أن نرفع إنتاجها ،والنتائج فى الدول المتقدمة تقول أن معدل الزيادة سيكون كبيرًا جدًا، إن أعدادنا تتزايد والأرض الصالحة للزراعة تحتاج إلى نباتات خاصة محورة تتلاءم معها ،والمياه العذبة تشح ، لاأمل لنا إلا فى غزو الصحراء، فلنحاول بالهندسة الوراثية أن «نؤلف» نباتات ومحاصيل جديدة تتحمل الملوحة والجفاف والظروف المعاكسة بالصحراء ،الهندسة الوراثية هى أسرع دواء للعلاج، السرعة أصبحت أمرًا ضروريًا، لاوقت نضيعه مع الطرق التقليدية، لابد أن نمزج هذا بذاك لنكسب الوقت.

وتركت عالمنا الكبير بعد ذلك الحوار ونهايته المليئة بالشجن، فالرجل حزين على مستقبل مصر ويحتاج حلمه الوطنى الكبير لدخول هذا المستقبل إلى رقم متواضع يلهف عشرات أضعافه رجل أعمال من عينة الحيتان الجدد، فهل مازال يوجد فى هذا البلد من يسمع ومن يحلم أيضاً؟.

# ١٠ - الخرافة تحكم مصر

## مصر تنفق عشرة مليار جنيه سنوياً على الدجل والخرافة

الخرافة فى مصر هى بنت شرعية للعجز وقلة الحيلة، وعندما يفشل مجتمع فى تفسير ظواهر التغير وعوامل الخلل و«اللخبطة» و«اللخفنة» فيه فإن أبناءه يدقون بشدة على أبواب الخرافة والدجل لعلهم يجدون السبيل والحل والضوء فى نهاية النفق المعتم ،ولأننا بلد يزدرى العلم ويحتقر الإحصائيات ويمقت التحليل ويبالغ فى التواكل والفهلوة وقول ياباسط، فقد أعطينا العقل أجازة مفتوحة وأقمنا له سرادقاً بإتساع حدود هذا الوطن لنستقبل العزاء فيه، وعندما تسللت الخرافة وخرجت من رحم الطبقات الشعبية لتفض بكارة أهم مؤسساتنا الإجتماعية لم نحرك ساكنًا وإكتفينا بالفرجة، لم نندهش عندما صدر حكم محكمة الجيزة الإبتدائية للأحوال الشخصية بالطلاق لزوجه إدعت ان زوجها متزوج من «جنية» أو عفريتة دأبت على إزعاجها هى وأولادها وخاصة بعد أن حملت الجنية وخلفت من الزوج !، كده بسهولة برغم أن زوجات معدمات

تحفى أقدامهن للحصول على حكم طلاق مماثل بدون وجود منافسة من الجنيات ولكن بلافائدة، ولم نندهش أيضاً حين عرفنا أن زيارة أضرحة الأولياء أصبحت واجباً مقدساً لكبار القوم من الوزراء والسياسيين بل ورؤساء الجامعات !، ولم نفاجأ حين قرأنا أن أحد وُزراء الداخلية كان يستعين بشخص «أهطل» من الرجال البركة لكى يساعده فى إتخاذ قراراته المصيرية التى يتعلق بها مستقبل ومصير البلد، وأن هناك مسئولين كبارًا كانوا يحضرون روح زعيم سياسى لإستشارته وأخذ رأيه ٠٠٠الخ ،أى أننا ببساطة تبلدنا فى إستقبال مثل هذه الأمور لأنها صارت عادية بل ومحتفى بها لأنها دخلت فى النسيج الإجتماعى لمصر ملتصقة بكرات دمها الحمراء.

كشفت الدراسة التى أجراها المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية منذ فترة ومن خلال الأرقام أن ظواهر الدجل والخرافة والشعوذة قد إستقرت فى النخاع الإجتماعى كماذكرنا، والأرقام حقيقة فى غاية الرعب والفزع، ولو نشر مثل ماذكره الباحث محمد عبد العظيم فى هذه الدراسة فى أى بلد فى العالم لقامت الدنيا ولم تقعد ،ولكننا فى مصر نسينا القيام والقعود وأدمننا النوم، فالدراسة تقول أن نصف السيدات المصريات يعتقدن بالسحر والشعوذة ويترددن على الدجالين ،وأن عدد الدجالين فى مصر قد تزايد بصورة سرطانية لدرجة أنه يوجد فى مصر دجال لكل مائة

وعشرين مصرى ،وهناك ثلاثمائة ألف شخص فى مصر يدعون علاج المرضى بتحضير الأرواح، وعدداً مثلهم يزعمون العلاج بالقرآن والكتاب المقدس، إضافة لوجود أكثر من ربع مليون دجال يمارسون أنشطة الشعوذة فى مصر، أما الرقم المذهل فهو أن المصريين ينفقون نحو عشرة مليارات جنيه سنوياً على السحر والدجل.

ورصدت الدراسة نحو مائتين وأربعة وسبعين خرافة تتحكم فى سلوك المصريين ،وإحتلت العاصمة القاهرة المركز الأول فى عدد الدجالين، وإستأثر حى الشرابية بنسبة ثلث دجالى القاهرة ،يليه حى السيدة زينب ،ثم حى المطرية ،ثم حدائق القبة فشبرا ومصر القديمة والجمالية، وفى النهاية تأتى ضاحية مصر الجديدة بنسبة ٤٪، بينما تكاد تنعدم النسبة فى الزمالك وجاردن سيتى، ولكن مالم تذكره الدراسة أن عدم وجودهم فى الأحياء الأرستقراطية لايعنى أن الإنصياع للدجل والخرافة سلوك يخضع للتقسيم الطبقى، فالأرستقراطية مثلها مثل أبناء الهامش فى قبولها للخرافة ، ولكن أسلوب التعامل هو الذى يختلف ،وهذا يدل على أن الخرافة مرض مصرى متأصل وليس مرضاً مرتبطاً بالطبقات الشعبية فقط،فكما تؤكد د سامية خضر أستاذ الإجتماع أن ٣٨٪ من المثقفين والمشاهير فى الفن والرياضة والسياسة من زبائن السحرة والدجالين، أى أن الزمالك هى التى تنتقل إلى الدجال وليس العكس.

ومن المدينة إلى الريف حيث الخرافة كالماء والهواء ،يتنفسها الفلاحون ويشربونها ويتناسلونها، وقد رشحت الدراسة قرية «طناح» التى تبعد عن شمال القاهرة ١٥٠ كم ،لكى تحصل على أوسكار قرية الخرافات، وذلك لإزدهارها بصورة رهيبة هناك حيث تنتشر بكافة الصور من قراءة فنجان وعمل أحجبة وطرد أرواح شريرة وتداوى بالقرآن وفتح مندل ٠٠الخ ، وبها أغلى دجال فى مصر وهو الشيخ إبراهيم والذى تبلغ إستشارته ألف دولار!!، والذى يقول عنه الصحفى نبيل شرف الدين أنه لايستقبل سوى النجوم اللامعة وأثرياء الخليج ،وأحياناً تحط طائرات مروحية على سطح منزله وكأنه البيت الأبيض!، وبذلك تحول الدجل من مجرد عقيدة إلى بيزنس، ومن أوهام تدور فى تلافيف العقول إلى سطور فى ملفات قضايا ومحاضر شرطة ،فكما ذكرنا من قبل فى قضية الزواج من العفريتة، فإن الشرطة فى مطروح ماتزال هى أيضاً تبحث فى سر تعطل العربات عند قرية «حسميك»، وتؤكد أن التعطل والحوادث هى نتيجة طبيعية لأشباح البدو الذين إحترقوا فى حريق ضخم منذ أكثر من مائة عام، وغالبًا ماتلجأ للدجالين هناك لحل هذه المعضلات المرورية !.

إمتد سور الخرافة العظيم ليحيط بكل زوايا مجتمعنا، ولم يعد يفرق بين مستوى إجتماعى وآخر، وبين مدينة وريف، وأيضاً بين نميمة وإعلام !، فالإعلام الذى يخصص برنامجاً للعلاج بالأشكال

الهندسية ويروج لصاحبه المهندس فى برنامج شهير لدرجة أن الأمن المركزى يحيط بعد إذاعة البرنامج بمنزل هذا المهندس فى المعادى حتى يحميه من شدة الزحام، هذا الإعلام ماذا نقول عنه هل نسميه إعلاماً مستتيراً أم إعلاماً مغيباً ومزيفاً للعقول ومروجاً للخرافة؟!، هو للأسف الشديد إعلام يشمت فى العلم ويصفق عندما يفشل عالم فى إكتشاف شئ أكثر من إحتفائه بنفس العالم حين يصل إلى سر مستغلق ويحقق نصراً علمياً ، وحتى فى برامجه التى تدعى الربط بين العلم والإيمان يظل مقدم البرنامج يسخر من العلم ويؤكد على أن المخترع الحقير المغرور لن يصل إلى عظمة الله فى إفتعال لمشاجرة لاتوجد إلا فى ذهن مقدم البرنامج، إنها خرافة توزع مجاناً عبر الهوائيات والساتلايت، يستضاف فيها حامل دكتوراه يتحدث عن تأثير العجوة والتمر على مقاومة السحر بإنتشار اللون الأزرق فى الجسم ،ويشكو مطرب محبوب محسوب على المثقفين من أنه مطارد من إمرأة جنية ويعلنها فى برنامج فضائى على الملأ بدون أى إحساس بالخجل !، أما المصيبة والمأساة فهى البرنامج الفضائى الذى يناقش الطالع والأبراج والآخر الذى يفسر الأحلام ،وتصوروا إنها برامج على الهواء مباشرة ،إنها حقاً مأساة بالصوت والصورة أن يزيف التليفزيون الوعى ويغيب العقل ويسطح التفكير ويجند نفسه فى كتيبة الخرافة المقدسة.

وقد يقول قائل ويعنى إيه الضرر فى إنتشار شوية خرافات ،إيه اللى مضايقك، مش الأمور ماشية وخلاص ؟!، والمصيبة إن الأمور مش ماشية وخلاص ولكنها ساكنة إلى درجة التعفن ،وأن إنتشار الخرافة يكرس الكسل العقلى فلايجهد الإنسان نفسه فى فهم الظواهر ويعود إلى سيرة إنسان الكهف الأولى حين كان يفسر العواصف على أنها صوت الإله، والنهر على أنه دموع الحبيبة ...الخ، فيستسهل إرجاع الظواهر الإجتماعية إلى أسباب غيبية علشان يريح دماغه كماحدث من الشيخ الشعراوى عندما فسر هزيمتنا فى ١٩٦٧ بأنها عقاب من الله بسبب إبتعادنا عن طاعته، لدرجة أنه صلى لله شكراً بعد هذه الهزيمة لأننا لن نصبح شيوعيين والحمد لله، وبالطبع إبتعد عن التفسير العقلى السليم لأسباب الهزيمة من نقص تخطيط وعدم إستعداد ودكتاتورية وفساد فى قيادات الجيش ...الخ، ومن السهل أن تقول عن أى شئ عقاب من الله حتى تستريح وتركن إلى كسلك العقلى، كما يقول الأطباء المسلمون مثلاً عن سبب الإيدز، وذلك برغم أن البلهارسيا تنخر فى أكباد الفلاحين المصريين المسلمين اللى مايعرفوش الحرام ومافيش زيهم فى الإيمان والطيبة ،وبمثل هذه التفسيرات نختبئ وراء حصن أماننا الزائف وجهلنا المقيم، ونستريح عندما نقول أن الغرب كافر ومن المؤكد إن ربنا حيورينا فيهم يوم !.

لكن ماهو تعريف الخرافة ؟، ورد فى لسان العرب أن الخرف هو فساد العقل من الكبر، والخرافة هى الحديث المستملح من الكذب، وقالوا حديث خرافة، إن خرافة من بنى عذرة أو من جهينة إختطفته الجن ثم رجع إلى قومه، فكان يحدث بأحاديث ممارأى يعجب الناس منها، فكذبوه، فجرى على ألسنة الناس، وفى معجم أكسفورد معنى أكثر تحديدًا وهو أنها المعتقد غير العقلانى أو الذى لاأساس له، ويعرفها د. أحمد مرسى أستاذ الأدب الشعبى بأنها خوف أو خشية غير عقلانية من أو إعتقاد غير عقلانى فى شئ غير معروف، غامض أو متخيل أو إعتقاد غير يقينى أو محير أو عادة مريبة، وكل هذه التعبيرات تشير إلى الموقف العاطفى الذى يحكم الخرافة، ودائماً مانمنح الخرافة غطاء مبهراً فنسميها تارة حكمة القدماء ،وتارة أخرى علم التنجيم أو ننسبها إلى التراث الدينى كالحسد مثلاً ،الذى تأثر به حتى أصحاب النظرة العقلانية مثل إبن خلدون الذى كتب أنه شاهد بعض الناس إذا نظر إلى نعجة نظرة خاصة أماتها !!، ويعتقد المصريون أن الحسد يكون مؤثراً إذا كان مصحوباً بالشهيق، ويزعمون أن الحجاب يقى من العين، ولهم فى ذلك طرق كثيرة منها وضع قليل من الملح فى كيس يعلق فى رقبة الأطفال، وكذلك ناب الذئب أو ناب الضبع أو رأس الهدهد ..الخ، ومن أشهر الرقيات المكتوبة للحسد «بسم الله عظيم الشان، شديد البرهان ، ماشاء كان حابس حابس ،من حجر

يابس ، وشـهـاب قـابس ، اللهـم إنى رددت عـين العـائن عليـه، وعلى أحب الناس إليه، وفى كبـده وكليتيه، ولحـمـه ودمه، فـأرجع البصر، ٠٠٠الخ، وطرق الوقاية التى إخترعها المصريون للتغلب على الحسد غير الرقية كثيرة ومتعددة، منها خرم العروسة الورق بالدبابيس والبخور وخمسة وخميسة وغيرها من الخرافات.

بجانب الحسد توجد معتقدات مصرية كثيرة حاول تجميعها أساتذة الأدب الشعبى وأساتذة الإجتماع، منها الإعتقاد فى أن الجن يسكنون المقابر والبيوت المهجورة ويتشكلون بأشكال مختلفة أغلبها صورة قطط وكلاب ،ولذلك يتحاشى الناس ضرب هذه الحيوانات ليلاً، أما إعتقاد زواج الجن والإنس فهو متفشى بشكل سرطانى فى مصر لدرجة أن البعض أنشأ موقعاً للإنترنت وخصصه لعرض ومتابعة تلك الظاهرة، ويوجد بهذا الموقع فتاوى لكبار المشايخ بجواز هذا الزواج !!، ويعتقد الكثيرون أن الحذاء القديم الذى لابد أن يوجد فى الطريق بلاصاحب هو الدواء الناجع الناجح للوقاية من خطر الجنى !، وبمجرد مشوار قريب لزيارة بائعى البخور والروايح والكتب الدينية ستقرأ عناوين هذه الكتب الشهيرة والمكتسحة مثل «السر الربانى فى العلم الروحانى» «وشموس الأنوار وكنوز الأسفار»، و«البهجة اللماعة فى تسخير ملوك الجن فى الوقت والساعة»٠٠٠الخ، وهناك غير كتب الجن

كودية الزار التى تغلبت فى مصر على صالات الديسكو، فهى أيضاً الدواء الناجح للأسياد واللى راكبه عفريت واللى جتته مش خالصة، وكلمة السر دستور ياأسيادى، وهناك الأحجبة التى تستخدم فى أغراض كثيرة مثل الحماية من المرض، وإبطال تأثير العفاريت ،وإستمالة قلب المحب ،والنجاح فى العمل ٠٠٠الخ، وهناك الأعمال والربط الذى يسبب العجز الجنسى وهو بالمناسبة أكثر الوسائل إنتشارًا فى مصر للإنتقام من العريس السابق والخطيب الهربان والطليق المفترى والطاووس المتباهى بفحولته !.

ومن الزواج والجنس إلى الولادة وتربية الأطفال وهى من الأمور الحيوية فى حياتنا ،وهى أيضاً تكتنفها الخرافات مثل: لبس إبنك خلاخيل فى رجله تحفظه من العين، ووضع الكف على صدر العيل ،وتخريم الودن وتسميته شحات أو خيشة علشان يعيش، ودق المية فى الهون علشان يتكلم ، والواد يطلع لخاله ٠٠٠٠الخ، أما التوسل بالأولياء فيكفى قراءة كتاب الباحث الكبير الراحل سيد عويس عن الرسائل التى يرسلها المصريون للتوسل بالإمام الشافعى لمعرفة كيف يحل الشعب المصرى مشكلاته ؟، وأتساءل هل شعبنا معذور حقاً فى ذلك السلوك الذى يعوض به طناش الأحزاب وغياب السياسيين وقهر رجال الدين وهبر رجال الأعمال ؟، ومن الممكن أن يرد البعض علينا بأنهم فى الغرب أيضاً يمارسون الدجل والخرافة، ولكن إذا كان البعض يفعل ذلك هناك فهو من باب الترف الذى

لانتحمله نحن بظروفنا القاسية ،والمأساة أن الخرافة عندنا لم تعد خرافة أفراد مثلهم وإنما أصبحت تياراً عاماً كاسحاً وعاصفاً يزلزل المجتمع من اساسه، فهل نفيق من الغيبوبة أم أن العقل عندنا كالزائدة الدودية تكون مفيدة فقط عند إزالتها بالجراحة!.

# ١١ - قنبلة علمية جديدة.. ولد أو بنت تفصيل حسب الطلب..

**تحديد جنس الجنين قبل الولادة يثير أزمة علمية ودينية**

كانت بودابست عاصمة المجر محط الأنظار العلمية عام٢٠٠٣ ، فقد فجر الدكتور أندريه تشيزيل المدير السابق لمكتب منظمة الصحة بالمجر ورئيس قسم الوراثة بمعهدها القومى قنبلة علمية خطيرة هزت أركان المجتمع عندما أعلن عن توصله لتحديد جنس الجنين قبل الولادة من خلال عملية التلقيح الصناعى، وطلب من المسئولين فى المجر السماح له بممارسة هذا الإجراء، وقال «إن تحديد جنس الطفل قبل الولادة من الممكن أن يزيد معدل الولادات بنسبة ٢٠٪» ، وأكد هذا الطبيب أنه يستقبل كل أسبوع عشرات الأزواج الذين يرغبون فى طفلة بعد أن رزقوا بمولودين من الذكور أو العكس ،وسيشجع هذا الإجراء إقبال الآباء والأمهات على إنجاب طفل جديد إذا ضمنوا أنه سيكون من الجنس الآخر، ويشكو د. تشيزيل من أن لديه ألف ومائتى طلب لكنه لايستطيع تلبيتهم نظرًا لأن القانون المجرى يجرم ذلك التحديد المسبق، وقد تمكن هذا

الطبيب من تطوير تقنية تستخدم فى أستراليا لإنتقاء الحيوانات المنوية وفقاً لكروموسوماتها أو مادتها الوراثية المحددة للذكر أو الأنثى، ويعتقد تشيزيل أن هذا الإجراء سيحل مشكلة إنخفاض معدل المواليد الذى تعانى منه المجر ومعظم دول الإتحاد الأوروبى والتى تتدنى بمقدار ٣٠ ألف ولادة سنويًا، وقد عارضته بشدة الكنيسة الكاثوليكية والتى تتمتع بنفوذ قوى فى المجر، قالت على لسان أسقفها أندريه جيولاى «كيف يمكن للبشر أن ينتقوا جنس الطفل قبل مولده، إنها جريمة فى حق الرب»، ويؤكد على نفس المعنى خبير الوراثة د. جابور يوفالوسى «إننا لانستطيع أن نحل مكان الخالق»، وهذه الإعتراضات تنطلق من مفهوم راسخ فى بعض العقول وهو أن العلاج تدخل فى مشيئة الله، ويقف فى مواجهته مفهوم آخر وهو أن العلاج تنفيذ لمشيئة الله فى رحمته بعباده.

يبحث الإنسان منذ زمن بعيد عن وسيلة للتنبؤ بجنس الجنين والتحكم فيه منذ لحظة الإخصاب ،والفولكلور الشعبى ملئ بالقصص والروايات عن هذه الرغبة الجارفة، وهذه الرغبة لم يشف غليلها جهاز السونار أو الفحص بالموجات فوق الصوتية لأن الأب أو الأم كلاهما لايريد لحظة الإكتشاف على شاشة السونار فقط برغم أهميتها ،ولكنه يريد لحظة التحكم على شاشة الحلم نفسه، يريد الرجل العربى على سبيل المثال أن يصنع ذكراً وأن يشكله وهو مازال فكرة فى تلافيف الدماغ ورسالة فى كهرباء المخ وأمنية فى شغاف القلب، وبالطبع يريد نفس الرجل إبن الثقافة

العربية أن يقوم بعملية وأد تكنولوجية قبل الولادة ، فإغتيال الحلم فى ثنايا الروح أسهل من إغتيال الجسد الطرى فى فراش المهد!.

ورحلة فولكلور تحديد جنس المولود يختلط فيها التمنى بالدجل والحلم بالكابوس والواقع بالخرافة، وكان الصينيون والفراعنة هم أول من إهتم بمسألة تحديد جنس الجنين، فقد ناقشتها بردية فرعونية من ٢٢٠٠ سنة قبل الميلاد ،أما آباء الفلسفة الإغريق فقد شطح بهم الخيال إلى أبعد آفاقه ،فهاهو الفيلسوف أناكساجوراس يؤكد على أنه إذا مارس الزوج الجنس مع زوجته وهو مضطجع على جنبه الأيمن فالمولود حتماً ذكر ،لأنه وعلى حسب تصوره إستنتج أن الحيوانات المنوية المخصبة للبويضة إذا.وصلت من الخصية اليمنى فهى سر الذكورة، والمدهش أن وصية هذا الفيلسوف الإغريقى بربط الخصية اليسرى قد طبقها أحد النبلاء الفرنسيين فى القرن الثامن عشر حين قام بإخصاء النصف الأيسر كى يتخلص من كابوس ولادة الأنثى !!، ولم يقتصر الأمر على هذا الفيلسوف فقط ،فقد وضع الفلاسفة الإغريق أكثر من ٢٦٢ إفتراضاً فى كيفية التحكم فى جنس المولود، فمثلاً ينصح أرسطو بعلاقات جنسية فى الهواء الطلق عند مهب رياح الشمال للحصول على طفل ذكر، وفى مهب ريح الجنوب للحصول على بنت لأن ريح الجنوب من وجهة نظره ترخى الأبدان وتذيب الزرع فيخرج رقيقاً غير ناضج ،ويتابع أبو الفلسفة الإغريقية فرضياته فيقول «وإن

حسن لون المرأة الحامل فإن ذلك يدل على أن الجنين ذكر وإن قبح لونها فإنه يدل على أنها انثى»، وبذلك يتناقض أرسطو مع منطق جدتنا الريفية والتى تقول العكس وتضيف إليه شكل البطن المدببة أو المكورة ،وإحقاقاً للحق فإن جدتنا لم تنفرد بهذا السبق وحدها ولكن سبقها أبقراط الذى قال « إن وجدت المرأة ثقلاً فى الجانب الأيمن من الرحم وكانت حركتها وحركة عينها اليمنى أثقل فهذا دليل على أن المولود ذكر، وإذا دعوت إمرأة حامل لتمشى فرفعت قدمها اليمنى أولاً فالمولود ذكر، وإن رفعت اليسرى فالمولود أنثى » !!.

من الحرارة والبرودة وإتجاه الرياح وحركة السير إلى توقيت الجماع الذى إهتم به فيلسوف آخر هو «أمبيدوكل» والذى إعتمد على الدورة الشهرية كعامل من عوامل تحديد جنس المولود فقد أكد على ضرورة ممارسة العلاقة الجنسية بعد الدورة الشهرية مباشرة للحصول على أنثى، ومن عنصر التوقيت لعنصر الغذاء والذى أولاه البعض إهتماماً كبيرًا فرفعوا شعار «تحكم فى جنس أولادك بالتحكم فى طعامك»، وراجت وصفات السحرة والكهان والتى مازالت تستخدم حتى الآن فى أعماق الريف الأوروبى وأشهرها أكل أمعاء الأرنب وخصيته والتى إعتقدوا أنها تجلب الصبيان، والمدهش أنه فى أمريكا حتى أوائل الستينات ساد إعتقاد بين الأمهات الحوامل بأن التى تريد إنجاب الذكور عليها أن تضيف إلى غذائها كربونات الصوديوم.

وإذا كان الغذاء قد تم تنصيبه على عرش الذكورة والأنوثة، فإن الجوع أيضاً قد نال نفس الشرف، فالبعض أرجع زيادة المواليد الذكور بعد حروب معينة إلى الجوع والحرمان، ولكن هذا الإفتراض تحطم بعد أن أظهرت الإحصائيات أنه بعد الحرب العالمية الثانية زادت نسبة المواليد الإناث، وزادت الحيرة وزاد معها عناد الباحثين.

إهتم التراث العربى والشرقى بمسألة تحديد جنس الجنين كما إهتم بها الغرب، وربما أكثر لأن البحث عن الذكر الوريث العزوة هو للأسف تراث عربى صميم وحلم كل أب وأم من المحيط إلى الخليج، وكتب التراث العربى فيها الكثير ، منها كتاب الطبرى «فردوس الحكمة " *الذى رفض فيه آراء أبقراط وأرسطو السابقة،* وكتاب» تحفة المودود بأحكام المولود» والذى أورد فيه حديثاً شريفاً يتناول تلك المسألة فقال «جاء يهودى إلى رسول الله ـ صلعم ـ قائلاً: جئت أسألك عن الولد، قال: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا إجتمعا وعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله، وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنث بإذن الله تعالى ،فقال اليهودى لقد صدقت وإنك لنبى».

ولنترك ساحة الفولكلور لندلف إلى محراب العلم ،فحلم تشكيل جنس الجنين تسلل إلى مدرجات المعامل وتجول فى أنابيب الإختبار وقارورات القياس منذ نهاية الستينات، وقبل أن نعرف كيف يشكلون جنس الجنين فى المعامل لابد من التعرف على كيف يتشكل هذا الجنس فى الرحم أولاً ؟، فالإنسان أو الثدييات عامة

يتحدد جنسها الوراثى منذ لحظة الإخصاب وفقاً للحيوان المنوى والذى يحمل واحدًا من الكروموسومات الجنسية إما إكس أو واى ،والأنثى تتحدد عندما يلتقى الحيوان المنوى الحامل لإكس مع البويضة، أما الذكر فهو نتيجة لقاء الحيوان المنوى واى مع البويضة، وعلى من يريد التحكم فى جنس الجنين عليه أولاً أن يحدد ويصنف ويفرز ويفصل الحيوان المنوى واى عن إكس ،وكان هذا هو مفتاح اللغز الذى قال عنه د. موريس أوروكس رئيس قسم الولادة بمستشفى بيستر «إن إختيار جنس الأطفال قد يصبح إحدى الثورات البيولوجية الكبرى فى القرن الحادى والعشرين».

كانت البداية حين توصل الطبيب الأمريكى لاندروم شيتلس إلى ملاحظة هامة بعد فحص الحيوانات المنوية بالميكروسكوب حيث وجد أن منها ماهو برأس صغيرة مستديرة وماهو برأس كبيرة تشبه كرة الرجبى ،وبما أن الكروموسوم واى أصغر من إكس فقد إفترض أن ذوات الرؤوس الصغيرة هى التى تحمل واى ،ثم عمق شيتلس نظريته بدراسة تأثير حامضية وقلوية بيئة الرحم على هذه الحيوانات المنوية فوجد أن التى تحمل واى هى المسيطرة فى الوسط القلوى، وبماأنه عند إقتراب التبويض فى المرأة تزيد نسبة القلوية فإن إفتراض الحصول على مولود ذكر متوفر بقوة لو حدث اللقاء الجنسى خلال تلك الفترة ،ولكن هذه المقامرة العلمية لم تصف الدكتور شيتلس فى حالات كثيرة فبدأ البحث عن أساليب أخرى .

إنتقلت دفة الأبحاث من أمريكا إلى فرنسا حيث رفض د ستولكوفسكى حكاية القلوية والحامضية، وقال إن مايقرر جنس الجنين هو تفاعل بعض الأيونات مثل البوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم والماغنسيوم مع سطح البويضة، ولذلك نصح من يريد الذكور بنظام غذائى غنى بالعنصرين الأول والثانى، والباقى لمن يبغى الإناث وعلى من يرغب فى هذا إتباع جدوله الغذائى قبل الحمل بشهرين ونصف، ويقال أن هذا الجدول نجح بنسبة ٨٠٪ ،ولكن لأن العلم لايعترف بالصدفة فقد لجأ العلماء لما يسمى بفرز الحيوانات المنوية وهى الطريقة التى طورها الطبيب المجرى الذى فجر القنبلة هذا الإسبوع ،وقد بدأت عملية الفرز إعتماداً على الكتلة والوزن وبواسطة جهاز الطرد المركزى، والذى عن طريقه تفصل الحيوانات المنوية التى تحمل إكس ولأنها الأثقل فهى تنزل إلى الأسفل ويصعد الأخف وهو الواى ،ولكن هذه الطريقة لم تشف غليل العلماء فلجأوا إلى الفصل عن طريق الشحنة الكهربية على إفتراض أن من يحمل الإكس سالب الشحنة والعكس صحيح، ولكن هذه الطريقة فشلت فلجأوا إلى الفصل والفرز إعتماداً على سرعة الحركة فالأخف حركة وهو حامل الواى هو الذى يفوز فى السباق ، وقد تخصص فى هذه الطريقة الطبيب الإنجليزى بيتر ليو والذى إفتتح مؤسسة خاصة للتحكم فى جنس المولود فى إحدى ضواحى لندن ولكن نتائجه ظلت غير مبشرة.

أما الثورة الكبرى فى هذا المجال فقد حدثت على يدى الطبيب الأمريكى لارى جونسون وأساسها العلمى يقوم على فرز الحيوانات المنوية تبعاً للكمية التى تحملها من ال D.N.A وهى مادة الوراثة الأساسية فى الإنسان ،وإستطاع هذا العالم تحديدها بواسطة الصبغة الإشعاعية للحيوانات المنوية والتى تعطى إشعاعاً أكبر فى حالة إكس والعكس صحيح ،وتعتبر هذه الطريقة هى أكثر الطرق نجاحاً غير أن العلماء ظلوا يحاولون التغلب على عيبها الأساسى وهو البطء والتكلفة الباهظة مدة طويلة حتى جاء البروفيسور المجرى بتقنياته الجديدة ،ويكفى أن نعرف أن الطريقة القديمة لفرز مليون حيوان منوى كانت تستغرق ثلاث ساعات ،ولو عرفنا أن الكمية التى يقذفها الرجل فى المرة الواحدة تساوى خمس أضعاف سكان مصر لتخيلنا طول المدة التى سيستغرقها الفرز!.

السؤال الذى أعرف أنه يدور فى أذهان الجميع هو ومالفائدة التى ستعود على المجتمع من هذه المحاولات العلمية البهلوانية ؟، بالطبع لايطمح العلماء إلى زيادة عدد المواليد فقط كما فى حالة الطبيب المجرى!، ولكن من المؤكد أن هناك أسباباً منطقية وراء هذه الجهود العلمية، وأعتقد أن من أهمها الطموح إلى منع الأمراض الوراثية الخطيرة المرتبطة بجنس الجنين ومنأكثرها وأخطرها من الظهور والتكرار، وأقرب الأمثلة على ذلك هو مرض الهيموفيليا وهو نزف الدم الوراثى الذى ينتج عن فقدان أحد عوامل تجلط الدم، وهو مرض ينتقل وراثياً عن طريق الأمهات ولكنه لايصيب

إلا الذكــور، أى أن المـرأة تحـمــل الجين المشـــوه ولكنها لاتنقـله إلا لأبنائها من الذكور ،وهذا المرض بالذات لو كانت قد نجحت تجارب الطبيب المجرى فى منعه قديماً ماكان قد ظهر الشيطان الروسى راسبوتين!، فقوة وسيطرة راسبوتين ترجع إلى هذا الجين المختل الذى ظهر أولاً فى الملكة فيكتوريا عميدة العائلة المالكة البريطانية، ونقلته إلى بناتها الأميرة بياتريس التى إبتلى إثنان من أولادها بالمرض ،والأميرة أليس الإبنة الثالثة للملكة فيكتوريا والتى نقلت المرض إلى إبن قيصر روسيا نيقولا الثانى عن طريق زوجته ألكسندرا، وبسبب نزف الدم الذى إبتلى به إبنهما إليكس خضع القيصر وزوجته لسيطرة راسبوتين بأمل أن يتمكن هذا الشيطان من شفاء الإبن، وهكذا يتحكم علم الوراثة فى مسيرة التاريخ، ولكن من السلبيات الكبرى لهذه التجارب مايمكن أن نطلق عليه وأد البنات بالطريقة العلمية، فالهند على سبيل المثال بها ٢٥٨ مركزاً متخصصاً فى الإجهاض وبالطبع إجهاض البنات التى يعتبرونها نحساً لأنها تسبب خراباً للأسر الهندية فهى التى تدفع المهر!، ولو نجحت تجارب تحديد جنس الجنين فحتماً سيتم القضاء على تاء التأنيث هناك ،وهكذا التقدم العلمى فى صراع دائم مع العادات والتقاليد والخرافات الإجتماعية ،فهل سينجح العلم فى تحقيق حلم صنع الجنين حسب الكتالوج أو تفصيله طبقاً للباترون، والإفلات من تهمة الخروج على الدين والقانون ؟،ماعلينا إلا أن ننتظر حتى يحسم الصراع.



# ١٢ - فتاوى الموبايل وشفط الدهون!

هستيريا طلب الفتاوى فى مصر أصبحت ظاهرة تسترعى الإنتباه وتستدعى التحليل، ففى يوم الخميس قرأت عدد إثنين فتوى من النوع التلكيكى الذى ذكرنى بفتاوى زواج الجن ونجاسة دم البرغوث وقربة الفساء التى كان القدماء يتندرون بها،الفتوى الأولى كانت فى جريدة الجمهورية عن مدى شرعية الموبايل أبو كاميرا وهل هو حلال أم حرام؟، والفتوى الثانية كانت فى جريدة صوت الأزهر وإحتلت معظم الصفحة الثالثة وكانت عن عملية شفط الدهون ومدى إتفاقها مع الإسلام !! ، وإن عبرت هذه النوعية من الفتاوى عن شئ فهى تعبر عن مدى الفراغ والسطحية والرغبة فى أن نتطهر أخلاقياً بالفتاوى الشكلية فى مجتمع أصبحت لاأخلاقيته تزيد وتتضخم يوماً بعد يوم، والمسألة ليست عابرة ولم تقتصر على يوم الخميس فقد أصبحت أبواب الفتاوى فى جميع الجرائد وجبة شبه يومية، وبمجرد أن تفتح قناة تليفزيونية فضائية أو أرضية ستجد شيخاً بجبة وقفطان أو داعية مودرن ببدلة وكرافتة أو شيخة بخمار وماتيسر من الماكياج يتلقون التليفونات

التى تطلب فتاوى الحلال والحرام فى مسائل بعيدة كل البعد عن أن تقاس بهذه المقاييس، فهناك من يسأل عن قضاء الحاجة فى إتجاه القبلة وعن البنطلون الجينز وهل هو حلال أم حرام ؟، وهناك من تسأل عن جواز خلع الملابس أمام الكلب الذكر !، وهل الأذن والحواجب عورة ؟!...الخ، وصار المجتمع كله يمارس الورع الزائف، وإبتعد الدين عن كونه ضمير جماعى مستيقظ وتحول إلى طقوس شكلية فردية يتعلق الناس بأهدابها ويتخيلون أنها هى الطريق إلى الجنة، والأخطر أن ممارسة هذه الفتاوى صارت بيزنس وسبوبة للمشايخ تدفع فيها الريالات والدولارات ،ولابد أن يختلف هذا الشيخ مع ذلك الداعية بفتاوى حراقة حتى يظل مطلوباً فى الفضائيات والأرضيات والعزومات والكوكتيلات والعقيقات ويبنى الشاليهات والمنتجعات، وليذهب العقل الذى أمرنا الإسلام بإتباعه ليذهب إلى الجحيم ،وأنا أعذر المجتمع فالسياسيون وأهل الحل والعقد فيه يستخدمون السلطة الدينية كمحلل و يحيلون القوانين الإقتصادية والسياسية إلى المشايخ حتى يحصلون على البركة ومسوغات التنفيذ الإجبارى لهذه القوانين ويأخذون الختم الشرعى حتى وإن خالفت مصلحة الناس، وإلا فمادخل الشيوخ بقانون زرع الأعضاء وبقانون الإيجارات وبقانون البنوك ؟، وهم مالهم ومال تحليل وتحريم التعامل مع مجلس الحكم العراقى ؟!، ومالهم ومال الفيديو كليب ومسابقة ملكات الجمال

والفوازير والزيروتسعماية؟، إننا لانعيش فى مجتمع كهنوتى حتى نطلب صكوك الغفران، ولايمكن أن نظل مرتعشين عند ممارسة أى سلوك ونهرع إلى طلب الفتوى فى أمره، حتى ولو كان طلب تليفون أو شفط دهون أو مشاهدة تليفزيون وإلا فلنطالب بمفتى لكل مواطن وجهاز إفتاء على كل بطاقة تموين !.



# ١٣ - زغلول النجار وحديث الذبابة

الدكتور زغلول النجار واحد من نجوم هذا عصر الملخبط الذين هبطوا علينا ببراشوت الإعجاز العلمى بدون سابق إنذار،وبنفس السرعة التى ظهر بها شعبان عبد الرحيم واللمبى والكابتن إبراهيم سعيد إقتحم حياتنا فجأة الدكتور زغلول، وبسرعة الفيمتوثانية إحتل الدكتور صفحة أسبوعية كاملة من الأهرام أهم صحيفة عربية وهى نفس الجريدة التى يأخذ فيها جابر عصفور وأحمد عبد المعطى حجازى وغيرهم من قامات الفكر العملاقة ثلث صفحة بالكاد ولله فى خلقه شئون !،والرجل يعمل فى أفضل تجارة وأكثرها أماناً وهى تجارة الإعجاز العلمى التى تعتمد على فكرة بسيطة جداً وهى أن تراقب مايفعله الغرب وينجزه من تقدم علمى وماعليك إلا أن تستخرج آية أو حديث لتؤكد بعدها أن هذا الغرب أهطل وأهبل وإحنا عندنا كل حاجة قبلهم بقرون طويلة وإحنا الأجدع وإحنا الأفضل، وبالطبع يجد هذا الكلام صدى عند العامة ممن يحسون بالدونية الشديدة تجاه الغرب مما يولد لديهم إحساس بالشماتة والتربص لهؤلاء الكفرة من وجهة نظرهم،

وللأسف لم يفعل الدكتور زغلول العكس أبداً ويكتشف لنا نظرية علمية من خلال القرآن قبل إكتشافها فى الغرب، ولكنه يكتفى فقط بعبارة "كنت حأقولها»!!، وقد حذرت الدكتورة بنت الشاطئ من هذا المنهج فى التفكير ومحاولة إصطياد آيات وأحاديث ولوى أعناقها للقول بأن داخلها نظريات علمية، ورأت فى هذا النهج خطراً كبيراً على الدين الإسلامى الحنيف العقلانى وهاجمت بسببه مصطفى محمود هجوماً حاداً وقاسياً، وللأسف تحول الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة إلى بيزنس ديناصورى رهيب له مؤسسات ومؤتمرات ومريدون وميزانيات فلكية، كلها تريد أن تجعل من القرآن كتاباً فى الفيزياء أو الكيمياء، وتريد أن تتاجر بالدين لأغراض الشو والإستعراض وتعويض مركبات نقص مجتمعاتهم المتخلفة ودغدغة عواطفها.

القنبلة الفكرية التى أطلقها الدكتور زغلول النجار فى ١١ نوفمبر ٢٠٠٣ فى جريدة الأهرام صفحة ٢٢ كانت أقوى من إحتمالى ولاتحتمل السكوت ،فقد تحدث عن حديث الذبابة وجعل منه كشفاً علمياً وفتحاً بيولوجياً على الغرب الجاهل أن يحلله ويفتح معامله لإستقباله والإحتفاء به، والحديث يقول «إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى إحدى جناحيه داء وفى الأخرى شفاء»، ويعلق قائلاً أنه من الناحية العلمية ثبت أن الذباب يتغذى على النفايات والمواد العضوية المتعفنة حيث تنتشر الفيروسات والبكتيريا والجراثيم ولكى ينفرد ربنا بالوحدانية

خلق كل شئ فى زوجية واضحة فخلق البكتيريا وأضدادها وقد أعطى الله للذباب القدرة على حمل الفيروسات والبكتيريا على جناح والمضادات على جناح، وأكد الدكتور زغلول على أن مجموعات من أبحاث المسلمين قامت بإجراء أبحاث على أنواع مختلفة من الأشربة وغمست الذباب فى بعضها ولم يغمس فى الباقى وعند الفحص المجهرى إتضح أن الأشربة التى غمس فيها الذباب خالية من كل الجراثيم المسببة للمرض !!.

معقول أن يكتب مثل هذا الكلام فى أكبر جريدة مصرية وفى وقت يتعرض فيه الإسلام لأبشع الإتهامات، الحديث ببساطة من الممكن أن يؤخذ على إنه نتاج زمانه وبيئته البدوية، لكن أن يتحول الحديث إلى نظرية علمية من ينكرها فهو كافر فهذا هو مايستدعى الرد وبقوة وحسم، فلايوجد أى مرجع علمى فى العالم يستطيع أن يقول هذا الكلام الذى يردده الدكتور زغلول وأتحداه أن يقول لنا إسم المرجع أو المجلة العلمية التى ذكرت هذه التجربة التخريفية التى لايمكن أن تجرى فى معمل علمى محترم ولكن من الممكن أن تجرى فى غرزة تحت تأثير الدخان الأزرق !، ولابد أن يذكر لنا الدكتور زغلول مرجعه العلمى وإلا إندرج كلامه تحت بند النصب العلنى على عقول البسطاء ،فالمسألة أصبحت سهلة جداً ،مجرد أن تقول ثبت علمياً مش عارف إزاى؟، أو تقول إسم عالم أجنبى ماحدش عارفه هو مين حد حيدور وراك ! وبعدين تروح

قايل تجربة علمية وتأكد بعدها إنك حتوصل وتصبح من أئمة الإعجاز العلمى وتقبض بالريال والدولار واليورو كمان .

صدقونى أكبر ضرر على الإسلام أن يروج لمثل هذا الكلام، وأكبر خدمة لديننا الحنيف هو تنقيته من مثل هذه الأحاديث ووضعها فى مكانها وحجمها الصحيح ،والغرب لم يتقدم إلا بقراءة الواقع أولاً وليس بلوى عنق الواقع حتى يستجيب للنص، هم تقدموا لأنهم إستخدموا المنهج العلمى فى التفكير وليس المنهج التخريفى فى التفشير!، ومادام الدكتور زغلول بهذه العبقرية لماذا لم ينشئ لنا مصنعاً إسلامياً لإستخراج المضادات الحيوية من أجنحة الذباب ؟ أم هو محتار أى جناح اليمين أم الشمال هو الذى سيفرز المضاد وهذا مايجعله يؤجل مشروعه العبقرى ؟!، يادكتور زغلول أنت وأمثالك حرام عليكم تغييب وإهانة للعقل فقطار التقدم والحضارة ترك محطتنا منذ زمن طويل ونحن لانستطيع اللحاق حتى بالسبنسة ،هم يتكلمون عن العلاج بالهندسة الوراثية ونحن نتحدث عن العلاج بأجنحة الذباب ،وهذا هو الفرق بيننا وبينهم ،وهذا ماسيجعلنا من الشعوب المنقرضة التى تحلم بالسبنسة ولن تلحق بها أبداً لأنها خارج الزمان والمكان.

# ١٤ - حكاية ال DNA من ملابس مونيكا الداخلية حتى شعر صدام حسين!

كل من شاهد الطبيب الأمريكى وهو يفحص شعر صدام حسين حين أسره الأمريكان تخيل أنه ينظفه من الحشرات أو «يفليه»، وكل من رأى على القنوات الفضائية فم صدام مفتوحاً على مصراعيه يستقبل خافض اللسان بكل ترحاب إعتقد أنه يفحص اللوز !،كانت عملية الفحص والتقليب والتفعيص والدعبسة من أجل الحصول على كلمة السر ومفتاح اللغز ،إنه ال DNA الذى هو سر الحياة وليس سر صدام فقط، والذى يعتبر الجهل به نوعًا من الأمية الجديدة التى لم تعد الآن الأمية الأبجدية ولاحتى أمية الكمبيوتر بل أصبحت أمية هذه الشفرة الوراثية المدهشة.

تأجل إعلان القبض على صدام حسين والتأكيد على نجاح عملية أسره فى القبو التكريتى إلى حين التأكد من مطابقة ال DNA المستخلص من الأسير صدام المشكوك فى أمره بال DNA الذى أخذه الأمريكان من صدام فى السابق عندما كان الأمريكان يمرحون فى العراق كحلفاء يمدون عميلهم حاكم بلاد الرافدين

بأحدث أسلحة الدمار الشامل من كيماوى وغيره ليضرب الخصم الإيرانى العنيد ،كان من السهل على الأمريكان أن يحتفظوا بشفرة صدام الوراثية بكل سهولة ،وكانت الطرق التى تخيلها المحللون وقيلت على ألسنة معامل المخابرات الأمريكية كثيرة ومتعددة فمنها الأكواب التى كان يشرب منها صدام ومنها فرشاة الأسنان التى كان يستعملها أو المشط الذى يصفف به شعره، وهناك عقب السيجار الكوبى الفاخر الذى كان يدخنه بشراهة والذى من خلال اللعاب المتعلق به يمكن الكشف عن هذه الشفرة وهذه الطريقة هى التى يؤكد عليها الكثيرون من الخبراء، وهناك غير ذلك تحليل البول وهى نفس الطريقة التى إستخدمها الموساد فى حفظ شفرة حافظ الأسد الوراثية أو طريقة تحليل البصاق أو الدم أو السائل المنوى أو العظام أو خصلة الشعر بشرط أن تكون فيها البصيلة....الخ، وهى كلها طرق تعتمد على قراءة هذه المادة الوراثية المدهشة التى تميز كل فرد فى هذا الكون والتى لايمكن أن تتشابه إلا فى التوائم المتطابقة أو لو أردنا الدقة فهى من الممكن أن تتكرر بنسبة واحد فى المليون مليون مليون وبماأننا ستة الآف مليون نسمة تقريباً على ظهر الكرة الأرضية فالتكرار مستحيل،وهذه المادة الوراثية التى تشكل كياننا وصفاتنا وهويتنا لايزيد وزنها على ستة من مليون مليون من الجرام ،وبماأن كل فرد منا ينشأ من خلية واحدة تسمى الزيجوت وهى ناتج إلتقاء الحيوان المنوى بالبويضة ثم يتضاعف ال DNA فى الخلايا لتصبح حوالى ستين ألف بليون خلية ،وإذا

جمعنا كل ال DNA للستة بلايين إنسان فإن وزنه لن يزيد عن ٣٦ ملليجراماً !!، تخيلوا مادة بهذه الضآلة تتحكم فى مصائرنا وترسم خريطة أحلامنا ومستقبلنا وتثبت هويتنا، إنها ببساطة بصمة الحياة ولغزه فى نفس الوقت.

بنفس طريقة تثبيت «الباركود» على البضاعة فى السوبر ماركت تم تثبيت الباركود أو الشفرة الوراثية لصدام حسين على أجهزة كمبيوتر السى آى إيه ،وكان إعلان الجنرال تومى فرانكس فى منتصف إبريل الماضى أمام شاشات ال CNN أنهم يملكون ال DNA لصدام وولديه عدى وقصى إعلاناً مدهشاً ومثيراً وهو يقول بثقة «هو سيظل حياً إلى أن أعلن لكم أنه قد مات أو يعلن الطب الشرعى الأمريكى من خلال ال DNA أنه قد قتل! »، وكانت هذه الكلمات فى غاية الأهمية لبث الطمأنينة فى قلب الأمريكان بعد اللخبطة التى حدثت فى السابع من أبريل حين أعلن عن موت صدام وولديه فى تفجير حى المنصور ببغداد بقنبلة ال ٢٠٠٠ رطل وثبت بعد ذلك أنها مجرد إشاعة ناتجة عن خلط التمنيات بالواقع، وقد تحدث بعدها خبير الطب الشرعى كوبيلنسكى إلى الواشنطن بوست حديثاً هاماً شرح فيه عملية تحديد الهوية التى قامت بها القوات الأمريكية بالتفصيل، ومن ضمن النقاط الهامة التى ذكرها هذا الخبير الشهير :

أن العلماء الأمريكان إستخدموا فى المقارنة أيضاً DNA الخاص ببرزان التكريتى الأخ غير الشقيق لصدام من الأم، وبما أن

الأخ من الأم فهو يحمل تشابهاً فى نصف الجينات، ولكن الأهم هو دراسة مصدر الطاقة فى الخلية والتى تسمى الميتوكوندريا والتى تورث من خلال الأم فقط ومقارنتها بين الأخين صدام وبرزان.

تعرض كل فرد مقبوض عليه من عائلة صدام لعملية تحديد بصمته الوراثية حتى يتم التأكد تماماً بنسبة ١٠٠٪ من التطابق.

يتم نقل العينات إلى معمل AFIDL وهو إختصار الأحرف الأولى

من Armed Forces DNA Identification Laboratory ، والمهم أنه قد ذكر فى حديثه نقطة هامة عن المدة التى يستغرقها تحليل العينة، فالعينة المأخوذة من العظام أو الشعر تستغرق مدة أطول من كرات الدم البيضاء ،والمادة المأخوذة من العينة تحدد وتحلل فى حوالى يومين، وإذا إعتمدنا على إختبار الميتوكوندريا فستستغرق العملية من أسبوع إلى إسبوعين مما يجعلنا نتشكك فى مدة النصف يوم التى ذكرها الأمريكان بعد إعتقال صدام حسين، ويقودنا إلى نتيجة أنه تم القبض عليه قبل تلك المدة أو ذلك الوقت الذى أعلنوه.

عندما سأله محاوره عن إشاعة أن صدام إستنسخ نفسه من خلال ال DNA رد كوبيلنسكى قائلاً حتى ولو كان ذلك صحيحاً فإن نسخة صدام ليست بالضرورة شخصية دموية ومن الممكن جداً أن تصبح لطيفة وودودة !!.

البصمة الوراثية لم يكن أحد يعرفها حتى ١٩٨٤ حينما نشر دكتور إليك جيفريز عالم الوراثة بجامعة ليستر بلندن بحثاً أوضح فيه أن المادة الوراثية قد تتكرر عدة مرات وتعيد نفسها فى تتابعات عشوائية ،وبعد عام واحد إكتشف جيفريز أن هذه التتابعات مميزة لكل فرد ولايمكن أن تتشابه إلا كماذكرنا فى التوائم المتطابقة, وال DNA مادتنا الوراثية تتشكل فى صورة لولب مزدوج من جديلتين أو ضفيرتين ،كل واحدة من الجديلتين تتكون من سلسلة طويلة مؤلفة من تتابع أربع قواعد كيماوية يرمز لها بالحروف الألف والثاء والسين والجيم ،وهو تتابع متفرد يصل طوله فى الإنسان إلى نحو ثلاثة آلاف مليون حرف ،يقسم عادة إلى كروموسومات وعلى هذه الكروموسومات تقع الجينات أو مانسميه بالعربية المورثات وهى مقاطع من هذا اللولب أحياناً يكون طولها مئات وأحياناً عشرات الآلاف من القواعد ،وتتابع الحروف العشوائى والكم اللانهائى من التباديل والتوافيق فى التكرار والإرتباط بين هذه الحروف الأربعة هو مايصنع هذه اللغة البشرية العجيبة التى تتكون من كل سكان الأرض، وكما أن لغة العرب ٢٨ حرفاً فإن لغة الكون هى أربعة حروف فقط.

السؤال هو هل يقتصر تحديد ال DNA وقراءة البصمة الوراثية على إعتقال الحكام الطغاة والتأكد من هويتهم ؟، بالطبع لا ،ولنتذكر معاً بعض القصص التى نجح ال DNA فى فك ألغازها وغموضها، بالطبع أشهرها خوف وفزع كلينتون حين وجد أن

ملابس مونيكا الداخلية التى إحتفظت بها ملطخة بسائله المنوى ستفضحه بعد أن تم قراءة ال DNA من خلالها ،وإضطر الرئيس الأمريكى المبجل عازف الساكسفون أن يعزف عن لؤمه ويخرج عن صمته ويعترف ،ففضل أن يفضح نفسه بيديه بدلاً من أن ينفضح على أيدى المحكمة التى لاترحم، وغير حوادث الإغتصاب هناك التعرف على الجثث المشوهة والمحروقة وتتبع الأطفال والجنود المفقودين ، وكلنا يذكر حادثة البوينج المصرية عام ٢٠٠٠ حين تم التعرف على رفات ٢٥ جثة مصرية إنتشلت من قاع المحيط، وأيضاً التعرف على جثث ضحايا مركز التجارة العالمى فى ١١ سبتمبر من خلال البصمة الوراثية ،وبالطبع هناك جرائم القتل التى يترك فيها القاتل أثراً بسيطاً ولايترك بصمات أصابع، أما إثبات البنوة فقد أصبح ال DNA هو البطل الحقيقى فى ساحات محاكم أغنى الدول وأفقرها ، ففى السودان على سبيل المثال لعبت البصمة الوراثية دوراً كبيراً فى قضية شهيرة إسمها «الحصاحيصا» حيث كان هناك إختلاط فى طفلتين عمرهما يوم واحد سلمت القابلة كل منهما إلى الأم الأخرى ولكن الدليل العلمى وال DNA كان هو الدليل الحاسم الذى إرتاح له ضمير المحكمة.

أما أغرب الحكايات التى تصلح لفيلم بوليسى إخراج هيتشكوك فقد كان بطلها هو جيفريز مكتشف البصمة الوراثية نفسه البالغ من العمر ٣٤ عاماً والذى كان يسكن على بعد أميال من قرية الرعب الإنجليزية «اربرة»، وقد إكتسبت هذا الإسم لأنه قد

إغتصبت فيها فتاتان بشكل مرعب وقاسى ،الأولى الصبية ليندا مان ١٥ عاماً والتى إغتصبت فى ٢١ نوفمبر ١٩٨٣ وعثر على جثتها مغتصبة ومخنوقة ولاأثر للجانى إلا سائله المنوى، والثانية دون آشويرث ١٥ عاماً والتى إغتصبت بنفس الطريقة فى ٣١ يوليو ١٩٨٦ ولكن إغتصابها تكرر بعد موتها مع جثتها بمنتهى الوحشية، وعندما ذاع صيت إكتشاف جيفريز أرسلت له النيابة عينة من دم المتهم ريتشارد بكلاند وعينة من السائل المنوى الذى وجد مختلطاً بالجثتين ،والغريب أن المتهم بكلاند كان قد إعترف بأنه إغتصب الثانية ولكنه لم يغتصب الأولى ،ولكن الظاهر أن إعترافه تم بالطريقة البوليسية المصرية الشهيرة التى جعلت الممثلة حبيبة تعترف بقتل زوجها بمفرمة الديمقراطية! ،وذلك لأن العالم الشهير قرر بعد الفحص أن المتهم لم يغتصب أو يقتل أى فتاة منهما !، وبدأت أعجب مطاردة فى التاريخ حين أمرت النيابة بأخذ عينات من دم ولعاب كل شباب ورجال القرية والقرى المجاورة والتى تم نقل وقائعها على الهواء مباشرة حتى تم التوصل إلى القاتل المغتصب كولين بيتشفورك الذى حكم عليه بالسجن فى ٢٣ يناير ١٩٨٨ بالسجن مدى الحياة.

إنها قصة عجيبة وغريبة ولكن الأعجب والأغرب والأكثر إدهاشاً قصة ال DNA نفسه الذى يحمل سر الحياة فى داخله، والذى مازال يلفه الغموض، والذى إحتفل العالم هذا العام ٢٠٠٤ بمرور خمسين سنة على إكتشافه، ولكنه الإكتشاف الذى زادنا

حيرة، فالصندوق الأسود للحياة مازال مغلقاً لم يطلع عليه أحد، وباب مغارة الكون مازال مستعصياً على عبارة على بابا «إفتح ياسمسم »، ومازلنا حتى الآن لانستطيع أن نمنع القدر من أن يهدينا أمثال صدام حسين وغيره ممن يضعون شعوبهم على «الباربكيو» ويتلذذون بسادية وهم يلتهمون فتاتهم المتساقط، إنه كشف السر الذى ولد من رحمه سراً أكبر ولغزاً أضخم وحيرة أشد.

# ١٥ - آخر موضه فى طب الدراويش : علاج الكبد والسرطان ببول الإبل !!

طب الدراويش فرع جديد من الطب يتميز بأنه يعادى العلم ويصادق الخرافة ،وهذا النوع من الطب أو بالأصح اللاطب يعشش فى جو تغييب العقل وتخديره ويفقس ويفرخ وينمو فى غياب المنهج العلمى وفقر الروح النقدية ،وكل يوم يفاجئنا كهنة ودراويش هذا الطب بموضة جديدة فمن موضة العلاج بالرقى والتعاويذ إلى موضة مراكز الحجامة إلى صرعة علاج فيروس الكبد بالحمام، وأخيراً تفتق ذهن هؤلاء عن آخر موضة لطب الدروشة وهى العلاج ببول الإبل !!، وهى قنبلة علمية جديدة كنت أظن خطأ أن مكانها دورة المياه وليس المعمل ،أعترف بأنها كوميديا سوداء حالكة السواد ولكن إستفحالها يوجب علينا المواجهة بسلاح أقوى من السخرية، فإنتشار هذه الطرق التى لاتنتمى البتة للعلم تؤدى بنا بالضرورة إلى إنتشار روح الجهل والخرافة ومعاداة العلم، ولهذا فلابد من الكتابة والتصدى بقوة حتى ولو كان الثمن بعض حجارة التكفير الجاهزة،

وشتائم التخوين المعلبة، فالأفضل أن يتهم فرد ظلماً من أن يضيع وطن ويدفن فى الظلمة.

خرجت علينا طبيبة بيطرية فى مجلة شبابية منتشرة تصدر عن مؤسسة محترمة لتزف إلينا الخبر السعيد والقنبلة العلمية التى ستتصدع لها جدران المحافل الأكاديمية العالمية ، الخبر هو نجاح العلاج ببول الإبل، ولو كانت المسألة لاتتعدى نطاق الخبر لفضلنا الصمت، ولكن المدهش أن المسألة تعدت نطاق الخبر إلى محيط الإعتقاد الراسخ واليقين الثابت، ولم تعد مجرد مساحة مغطاة بالحبر فى مجلة ولكنها صارت سلوكاً منتشراً موحولاً فى الجهل والخرافة .

ماذا تقول الطبيبة العلامة زينب السنينى التى ستناقش رسالة الدكتوراه قريباً ،تقول فى حديثها تحت مانشيت عريض عنوانه مائة سنتيمتر من بول الإبل الصغيرة صباحاً ومساء تقضى على فيروس الكبد خلال ٢١ يومًا، وتؤكد فى حديثها أن هذا البول يعالج إلتهابات الكلى وزيادة الكوليسترول والسكر فى الجسم، والغريب والعجيب أنها بالرغم من تخصصها فى الطب البيطرى إلا أنها تعالج مرضاها ببول الإبل فى عيادة خاصة، ولاأعرف كيف سمحت لها نقابة الأطباء بتلك الجريمة وهى التى تمنع خريجى كلية العلوم من فتح معامل تحاليل وليس عيادات كشف !، المهم أنها بعد الكشف عليه فى العيادة ترسله لكى يمكث فى خيمة أحد الرعاة البدو ليشرب من لبن النوق العصافير، والجرعة لاتتعدى

مائة سنتيمتر ولاأعرف الطريقة التى يستخدمها الراعى فى إقناع الناقة بالتبول ولاأعرف أيضًا الإناء الذى يقدم فيه وجبة البول الشهية هل هو «قصرية» أم «تواليت أفرنجى»، ومن فرط رحمتها بالمريض تنصحه بتناول الحليب مع البول فى «فخفخينا» إخراجية وكوكتيل شيطانى ملتهب يشفى العليل، وتدعى الطبيبة فى جرأة تحسد عليها أن الفيروس الكبدى يختفى تمامًا، إزاى ماتسألش بعقلك القاصر الذى تعلم فى كتب الطب أن الفيروس يتكاثر بطريقة السيطرة على نواة الخلية وسرقة السلطة والإدارة منها بحيث يكون موته الكامل مستحيلاً حتى هذه اللحظة ،والذى سيحل لنا هذه المعضلة العلماء «اللى بجد» وبحق وحقيقى الذين يقبعون فى معاملهم عاكفين على تطوير البيوتكنولوجى وأساليب الهندسة الوراثية وخريطة الجينوم البشرى، وليس عندهم وقت لأساليب الحواة والجلاجلا التى تسيطر على سوق الطب عندنا فى زمن سيطرة الخرافة على عقول المسلمين والعرب.

الكارثة الحقيقية التى إكتشفتها بعد الإطلاع على مواقع إنترنت وجرائد عربية متعلقة بالموضوع هى أن هذه الطبيبة ليست وحدها فى الساحة وإنما يشاركها آخرون منتشرون على طول العالم العربى والإسلامى وكلهم يعتمدون على أن العلاج ببول الإبل من الطب النبوى، ويقولون هذا بالصوت العالى لإفحام من يريد مناقشتهم بالأسانيد العلمية، ففى مقالة فى جريدة الاتحاد العدد ٩٥١٥ بتاريخ ٢٠٠١/٧/٢٤ كتب الدكتور محمد مراد دراسة عن الإبل

فى مجال الطب والصحة حيث أشار الى أن أبوال الإبل وخاصة بول الناقة البكر تستخدم كمادة مطهرة لغسل الجروح والقروح ولنمو الشعر وتقويته وتكاثره ومنع تساقطه، وكذا لمعالجة مرض القراع والقشرة والأمراض الخبيثة، ويعتمد البعض على كتاب قديم إسمه فى حياة الحيوان الكبرى الذى يقول المؤلف فى أحد فصوله «وبول الإبل ينفع من ورم الكبد ويزيد فى الباه»، والباه هو القوة الجنسية أى أن بول الإبل إنترفيرون وفياجرا فى نفس الوقت!، أما فى السودان فقد كانت المسألة أكثر جرأة فقد تمت تحت مظلة أكاديمية ونقلاً عن أحد مواقع الإنترنت المهتمة بمثل هذه المسائل الخرافية ، فقد كشف عميد كلية المختبرات الطبية بجامعة الجزيرة السودانية البروفسير أحمد عبد الله أحمدانى عن تجربة علمية باستخدام (بول الإبل) ـ لعلاج أمراض الاستسقاء وأورام الكبد أثبتت نجاحها لعلاج المرضى المصابين بتلك الأمراض ، وأضاف البروفسير أحمدانى فى ندوة نظمتها جامعة الجزيرة أن التجربة ـ بدأت بإعطاء كل مريض يوميا جرعة محسوبة من (بول الإبل) مخلوطا بلبنها حتى يكون ـ مستساغًا وبعد ١٥ يوماً من بداية التجربة كانت النتيجة مدهشة للغاية حيث إنخفضت بطون جميع أفراد العينة وعادت لوضعها الطبيعى وشفوا تماماً من الاستسقاء، وبالطبع لم يفحص الدكتور العزيز الفهامة العلامة إنزيمات كبد أو خلافه ولكنه لاحظ البطن وكأنها بالونة وإطمأن فؤاده عندما «فست» البالونة !، ياله من بحث علمى فريد ،وعن جريدة الوطن

ننقل هذا الخبر العجيب الذى يقول «أن الدكتورة أحلام العوضى بالتعاون مع الدكتورة ناهد هيكل فى كلية التربية للبنات الأقسام العلمية بجدة إستخدمتا بول الإبل للقضاء على الفطريات التى تصيب الإنسان والنبات والحيوان ،وفى علاج الأمراض الجلدية، كما أشرفت الدكتورة العوضى على بعض الرسائل العلمية إمتداداً لاكتشافاتها ـ مثلما حدث مع طالبات الكلية ـ ومنهن عواطف الجديبى ومنال قطان ـ فبإشرافها على بحث لطالبة الماجستير منال القطان التى نجحت فى تأكيد فعالية مستحضر تم إعداده من بول الإبل ـ وهو أول مضاد حيوى يُصنع بهذه الطريقة على مستوى العالم»، وبالطبع لم يسمع الغلابة من علماء العالم الأوروبى أو الأمريكى المسكين عن هذا المضاد الحيوى الذى أعتقد أنه لايوجد إلا فى أوهام الدكتورات وعلى أرفف نمليات بيوتهن !.

الغريب أن هؤلاء العلماء الأجلاء يعتمدون فقط على الحديث النبوى الذى يقول عَنْ أَنَسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ نَاسًا اجْتَوَوْا فِى الْمَدِينَةِ (أى لم يوافقهم طعامها فى بعض الروايات) فَأَمَرَهُمُ النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِيهِ يَعْنِى الابلَ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا فَلَحِقُوا بِرَاعِيهِ فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا حَتَّى صَلَحَتْ أَبْدَانُهُمْ فَقَتَلُوا الرَّاعِىَ وَسَاقُوا الإبلَ فَبَلَغَ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم فَبَعَثَ فِى طَلَبِهِمْ فَجِىءَ بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ »، ويتناسون ظروف الحديث والبيئة التى كان يقال

فيها والإقتناع البدوى بمثل هذه العلاجات والتى لابد ألا تتحول إلى قانون كونى ونظرية طبية ،وقد هاجمنا مراراً وتكراراً هذا الإسلوب الذى حذرت منه بنت الشاطئ وهو لوى عنق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لإستنباط نظريات علمية أو بالأصح للتمسح فى نظريات علمية إكتشفها الغرب قبلنا لكى نقول فقط إننا أفضل منهم وسبقناهم، وحذرنا أن فى هذا الأسلوب خطراً على الدين قبل أن يكون خطراً على العلم ،لأنه يعرض الدين لتعارض مع العلم الحديث ، ويجعل من المسلمين أضحوكة العالم الذى يتقدم علميًا غير عابئ بشماتتنا فيهم والتى لاقيمة لها ولاتعطلهم بل كل ماتفعله هى أنها تنقص من قدرنا وتهز صورتنا فقط.

وفى غمرة هستيريا الدروشة الطبية لاوزن للبحث العلمى الجاد الذى لابد من نشره فى مجلات علمية محترمة وقياسه على مجموعات ضابطة للمقارنة، ولاوزن للمقاييس التى حددتها الجهات الصحية المعتمدة للإعتراف بدواء أو إيجاز طريقة علاج، فالعلم أساسه النظام ونحن قد إخترنا الفوضى منهجاً ولذلك لاتسألنى لماذا أصبحنا فى سبنسة العالم الذى يجرى كالصاروخ ونحن مازلنا نحبو كالسلحفاة ؟، والعالم من حولنا يعالج بالهندسة الوراثية ويخطو على المريخ ونحن مازلنا نعالج بالحجامة وبول الإبل ونتلخبط فى الخطو إلى دورة المياه هل بالقدم اليمين أم بالشمال؟!، إنهم ببساطة إختاروا العلم ونحن إخترنا الخرافة.

# ١٦ - السنافى المنشط الجنسى السعودى فى شنط الحجاج المصريين

## يعمل بعد ربع ساعة ويستمر أربعًا وعشرين ساعة

قراءة محتويات حقائب المصريين العائدين من رحلة الحج فى رأيى من أهم القراءات الإجتماعية التى تعكس الإهتمامات والأولويات وكذلك الأمانى والأحلام ،ولاأعرف السر فى إهمال علماء الإجتماع والنفس لمثل هذه القراءة الحقائبية والتى ترجع أهميتها إلى أنها حقائب رحلة روحانية مقدسة المفروض أن يهتم فيها المرء بالروح لابالجسد، ولكن المفروض شئ والواقع شئ آخر، فبعد أن كانت الحقائب تضم الفياجرا إلى جانب المسابح الكهرمان والطواقى البيضاء وزجاجات ماء زمزم، توارت الفياجرا وأصبح السنافى هو البطل الذى يقف فى مقدمة الكادر ويسرق الكاميرا !!، وللأمانة أعترف بأننى عرفت هذا السنافى والثورة التى أحدثها فى السعودية من أحد مرضاى العائدين من الحج والذى أخرج لى العلبة السحرية من جيب بنطلونه وكأنه يخرج قطعة حشيش

فإكتشفت أنه دواء منشط جنسى إنتاج سعودى ،وبعد البحث والتقصى عرفت أنه صار يمثل ثورة فى عالم المنشطات الجنسية هناك وفى أنحاء العالم العربى من المحيط إلى الخليج، وبات لزاماً علىّ أن أشرك معى القراء فى رحلة البحث عن سنافى وقراءة آثاره الطبية والإجتماعية على مجتمع متحفظ مثل المجتمع السعودى.

تقول أحدث الإحصائيات أن رجال السعودية ينفقون أكثر من مائة وأربعين مليون ريال على المنشطات الجنسية، وهو رقم يكفى لبناء مساكن شعبية لجميع الشباب المصرى الأعزب وتزويجه وتجهيزه بل وكفالة أبنائه !، ولأن هذه الريالات كانت تصب فى حجر الشركات الغربية الكافرة فإن السعودية قررت أن تصرف نفس المبلغ ولكن فى كنف الشركات السعودية المؤمنة، وكانت النتيجة دواء «سنافى» الذى يعيد الفحولة إلى السعوديين ويعيد معها السيادة إلى أرض الحجاز ،وتحقق الشعار الذى وضعته الشركة السعودية إعلاناً للدواء وهو بيت الشعر الذى يقول:

كم ليلة من الدهر مظلمة     قد ضاء من بعدها صبح من الفرج.

وهو يؤكد عنوان موقع الإنترنت الخاص بالدواء وهو «شريك يعتمد عليه»، وأعتقد أن ترديد هذا البيت من الشعر أفضل من الدندنة بأغنية محمد منير التى يتذكرها كل مريض جنسى عربى حين يقول «خايف أوعدك ماوفيش أقولك فيه تلاقى مافيش»!!!.

هذا الدواء السعودى هو نتاج مفاوضات ناجحة بين الشركة السعودية للصناعات الدوائية وشركة ليللى العالمية لتصنيع عقار التادلافيل الجديد لتصبح السعودية هى أول دولة عربية تستأثر بهذا الدواء الذى ينتظر الباحثون له أن يتفوق على الفياجرا والأوبريما وينضم إلى قائمة أسلحة العمار الشامل المسموح بها للعرب برغم الحظر الأمريكى لأنواع أخرى من الأسلحة ،وهذه الإتفاقية السعودية الأمريكية مدتها ثمان سنوات فقط أعتقد انها كافية لتعوض السعودية خسارتها الكبيرة من مصاريف السلاح الأمريكى ونفقات مطاردات الإرهابيين وإنخفاض موارد النفط ،وهذه أول مرة فى تاريخ سوق الدواء العربى أن تسمح شركة أجنبية بهذه السرعة لأخرى عربية أن تحتكر تصنيع دواء ما على مستوى البلدان العربية وخاصة لو كان هذا الدواء من المنشطات أو بالأصح أدوية الضعف الجنسى التى تتفوق مكاسبها على مكاسب عصابات المخدرات ومافيا السلاح، ولكن ماهى قصة دواء التادلافيل بطبعته الغربية أو السنافى بطبعته العربية ؟.

لنبدأ الحديث عن الشركة الأساسية التى منحت السعودية حق تصنيع الدواء وهى شركة «ليلى» التى بنت شهرتها على دواء أثار ضجة عند ظهوره أقوى من ضجة الفياجرا وهو دواء «البروزاك» المضاد للإكتئاب، والمدهش أن شركة ليللى هى أول شركة دواء موضوعة على قائمة المقاطعة العربية التى تم توزيعها إبان

الإنتفاضة وذلك لمساعداتها المادية لإسرائيل ،ولهذا أعتقد أن أول فشل لهذه المقاطعة العربية سيحدث عندما نقاطعها فى العلن ونشترى فى السر دواء السنافى !!، لأنه وإن كان يعمل مثل الفياجرا على نفس الإنزيم إلا أنه يحمل مفاجأة ستجعل الجميع يتهافت عليه كما صرح البروفيسور إيرا شارليب أستاذ المسالك البولية بجامعة كاليفورنيا والذى نقل للمحافل العلمية سر التادلافيل وهو مدة عمله وفاعليته التى تمتد لأكثر من ٢٤ ساعة بعد تناوله على عكس الفياجرا الذى يعمل من أربع إلى ست ساعات فقط ،كما أن تأثيره أسرع فهو يعمل بعد دقائق قليلة من إبتلاعه، وإذا توفر سيكون أكبر مستفيد فى العالم هو الملياردير الأمريكى بيل جيتس أغنى رجل فى العالم والذى إخترعت له مصر نكتة عقب إكتشاف الفياجرا وفصلتها على مقاسه حين قالت أنه أول المستفيدين لأنه ميكرو وأيضاً سوفت! تندراً على إسم شركة الكمبيوتر التى يمتلكها، وسر إستفادة جيتس أنه يمتلك ٩٪ من أسهم شركة إيكوس للتكنولوجيا البيولوجية التى طورت هذا الدواء الجديد.

صورة أخرى من صور سيطرة الشركات عابرة المحيطات ومشهد آخر يعبر عن مدى ديناصورية الكيانات الإقتصادية الكبرى على المشهد العربى، وقد ساعد عليه للأسف أننا لانفكر فى التقدم العلمى وتطبيقاته إلا حين يحفزنا النصف الأسفل وليس النصف

الأعلى برغم أننا ندين الجنس فى كل وقت ونضحك على أنفسنا بالزعم الزائف أننا شعوب روحانية تحتقر الغرائز!، فى حين يمسك كل مواطن عربى فى يمينه بكتب الأدعية يبحث فيها عما يقيه من الحسدوالجن، وفى يساره بالريموت كنترول يبحث به عن قنوات البورنو فى القمر الأوروبى !، ويهاجم «روبى» فى العلن ويفتح ميلودى فى السر ليغنى معها ليه بيدارى كده !، ولأننا لانداری كده سنتعرف على ماهو دواء السنافى بالتفصيل؟.

سنافى دواء على هيئة أقراص ٢٠ ملجم وتحتوى العلبة على أربعة أقراص وثمنها ١٤٥ ريال أى أن القرص يساوى تقريباً ٧٥ جنيه مصرى، ومادة التادلافيل تثبط إنزيم ال PDE5 مؤقتاً ممابنتج عنه زيادة الإنزيم الآخر الذى يعمل على تدفق الدم لأنسجة القضيب ومن ثم يؤدى إلى الإنتصاب ،وبالطبع لابد أن تكون هناك رغبة مثلما يحدث مع عقار الفياجرا، ويتميز السنافى بأنه لايؤثر على رؤية الألوان كما يحدث مع الفياجرا ولايؤثر على عدد الحيوانات المنوية أو حركتها، وإمتصاصه سريع وتحدث النتيجة المطلوبة بعد ربع ساعة ويمتد المفعول إلى أربع وعشرين ساعة، ولابد أن نفهم مسألة الأربع والعشرين ساعة بطريقة صحيحة حتى لايحدث خلط فى الأذهان أن الرجل يظل فى حالة إنتصاب كل هذه المدة فهذا شئ مستحيل بل وقاتل! ولكن مايحدث هو أن الرجل من الممكن أن يكون جاهزاً ومهيئاً للعملية الجنسية

لأن الدواء مــازال مـؤثرًا طيلة هـذه المدة ،بمعنى آخـر الـدواء تحت الطلب ينتظر إشـارة الإنطلاق، ومن المزايا أيضـاً أنه لايحتـاج أن يؤخذ كالفياجرا على معدة خالية، والسنافى لابد ألايؤخذ مع أدوية النترات الأخـرى مـثل أدوية القلب حـتى لاينخـفض الدم بصـورة مـرعبة، ولايعطى أيضاً لمرضى القصـور الكلوى الشـديد الذى يصل فيـه تصـريف الكرياتنين أقل من ٣٠ ملم فى الـدقيقة ،أو القصـور الكبدى الشديد .

ولاتقتصـر التحذيرات على الأمـراض بل تمتد إلى بعض الأدوية التى لابد ألايؤخذ معهـا السنافى مثل دواء النيـزورال لعـلاج التنيا وأدوية الحموضة والريفامبسين، ومن الأعراض الجانبية للسنافى الصداع وعسر الهضم ،وهو مؤثر ومفيد لمرضى السكر ولاينصح به لمن هم أقل من ١٨ سنة.

والدواء الثـالث الذى تنافس العـرب على تصنيعه وكسبت الأردن السباق هو الأوبريما UPRIMA، المهم أن هـذا الدواء بالذات يعمل بطريقة مختلفة تمامًا فهو يأخذ كقرص تحت اللسـان يتسبب فى زيادة مـــادة تســـمى الـدوبامـــين فى المخ وهـى المادة التى تنقل الإشـارات العصبية، وبماأن المخ هو العضو الجنسى رقم واحد لأنه يأمـر تابعه فـإن الجـميع ينتظر ويأمل أن يكون هـذا الدواء ترجـمة صـادقـة للسلوك الجنسى الطبـيعى الذى يبـدأ بالمخ وليس الجنس المفتعل المصنوع الذى يبدأ بالأعضاء التناسلية ويركز عليها ويحوله

إلى مجرد عملية ميكانيكية بحتة فاقدة للمتعة والتواصل، والدواء المنافس للأوبريما هو هو الفاردينافيل VARDENAFILوهو إنتاج شركة باير الألمانية وهو يعمل بنفس طريقة تثبيط الإنزيم التى يعمل بها الفياجرا والسنافى والتى تساعد على تدفق الدم ،ولكنه أكثر فعالية وأكثر تخصصًا، أى أننا نحتاج إلى جرعة أقل من هذا الدواء لكى نحدث نفس تأثير الفياجرا والتى من الممكن أن تكون جرعتها أضعاف أضعافه، وأيضًا تأثير الفاردينافيل سيكون أكثر تخصصاً على الهدف المرجو فلا يصيب الأوعية الدموية الأخرى بإسترخاء وإتساع ومن ثم إنخفاض حاد فى الضغط وصدمة مميتة، وقد جرب هذا الدواء حتى الآن على مايقرب من خمسمائة مريض وقد تحسن الأداء الجنسى لثمانين فى المائة منهم بغض النظر عن سن المريض أو حالته الصحية، وهذا يمنح أملاً كبيرًا لمرضى السكر الذين غالباً ما تتأثر حالتهم الجنسية، ومن الأعراض الجانبية البسيطة لهذا الدواء الصداع المؤقت وإحمرار الوجه، والكل كان ينتظر نزول هذا الدواء ويضع يده على قلبه خوفاً من أن تتسبب مافيا الدواء فى تأخيره ذلك لأن شركة باير التى عاشت أجمل أيامها وأكثرها إنتعاشاً منذ مدة بسيطة لأنها منتجة دواء «السيبرو» المعالج للجمرة الخبيثة،هذه الشركة مازالت تعانى من السمعة السيئة لدواء من إنتاجها لعلاج الكوليسترول كانت قد سحبته من السوق بعد وفاة ٥٢ شخصاً ممن إستعملوه، والكارثة

أن الحـرب على دواء الكوليسـترول كـانت من أمـريكا ومن شـركـة فـايزر بالذات التى تصنع دواء آخـر مضـادًا للكوليسـترول إسـمـه «ليبيتور» حققت منه أرباحاً قيمتها خمسة مليارات دولار، وبالطبع إذا عرفنا أن فايزر هى منتجة الفياجرا فعلينا أن نتخيل شراسة الحرب القادمة على دواء العجز الجنسى الجديد، والكارثة أن هذه الحرب سيدخل فيها اليهود الذين يصرون على حرماننا من حقوقنا الجنسية كما حرمونا من حقوقنا الوطنية !، فهم يهاجمون شركة باير لأنها وريث شركة «فارين» الكيميائية التى كانت تمد النظام النازى الألمانى بالغاز الذى كان يستخدم فى الأفران التى كانت تستضيف اليهود الذين هم ورانا ورانا.

وهناك الأدوية التى مازالت قيد البحث والتى تجرى لإحتكارها إتفاقيات سرية وهى الأدوية الموضعية وهى قائمة طويلة أهم مافيها «الألبروكس» ALPROX و«التوبيجلان» TOPIGLAN، وهما مشتقان من مادة البروستاديل وهى مادة موسعة للأوعية الدموية وبما أنها موضعية فهى ستتفادى جميع الأعراض الجانبية الناتجة عن زحف هذا التوسع الدموى لكافة أعضاء الجسم بلاتمييز، وحتى هذه اللحظة فإن مادة البروستاديل متوفرة فى السوق على هيئة إما حقن موضعية أو أقراص توضع فى مجرى البول وهما طريقتان مازالتا مرفوضتين من معظم المرضى الذين يتمنون نزول الدهانات الموضعية إلى السوق وهى ماتنسجم أكثر مع

رغباتهم حتى لايرتبط الجنس بالألم وهو فى الأساس مصدر متعة وليس مصدر وجع، وآخر الأخبار الخارجة من المعامل البحثية أنه مازال أمامهم سنة على الأقل حتى تخرج هذه الأدوية الموضعية إلى النور.

خرج دواء السنافى من هذه المنافسة الشرسة غانماً سالمًا مسيطرًا على السوق السعودى ومداعبًا للخيال العربى الفحولى، لدرجة أن السعودية المتحفظة علقت إعلانًا ضخمًا فى واحد من إشارات المرور المهمة يقول مع السنافى تعمل ٢٤ ساعة !،وكما أن للدواء آثاره الطبية فهو أيضاً له آثاره الإجتماعية، وقد تناول دواء السنافى بالتعليق الصحف السعودية بأسلوب بعضه هجومى حاد وبعضه تهكمى ساخر ،فقد كتب الأستاذ تركى الدخيل «ليعذرنى القارىء والشركة السعودية الرائدة التى طرحت العقار «سنافى» بأن أجنح بخيالى ما قد لا يمت للواقع بصلة، لكنه المنتج الأكثر إثارة منذ سنوات، والحدث الكبير فى الحرب على العراق والسقوط الدرامى لبغداد قد اعتليا قمة هرم اهتماماتى حاليًا، فجاء هذا الربط.

«سنافى» العربى يصنع شعورًا خلقته الخلطات الكيماوية بأن حيوية الشباب ما زالت تشتعل فى دواخل المتعاطين، والرجل العربى اليوم فى حاجة إلى من يعيد له هيبته الضائعة، وقواه التى خارت أمام جبابرة العالم الذين صالوا وجالوا على هوانم فى منطقته،

وها هو العقار العربى يأتى فى وقته ربما كان الكثيرون من العرب بحاجة فى الواقع إلى إعادة تركيب الذهنيات قبل تناول المقويات والمنشطات وعقارات القوة المصنعة كيميائيًا، ربما كان من الأفضل لمعظمنا أن نفكر فى أن نكون فعالين قبل أن نصاب بالعته الفعلى ونصبح رهائن للأدوية ومسكنات الأم الهزيمة والإحباط، ربما حان الوقت أن نكون أقوياء بالعلم والإنجاز والتنمية، وأن نداول بيننا فكر التشجيع والتحفيز قبل قرارات القمع كيماويًا، أن نصنع بيئة صحية للفكر والعمل الخلاق وأن نحول القانون العربى الموحد بالوصاية على الناس إلى العمل من أجلهم، أن ترتكز قوى حكوماتنا العربية على قوة الفرد لا بقوة مخزن السلاح والتوجيه العسكرى للجيوش وجحافل الفيالق»، وهكذا تتدخل السياسة لعنها الله حتى فى الجنس عند العرب، ويكتب عبد العزيز داغستانى فى جريدة عكاظ السعودية «السنافى السعودى الآن فى الأسواق السعودية يعطى بارقة أمل للفحولة دون آثار جانبية ملحوظة ويعمل على مدار ٢٤ ساعة متواصلة، وكأنه يقول لهؤلاء الرجال: «لا عليكم .. كلنا فى الهوى سنافى !»، ويتهكم على أحمد المطوع فى جريدة الوطن من نفس المنظور السياسى اللعين فيقول (سنافى) والذى لا نشك كعرب أنه سيعيد لمنطقتنا العربية والشرق أوسطية تحديداً شيئاً من التوازن العسكرى والانضباط الأمنى الذى فقدناه زمناً طويلاً بتفرد إسرائيل بامتلاكها أسلحة الدمار الشامل، وبقى أن أقول إن هذا الوقود المخصص لدفع صواريخنا العربية بالإمكان استخدامه فى

الأغراض السلمية وهنا تكمن الروعة فى الإنجاز، وإننى ومن خلال هذا المنبر المتاح لكل أبناء العرب ، أهيب بشعوبنا العربية تفعيل ذلك وتطويره من خلال الآليات المتاحة له حتى نثبت للوكالة الدولية للطاقة الذرية أننا شعوب مسالمة تستخدم هذا الوقود استخدامات سلمية لراحة الإنسان العربى وإذا لم يصدقوا فليرسلوا بليكس وفريق تفتيشه وليشاهدوا بأم أعينهم الاستخدامات السلمية لهذا الوقود»!!!.

وهكذا إختلطت السياسة مع الطب ،وإمتزج الجد مع الهزل ولكن بقى شئ واحد فقط هو أن محاولة رسم كتالوج للمجتمع يخلو من ألوان وخطوط ومنحنيات الجنس عملية مستحيلة حتى ولو كانت فى السعودية أو الفاتيكان.



# ١٧ - لماذا لم نكتشف الايدز قبلهم ؟

هل تعرفون لماذا لم نستطع تشخيص الايدز قبل الغرب ؟ والنون هنا عائدة علينا كمصريين وعرب ومسلمين ، اجابات كثيرة جاهزة عند الأغلبية أولها وأسهلها اننا لا نمارس الرذيلة مثلهم ولذلك فإن المرض لم يصبنا وبالتالى فلم تتوفر لنا الفرصة لتشخيصه قبلهم ، والاجابة فى ظاهرها تبدو مقنعة ولكنها فى الحقيقة لا تصمد أمام التحليل المنطقى فالشذوذ للأسف ينتشر كالسرطان فى بلاد تنتمى الى منطقنا العربية وتتساوى نسبته مع الغرب إن لم تكن تزيد ، ولكن الفرق يكمن فى أنها تمارس فى الخفاء وهذه السرية والاحتياط لم تمنع حوادث كثيرة من الظهور الفج وللأسف الشديد فقد كانت أكثرها محاولات لاغتصاب اطفال ولا داعى لذكر اسماء هذه البلاد فالكل يعرفها وخاصة فى مصر لأن أكثر الخائفين على أبنائهم هم من المغتربين المصريين.

إذن فالتحجج بأننا اكثر عفه وأخلاقا قابل للمناقشة والشك ، وحتى بفرض أننا أكثر الأقوام والشعوب طهارة ونقاء فهذه ليست

القضية وإنما القضية هو أنه لو تصادف ودخل مستشفياتنا العربية اول مـــريض اجنبـى بالايدز فـى العـــالم لم نكن لنســـتطيـع أن نشخصه؟؟.

سـيـعـتـرض آخـر ويذكـر أن السـبب الأسـاسـى هو نقص فى الامكانيات ليس إلا، يعنى مجرد فرق تكنولوجيا، وأيضاً أرد وأقول ان هذه ليست حجة مقنعة فالمسألة ليست مسألة وضع تشخيص بجهاز معقد قدر ما هى وضع تشخيص بمنهج تفكير مختلف، فالجهاز المعقد هو مجرد عامل مساعد ولكن منهج التفكير هو العامل الأساسى والحاسم، فمريض الايدز هذا عندما نعامله هنا فى مستشفياتنا لابد أن نضع له تشخيصًا ولا يهم إن كان مثل هذا المريض بأعراضه الجديدة وشكاواه المستحدثة رأيناه من قبل أم لا، فالمهم عندنا هو أن نضعـه فى خـانة وأن نصنفـه ولكن حـسب التصنيفات القديمة التى لم نخترعها أو نبذل فيها أى مجهود، ولكن مـــا الســبب فى كل هذا؟، إنه الإصــرار على مـــلأ خـــانة التشخيص وإغفال أنه من الممكن ان يكون مرضاً جديداً؟، السبب هو أننا نعتقد أن كل شئ قد حسم وإنه ما علينا الا أن نفتح الكتاب ونطابق بين ما حفظناه وبين الحالة ثم فى النهاية نسمى المرض بناء على هذه العملية الآلية البحتة، أما عندهم فقد دخل المريض الى المستشفى فوجدوا حالته جديدة لم تمر عليهم من قبل ولا تخضع لما درسوه أو عرفوه فلم يركبوا دماغهم ويصروا على تسميته

فوضعوا فى خانة التشخيص علامة إستفهام أى أن المرض مجهول وهم فى طريقهم لإكتشافه، إنهم قد وضعوا علامة الاستفهام بدون خجل أو خوف أو تعالٍ، والسؤال لماذا وضعوا هم علامة الاستفهام ولم نضعها نحن ؟، هذا هو الفرق الجوهرى بيننا وبينهم، هم يؤمنون بأنه مازال هناك ثمة مجهول لم يتم حسمه بعد وبأيديهم هم أن يحسموه ، وهذه لا تعتبر نظره إلحادية بأى حال ولكنها ان جاز التعبير نظره تفاؤلية مستقبلية ، أما نحن فنؤمن بأن كل شئ قد حسم وبأنه لا جديد تحت الشمس وأنه لا يوجد فى الإمكان أبدع مما كان، فخير القرون هى الماضية ثم تتناقص النسبة إلى أن يصبح الحاضر شراً مستطيراً والمستقبل غيبًا رجيمًا لذلك فحين نجابه مشكلة نرجع الى الماضى نستنطقه الحل فهو العصر الذهبى الذى أجاب وأفحم وهذه النظرة ليست إيمانيه ولكنها تشاؤمية.

وهناك خلل جوهرى آخر فى منهج تفكيرنا بالنسبة للمرض يجعلنا بجانب فشلنا فى تشخيصه سنفشل حتماً فى علاجه فنحن ننظر للمرض نظرة عقابية أى أن الايدز مثلاً هو عقاب من الله على ما يفعله الغرب من ممارسات إباحية، ونرد بسؤال بسيط إذا كان الايدز عقاباً لهم فهل البلهارسيا عقاب لنا ؟ ، وهل تليف الكبد والاستسقاء وسرطان المثانة وكل نتائج هذا المرض اللعين تأديب وتهذيب لشعبنا المسكين؟!، أستغفر الله العظيم عز وجل عن هذا التصور الملئ بالتربص والذى روجته تلك التيارات الاظلامية

المتخلفة التى تصف نفسها بحامية الاسلام ، فالعالم أو الطبيب إذا كان يتعامل مع المرض بإحساس الإدانة المسبقة فلن يحاول كشفه وبالتالى لن يفلح فى علاجه لأنه ليس واعظاً ودوره فى البحث لابد ان يكتنفه وتشمله الموضوعية.

وأخيرا فإنى بهذا التحليل لا أدعو الى الرذيلة كما سيتشدق البعض ، ولكنى أقارن بين منهجين فى التفكير منهج راكد يجد فى الماضى خيراً وفى الحاضر إثمًا، منهج يرجع الى النصوص القديمة لحل مشكلته ولا يقرأ مشكلته نفسها فى ضوء الواقع لكى يحلها، ومنهج آخر يزيل سلطة الماضى وينفى قداسة التراث حين يواجه مشكلاته ويؤمن بأن الثابت لا يحكم المتغير وبأن الماضى لا يسجن الحاضر، وبأنه دائماً توجد علامة إستفهام مؤرقة تنتظر الاجابة ، وهذا هو سر الحياة.

# ١٨ - العلم والايمان.. أم العلم والدروشة

يعد برنامج العلم والايمان من أهم البرامج التى تحظى بنسبة مشاهدة عالية نظراً لجودة الأفلام المعروضة وايضا للجاذبية التى يتمتع بها الدكتور مصطفى محمود والذى يعلق عليها ، ولكن وللاسف بدأ البرنامج فى حلقاته الأخيرة قبل التوقف يعانى من شيزوفرينيا خطيرة فالفيلم شئ والتعليق شئ آخر تمامًا، فالفيلم يقظة علمية والتعليق غيبوبة درويشية! .. ما أن ينتهى عرض الفيلم حتى ينهال الدكتور مصطفى محمود ذماً وتقريعاً فى الغرب (الذى هو للعلم صانع هذا الفيلم)، وهجوماً على منهج هذا الغرب المادى الملئ بالشذوذ والمتحفز لكل ما هو إسلامى ، إذا تكلم عن مرض فهو يتكلم بشماته عن أن العلم لم يصل الى الدواء الناجح لهذا الداء ويقارن بين قدرة الانسان العلمية وقدرة الله العلوية !!، وإذا تحدث عن إختراع يعلق بأن الاختراع ده يروح فين وسط الهبات الربانية التى حبانا بها الله!!، مقارنة غريبة والأغرب أنها لم يطلبها منه أحد فهو قد تبرع بها من تلقاء نفسه، فالخالق عز وجل حث الانسان على العلم والسعى فى الارض والاكتشافات والاختراعات هى السيطرة على الطبيعة ومحاولة للرقى بالانسان،

فمثلا الانسان عندما أراد أن يطير لم يفعل هذا للمنافسة أو للتطاول ، ولم نقل ساعتها أن الطيور أفضل من الطائرات لأنها لا تملأ بالبنزين ولا تحتاج للمحركات ، ولكننا قلنا أن مخترع الطائرة قد إستفاد من شكل الطائر وهيئته فى الإختراع وكذلك فى كل محاولات الانسان لفهم الطبيعية والسيطرة عليها.

وبعد أن يهاجم الدكتور مصطفى محمود الغرب الكافر يلوى عنق الآيات والأحاديث ليعطينا الخلاصة كما فعل فى إحدى الحلقات عندما علق على أطفال الأنابيب والهندسة الوراثية بحديث معناه أنه من علامات الساعة تطاول الحفاة العراة فى البنيان وأن تلد الامة ربتها ففسر الحفاة بأنهم البروليتاريا الذين سكنوا القصور وذلوا المثقفين فى الدول الاشتراكية ، أما تفسير ولادة الأمة لربتها فقد حكى لنا فيلماً من أفلام حسن الامام قال فيه إن ممكن خدامه تولد واحدة تاخذها واحدة غنية جوزها فى السلطة وتربيها لغاية ما تبقى رئيسة وزارة تدور الأيام ويتقابلوا الاثنين الخدامة ورئيسة الوزارة !! .

البرنامج تمويل نفطى فلابد من شتيمة الاشتراكية برغم أن تعبير الحفاة والعراة الذين تطاولوا فى البنيان ينطبق على دول يعرفها جيدا يحكمها أباطرة لا يطيقون سماع أن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ولأن اسم البرنامج العلم والايمان فلابد من تقديم هذه السلطة العلمية المرشوشة ببضع البهارات الفقيهة لكسب البسطاء وتغييبهم.

# ١٩ - قل فسيولوجى ولا تقل سكسولوجى!

مازلت أتذكر إحدى حلقات برنامج حديث المدينة التى أثار فيها الأستاذ مفيد فوزى فى حواره مع المرحوم الدكتور ماهر مهران قضية الثقافة الجنسية عندما كان الأخير وزيراً للسكان، وقال الوزير أنها مطلوبة ولكنه طالب بتغيير كلمة الجنس الى فسيولوجيا التكاثر او بيولوجيا الانجاب وذلك بالطبع جرياً على عادتنا الموروثة فى تخفيف وقع بعض الكلمات على الأذان وإختراع القوالب والكليشيهات مثلما قلنا على الهزيمة نكسة، وأطلقنا على رفع الاسعار تحريك الاسعار، وبعنا القطاع العام باسم الخصخصة، ودلعنا الكوليرا وسميناها أمراض الصيف...الخ، وسياسة النعام هذه التى نتبعها مع قضية الجنس تذكرنى بمدرس العلوم فى المرحلة الاعدادية والذى رفض تدريس الجهاز التناسلى علشان ده ممكن يفتح عينينا على العيب وقلة الأدب وعندما ثرنا خوفاً من السقوط فى الإمتحان قال لنا إطمنوا الجهاز التناسلى ده عمره ما ييجى فى الامتحان وطالبنا بالتركيز على الهضمى والتنفسى لأنهما فى الأمان !!.

والمنطق عند هذا المدرس وسيادة الوزير واحد وهو منطق مناقشة القضية من منطلق الخجل حتى من العنوان ، مع أن الفرق شديد بين الجنس فى النكت والكتب العلمية ، واذا ظللنا نصف الجنس بأنه قباحة لن نتقدم خطوة وسيظل مرجعنا هو خليل حنا تادرس !! ، وعلاجنا هو فك الأعمال والربط وفتح المندل.

علينا أن نعرف أن الجنس قد دخل غرفة المعمل منذ الستينيات على يد العالمين ماسترز وجونسون ، وخضع للفحص والتعريف ورسم المنحنيات وقياس الإنقباضات ، فى حين أنه عندنا مازال فى دائرة التابو، وما زال الزوج المصرى يمارس إغتصاباً يومياً تحت إسم المعاشرة الزوجية الحلال ،ومازال لايفهم الجنس إلا على أنه مونولوج لاديالوج، ولايريد الإقتناع بأنه عزف أوركسترا هارمونى وليس عزفاً منفرداً، وما زال المعنى الضيق للجنس وحصره فى عملية الايلاج فقط هو المسيطر ، والانتشاء الذكورى هو السائد، ومازال معظم الناس يعيشون أسرى أساطير وأوهام عن الطول والمدة والفحولة .. الخ ، وكل هذا لن يحله التجاهل أو تغيير الاسم ولكن سيحله تغيير المفهوم.

# ٢٠ - فى مدرستنا ارهابى

بعد التقاط الأنفاس من معركته ضد الثانوية العامة نعلن أننا مع الوزير السابق الدكتور حسين كامل بهاء الدين فى معركته الأخرى ضد التطرف فى المدارس ولكن يبقى سؤال هل تكفى أسلحته التى إستخدمها؟ ، بمعنى آخر هل المشكلة تكمن فى تطرف المدرسين وفرض الحجاب على الأطفال وعدم تحية العلم الى آخر هذه المظاهر؟

أعتقد ان المشكلة اعمق بكثير فهى تكمن فى منهج التعليم نفسه، فالتلقين يمنحنا طالباً مطيعاً لا يناقش ومن السهل جداً أن يكون مادة خام سهلة التشكيل والإنخراط فى أى تنظيم يقوم على السمع والطاعة، بإختصار تنتج المدرسة «مشروع ارهابى يستبدل النصوص الجامدة بالكتاب المدرسى ، وأمير الجماعة بمدرس الفصل، وماذا ننتظر من هذا الطالب الذى يحفظ المعادلات والتفاعلات الكيمائية وتجارب الفيزياء دون أن يكون قد دخل معملاً فى حياته، إنه بذلك السلوك التلقينى والذى نطلب فيه من

هذا الطالب أن يصم ليتقيأ المعلومات فى ورقة الامتحان فى محاولة لإيهام المصححين بأنه رأى هذه التفاعلات والنتائج ويشاركوه المصححون فى تمثيل هذه المسرحية بالتصديق والتطنيش ثم ينسى الطالب بمجرد خروجه من اللجنة كل ما كتبه، إنه طالب ما شافش حاجة ولكنه تعلم مبدأ هاماً وهو إسمع وأطع الكتاب المدرسى دون أن ترى أو تناقش ، وعندما تصيب أحدهم حمى الرفض ويطلب أن يرى ما يحفظة يقابل بإستنكار شديد من مدرسيه:

- هو انت مش مصدقنا ولا ايه؟!

ويصبح الفرق بين المدرسة والتنظيم الارهابى سراباً ، ويصير الإثنان وجهين لعملة واحدة، فالأولى تمهد الطريق للثانى، والمدرسة تستخدم سلاح السقوط للارهاب ليستخدم التنظيم بعد ذلك سلاح الجنازير والكلاشنكوف.

# ٢١ - الجواب الشافى فى عودة عبد الكافى

فى مطلع القرن الماضى قاد ابن محافظة المنيا طه حسين مسيرة التنوير المصرية، وفى مطلع هذا القرن عاد إبن آخر ولد من نفس رحم عروس الصعيد، عاد لكى يصرخ فى طابور هذه المسيرة للخلف در ، ويقبض على طه حسين ويسجنه فى كهوف العصور الوسطى، ويكسر بعصاه الغليظة مصابيحه المضيئة ومشاعله المتوهجة فيحول أفكاره إلى مجرد شظايا، وكفاحه إلى فصل فى مهزلة، وتاريخه إلى مسواك وبخور يباع على الأرصفة، عاد عمر عبد الكافى ليواصل بأفكاره رسم خريطة الانسحاب بالاختباء خلف سطور الكتب الصفراء ، والإحتماء فى دهاليز الفتاوى المتحفية، والسكنى فى سراديب الفقه البدوى الذى أخذ من الصحراء غلظة أحجارها وقسوة شمسها ووهم سرابها، وكانت المصادفة المدهشة والعجيبة أن يجمع نفس الرحم رحم المنيا الخصب إلى جانبه السيدة هدى شعراوى التى ولدت هناك وكافحت من أجل حرية المرأة واستعادة حقوقها المسلوبة، ومصدر الدهشه والعجب أن شيخ القرن الجديد عاد لينفذ خطة وأد دعوة هدى شعراوى بنت محافظته، عاد ليلغى تاء التأنيث من القاموس

ويدق لها أوتاد الخيمة السوداء ويلبسها البدلة الحمراء تمهيدا لإعدامها باسم الحرص على عفتها والحفاظ على شرفها، وأدوات الإعدام هى مشنقة الأحاديث المدسوسة وسيف الفحولة المغرورة ، وكرسى الفتاوى الكهربائى.

وفى البداية ليس بينى وبين الشيخ عمر عبد الكافى أى ثأر شخصى ولكن بينى وبين أفكاره اختلاف شديد ولو كان هذا الاختلاف إختلافا فى تفسير أو معنى لكان الأمر هينًا، ولكن الخلاف خلاف فى الرؤية والفلسفة والتوجه، ولو كانت آثار هذا الفكر ستتحصر فى إطار عائلة أو أقارب أو أصحاب الشيخ ما كنا لنضطر إلى كتابة مثل هذا المقال فى الكتاب ولكننا لجأنا لذلك لأن الأخ عمر تحول إلى داعيه وقرر مع سبق الإصرار والترصد أن يغزو بأفكاره الجسد المصرى وينخر فيه حتى النخاع وساعده على ذلك للأسف مليونيرات وفنانات وأجهزة إعلام، والأهم ساعده الأسلوب الساخر والمظهر العصرى البراق المتحرر من العمة والكاكوله والذى قرر أن يظهر به ويكون هو جواز سفره إلى قلوب السيدات والفنانات التائبات، وكان هذا المظهر هو المظهر هو ما دعا الأخت المذيعة كريمان حمزة ان تخلع عليه لقب أشيك داعيه!! .

ولنحاول قبل أن ندخل إلى عالمه الفكرى إن جاز التعبير أن نذكر القراء بتاريخه وسيرته الذاتية، ولد الشيخ عمر عبد الكافى عام ١٩٥١ فى إحدى قرى المنيا وكان والده شيخ بلد هذه القرية، وهو الثالث بين اخوته الذين يحملون أسماء باقى الخلفاء الراشدين،

تخرج من كلية زراعة الأزهر عام ١٩٧٢ ثم حصل على الماجستير فى دودة اللوز القرنفلية ثم الدكتوراه فى مبيدات الآفات وعين فى المركز القومى للبحوث، وقد تزوج الشيخ عبد الكافى من إبنة محقق كتاب فتح البارى الشيخ محب الدين الخطيب، وبدأت أعراض الخطابة والدعوة تظهر عليه منذ عام ١٩٧٢، ويبلغ عدد شرائطه المسجلة ما يزيد على المائة شريط منها حوالى ٣٥ شريط كلها عن اليوم الآخر، ومن أشهر المصلين وراءه وزير الداخلية السابق المرحوم عبد الحليم موسى والذى كان يحمل وقتها عبء مكافحة التطرف وإخماد نار الفتنة الطائفية ولكن الظاهر أن مشاغله الكثيرة جعلته ينسى أن من يصلى وراءه هو أحد ألسنة هذه النار حين أمر المسلم ألا يسلم على المسيحى.

وعندما إنكشف أمره بواسطة روز اليوسف والرأى العام وليس بواسطة وزير الداخلية هرول ليقدم أوراق إعتذاره للبابا فى حركة مكشوفة سرعان ما جعلته كارتاً محروقًا، ولكن المدهش فى عصر العلم الحديث أن بعض الكروت المحروقة سرعان ما تلتئم ثانية وتلملم قصاصاتها الممزقة المهترئه لتعود وتواصل دورها فى اللعبه، لعبة التخلف والجمود والتطرف، وتعالوا لنقتبس عينة من تلك الأفكار التى بثها الشيخ عمر عبد الكافى فى شرائطه وحواراته وخاصة حواره الأخير مع الصحفى محمود فوزى والذى صدر فى كتاب، وهذا الإقتباس ليس بالضرورة لتشخيص حالة عمر عبد الكافى بالذات ، ولكن لتشخيص حالة تيار كامل إقتحم حياتنا

وأمسك بتلابيبنا محاولاً جرنا لكهوف العصور الوسطى رافعًا شعار ليس فى الامكان أبدع مما كان !.

البداية مع المفاجأة التى فاجأنا بها حامل درجة الدكتوراه والباحث بالمركز القومى للبحوث وهى عن شفاء ماء زمزم لمرض السرطان، فهو يقول «المسألة مسألة يقينيه، فكم من مريض بالسرطان وذهب ليشرب من ماء زمزم فعاد معافى، وهذه حقيقة لاشك فيها، بل هناك من الأطباء من يعلم هذا تمامًا، فقدرة الله عز وجل فوق كل شىء» إنتهى الإقتباس ولم ينته المعنى والمغزى، فماء زمزم على عينى ورأسى من فوق، وجلال معناه الدينى له فى قلبى كل الإحترام والتوقير ، ولكن فائدته العلمية والطبية فيها شك مؤكد لأنها تتكون من نفس ذرتى الهيدروجين وذرة الأكسجين التى فى كل مياه العالم من الاسكيمو حتى بلاد واق الواق والتى يشربها كل البشر بداية من المجوس وحتى البوذيين، وليس بالضرورة أن تعنى القدسيه الدينية فائدة طبيه وليس من البديهيات أن يتحول كل معتقد دينى إلى حقنه أو كبسولة، ولو كان هذا الكلام صحيحاً سيدى الشيخ الجليل فلماذا لم تتنبه السلطات السعودية إلى مثل هذا الإكتشاف العبقرى وتنشئ معهداً للسرطان بجوار البئر مباشرة؟، ولماذا لم تدخل مكة الموسوعات الطبية كأول بلد لا يقربها السرطان؟، وسؤال آخر أكثر بديهية لماذا لم تتنبه الشركات الأمريكية إلى ذلك وبدلاً من حفر وإكتشاف آبار بترول جديده تتكلف مليارات الدولارات لماذا لا تلجأ إلى هذا البئر الجاهز لتبيع

مياهه وتكسب مليارات المليارات؟! والمدهش أن الشيخ عبد الكافى يتبع اكتشافه العبقرى برأى أكثر عبقرية وهو أن فائدة ماء زمزم وفاعليته هى فى نطاق مكة فقط فيقول «لابد أن يشرب هناك ومفعوله يكون فى مكة وليس خارجها» ، وكأنه خارج مكة تنتهى الصلاحيه ويصرف البديل!!؟، ولذلك نطالب من منبر عبد الكافى كلينك بتحطيم وهدم كافة معاهد السرطان فى العالم ووقف كافة الأبحاث فى الأورام وما وراء الأورام ، وإصدار نداء لكل البروفيسيرات فى العالم الغربى الكافر «ها اخلعوا بلاطيكم البيضاء وفجروا ميكروسكوباتكم السوداء وارتدوا خرقة الصوفية الخضراء فأنتم مدعوون لحفلة زار لتعبئة الميه فى أزايز» ، وطظ فى جميع هيئات مراقبة الدواء ومراكز الأبحاث فقد كفانا شيخنا الجليل عناء البحث وجزاه الله عنا خير الجزاء.

ويواصل الشيخ عمر عبد الكافى فتاويه الطبيه فيخرج زمزم ويدخل فى العسل والذى قال فيه المولى عز وجل أن فيه شفاء للناس ولم يقل فيه الشفاء كله فهو بالفعل مفيد فى بعض الحالات نظرًا لقيمته الغذائية ، ولكن أن نحوله إلى شربه الشيخ على التى كان يروج لها الدجالون فى القرى على أنها تشفى كل الأمراض فهذا هو المرفوض بعينه بل والذى يجب محاربته لأنه إهدار للعلم، فهستريا عسل النحل التى تلبست الكثيرين من العلماء ممن استبدلوا المصطبة بالمعمل ، والعمه بالميكروسكوب ، وحلل الفته بأدوات البحث تحت إسم جمعيات الإعجاز العلمى، هذه الهستيريا

تلبست أفكار شيخنا أيضًا ، فالعسل عنده يغنى عن المضادات الحيوية وهذه تجربه قام بها بنفسه على الفئران وذلك بالرغم من أن ماجستيره فى الدود، ولكن لابأس فالدكتوراه فى الآفات ، والمنطق العلمى أصبح هو الآخر من الآفات فلا بأس من أن يستخدم الشيخ له مبيدات الدكتوراه!، فالعسل عند الشيخ فضلاً عن إستخدامه كمضاد حيوى فهو ينصح باستعماله كمضاد للإسهال وكمرهم للأمراض الجلدية ، أما الاستعمال الحديث الذى سبق به الشيخ كافة الأوساط العلمية فهو علاجه لرمد العيون فهو يقول "ثبت علميًا (وتبأ لها هذه الكلمة التى يستخدمها كل من هب ودب لتأكيد حجته بدون ذكر هذا المصدر العلمى) أن العسل يعالج رمد العيون، إدهن العين بالعسل ثم بعد نصف ساعة تغسلها» ، ولكنه لم يخبرنا للأسف إن كان هذا العسل عسل التمساح أم عسل الأسد؟!، أما عن حبة البركة فحدث ولا حرج فمن الممكن أن نستغنى عن الصيدليات بل عن وزارة الصحة نفسها ونضع بدلاً منها حبة بركه مطحونه، واليكم الدليل فالشيخ عمر عبد الكافى يقول «أننى أريد لأى إنسان مسلم سواء كان له أو لزوجته أو لأولاده أن يأتى بحبة البركة ويطحنها ويخلطها بعسل النحل ويأخذ ملعقة على الريق وملعقة قبل النوم، وبإذن الله إذا كان يشكو من كحة فإنها تزول، فإذا كان مصاباً بقرحه فى المعدة فسوف تعالجها أو كان لديه ربو أو أى شىء فسوف تعالجها على الفور، فسبحان الله فيها شفاء وفيها سر»، ولذلك فالمطلوب من كل رئيس وزارة من الآن

فصاعدًا طبقا للتعليمات السابقة ان يلغى منصب وزير الصحة وتنتقل الحقيبة الوزارية فورًا إلى السيدة الفاضلة حبه البركة هانم أطال الله فى كبسولاتها.

ولا تنتهى إكتشافات شيخنا العبقرية بمسألة حبه البركة، فهو يستغل أستاذيته فى مسألة عذاب القبر ويحاول إدخالها مركز البحث العلمى واستغلالها فى زيادة إنتاج الألبان ، ومعلهش يا صديقى العزيز دكتور مستجير ألومك كثيرا لأنك لم تستغل قدرات شيخنا العلمية فى أوراقك البحثية التى كان من الممكن اختصارها لو انتهت إليه فقط، فإسمعه فى هذا القول لكى تصدقنى، يقول الشيخ الجليل «ثبت (لاحظ ثبت تانى) أن البغله بتاعه النبى عليه الصلاة والسلام نطت نطه فقالوا ايه مالها البغله؟قال وكيف لا تنفر وهى تسمع مقامع الحديد التى فى القبور، كذلك أهل الريف لما الجاموسة ما تحلبش يقوموا يعدوها على المقابر، تروح تحلب زى الهوا، وقد ثبت علمياً (تانى !!!) ان الحمار التعبان اللى بيمشى خطوه ويرجع اتنين عندما تعديه على المقابر تجده يمشى زى المرسيدس ٢٨٠ إس!، أستسمحك عزيزى القارئ بان أذكرك ثانية بان المذكور أعلاه حاصل على الدكتوراه فى الزراعة وهذا للعلم والاحتياط فقط.

ومن الجاموس والحمير إلى الكلاب والديوك، ويقول انه إذا سمعنا نباح الكلاب أو نهيق الحمير فلنستعذ من الشيطان فإذا سمعنا صياح الديك فلنكبر الله، ولن نتناقش فى صحة الحديث

الذى يستند إليه الشيخ عمر بالرغم من أهمية غربلة الأحاديث كما ذكرنا فى مقال سابق، ولكننا نناقش العلة التى يستند إليها الشيخ فى تبرير ذلك وهى ان الكلاب والحمير يرون ما لا نرى إزاى ما عرفش؟!، ومن اين أتتهم تلك الحاسة الراداريه برضه ما عرفش؟!، وأعتقد ان علينا دراسة ما يقول لتغيير خططنا العسكرية ووضع كلب بجانب كل سام سته ، وحمار بدلاً من الرادار فهذا أفضل وأرخص!.

أما لو سألتنى عزيزى القارئ عن سر فشل حملات تنظيم النسل عندنا فلتسمع معى رأى الشيخ عمر عبد الكافى فى تنظيم النسل فهو يقول «مقولة أن الولدأفضل وأن الاثنين أحسن من التلاته مقولة خاطئة، أما أن آخذها من ناحية الرزق فهذا شرك بالله عز وجل، ومسألة أجيب لهم منين مفيش حاجه اسمها أجيب لهم منين ربنا مقسمها من عنده» ، ولا ينسى وهو يهاجم تنظيم النسل أن يمدح تعدد الزوجات ويقول" أما من جهة ان الزوج لا يريد أن يؤذى مشاعر زوجته بإعلان زواجه، فإن الإعلام للأسف الشديد قد صور الزوجة الثانية أو الثالثة على أنها نهاية العالم، وسوف يضطر المجتمع الإسلامى إلى تحقيق نظام تعدد الزوجات مرة أخرى لقول الرسول صلى الله عليه وسلم سيأتى على أمتى زمان سيكون لكل خمسين امرأة قيم واحد، ولقد بدا عدد البنات فى مصر يزداد عن عدد البنين فسيضطر المجتمع إزاء ذلك بأن تفضل المرأه ربع رجل خيراً لها من عدم وجود رجل على الإطلاق»،

وهكذا وبنظرية ربع الرجل تلك يبلور عمر عبد الكافى نظريته التى ترسخ دونيه المرأة وتعاملها ككائن من الدرجة التالته لا دور لها إلا أن تفقس العيال وترضى شهوة أبو العيال، وهذا يؤكده قول آخر فى الشريط رقم سبعه فهو يقول تقعد البنت يا عينى تذاكر لغاية ما تركب زى حالاتى كده نضاره قعر كبايه وتبقى مش شايفة قدامها، لسه ماعملناش حاجه، عقبال ما تتخرج أمها تقول لأ لسه الدبلومة، وكمان الدبلومة، ودبلومه، ودبلومة عشان الحبايب، وكمان ماجستير، طب الدكتوراه، تكون خلاص ما تصلحش زوجه، تكون بقيت راجل أفندى، تروح للراجل تقوله بأقولك ايه أنا اصل الكيميا والكيميا العضوية، الراجل يتعقد فى حياته، الراجل عايز زوجه مش عايز كيميا»، وتستمر الخطبة الفكاهية فى هجومها على المرأة العاملة وكأن الماجستير والدكتوراه حكر على سيادته، وكأن الأنثى اللعوب هو النموذج المتفرد ،والسرير هو مكان العمل الوحيد!!.

وعن الهجوم حدث ولا حرج فالعاملين فى البنوك فى النار، وأمهاتنا الصعيديات اللاتى ينحن ويبكين على الميت هن أيضاً فى النار ويقول «إذا ماتت النائحة ولم تتب بعثت يوم القيامة ناشرة شعر رأسها عليها سرابيل من قطران، تقول لها الملائكة ادخلى النار ونوحى على أهلها كما كنت تنوحين على الناس فى الدنيا، وان من ناحت على ميت كانت كمن هدمت الكعبة بيديها وأخذت حربة تحارب بها رب العباد».

وأود أن أكتفى عند هذا الحد فالجعبة ما زالت مليئة ولكن الذهن مازال مكدوداً والمرارة لا تحتمل الكثير، والمهم أن ننتبه لهذا التيار الذى يريد أن يأكل الأخضر واليابس وأن ينشر السوس فى قيم الحب والخير والجمال ، وأن يجعل مصر تتكلم عن حبه البركة فى عصر الهندسة الوراثية، وتتحدث عن جاموس المقابر فى زمن النعجة دوللى، وتتغنى بعبقرية الحمار المرسيدس على شاشات الكمبيوتر والإنترنت، بذمتكم ده كلام !!

# ٢٢ - الجراد ونظرية العقاب الإلهى !!

عندما هاجمنا الجراد إنفتحت علينا حنفية التصريحات من المسئولين وكان أهمها وأولها تصريح شيخ الأزهر والمفتى فى أهرام ٢٢ نوفمبر بأن أكل الجراد حلال وأن مطاردته بغرض أكله ليس تكليفاً شرعياً ،وفى ظل حمى تحويل كل شئ فى الدنيا إلى فتوى دينية قررت أن أسأل مجمع البحوث ماحكم أكل طاجن العكاوى بالجراد ؟،وهل حلال تناول حلة الملوخية بأرجل الجراد أم أنها مكروهة أم هى من الكبائر ؟!، ولم يمهلنى الشيوخ الفرصة لإلتقاط الأنفاس فعاجلونى بفتوى أنقح وهى أن الجراد غضب إلهى وعقاب ربانى!، ففى نفس الجريدة يوم ٢٥ نوفمبر خرج علينا الشيخ أحمد عمر هاشم قائلاً أن أسراب الجراد هى غضب من الله تعالى سببه مايقع فى بلادنا من ظلم وإجرام وإرتكاب الذنوب، وأشار إلى أن الناس قست قلوبهم ولن يرفع عنهم هذا البلاء إلا التوبة، أما المدهش فهو إنضمام الصحفى الكبير أحمد بهجت إلى هذا التفسير قائلاً أن الجراد صورة من صور العقاب وآية من آيات الإبتلاء والغضب الإلهى على عصيان البشر !،يعنى بإختصار إحنا بقالنا خمسين سنة كويسين والسنة دى دخلنا حزب العصاه المجرمين،ومشكلة التفسير العقابى للكوارث والتى سارع البعض

لتطبيقها على الإيدز وعلى ١١ سبتمبر وإنهيار البرج على الأمريكان برغم أن من بينهم مسلمين ،وطبقوها أيضاً على زلزال المقطم لأن فيه عزبة الزبالين الذين يربون الخنازير !!..الخ، وهذه نظرية لاتصمد للمناقشة ولايستسيغها العقل والأهم أنها لاتتفق مع العدل الإلهى ،فهل من العدل أن يكون هذا العقاب للصالح والطالح ؟ ، ألايتنافى هذا مع قول الله تعالى بأنه لاتزر وازرة وزر أخرى، وماهو ذنب الفلاح المسكين الذى يصلى ويصوم ولايفعل الموبقات وينتظر حصاد أرضه لكى يطعم أولاده ؟!، هل تنحصر المعاصى فى بلادنا الغلبانة فقط ولماذا لاتحدث هذه الكوارث لإسرائيل مثلاً ولماذا تحدث هذه الكوارث للفقراء فقط والذين يتحملون فاتورتها السرطانية الرهيبة ؟، والمصيبة أن تقبلنا لمثل هذا التفسير سينمى شعور الشماته والتشفى فى الضحايا لأنهم عصاة ويستاهلوا !، ومسايرتنا للتفسير العقابى للكوارث هو فى حد ذاته كارثة وسيؤدى بنا إلى نتائج يرفضها ديننا الحنيف، وسأطرح سؤالاً على عمر هاشم وأحمد بهجت وأنتظر الرد، إذا كانت كل كارثة هى عقاب للعصاة والفساق والماجنين فكيف سيفسر كلاهما حريق خيام الحجاج منذ عدة سنوات ؟، وكيف سيفسران موت الحجاج عند إنهيار جسر المشاة فى المدينة ؟ هل هذا عقاب إلهى أيضاً للحجاج الذين هم فى أقصى حالاتهم الروحية والإيمانية ؟!، أعتقد أننا لابد من أن ندين إهمالنا وتراخينا وجهلنا قبل أن نعلق كل شئ على شماعة العقاب والغضب الإلهى.

## ٢٣ - الفتاوى الطبية للشيخ الشعراوى :

### أطفال الأنابيب (أنزحة) والتشوه الخلقى دليل على قدرة الله ، زى العجل بخمس أرجل ، سبحان الخالق .

فى كل يوم تطالعنا الصحف بأخبار عن الدجالين والمشعوذين ومحترفى العلاج بالوهم نشعر بأن مجتمعنا فى خطر، وأنه فى حاجة لكى يفيق من إدمانه للخرافه والشعوذة وأن يدرك ولو قليلاً ان هناك حقيقة هامة فى الحياة إسمها العلم، وان علينا ان نؤمن ولو بالقليل منه.

على أية حال فان خطورة الشيخ الدجال شمهورش وغيره لا تصيب إلا الأفراد المترددين عليهم هم وأسرهم ومعارفهم ، لكن الخطورة الأكبر حينما تلبس أوهام الإفتاء الطبى إحدى الشخصيات المؤثرة فى المجتمع خاصة إذا صدرت هذه الفتاوى من شيوخ لهم تأثير واسع على الجمهور، سواء من خلال منابر الجوامع أو من خلال وسائل الاعلام التى تفتح لهم على البحرى، نفاقاً تارة وخوفاً تارة أخرى، إقتناعاً فى بعض الأحيان وهرباً من وجع الدماغ فى أحيان أخرى.

ومن قادة هذا التيار الذى جذبته نداهة الطب إثنان من المع الشيوخ وأكثرهم فصاحة وبلاغة، الأول عمر عبد الكافى والثانى محمد متولى الشعراوى والغريب أن هذه الفتاوى قد تزامنت وصدرت فى أوقات متقاربة وطرحت على الناس من خلال حوارات مع شخص واحد، فقد حاور الصحفى محمود فوزى الشيخين عمر عبد الكافى ومحمد متولى الشعراوى فى ثلاثة كتب متتالية أغرقت الأسواق بسرعة رهيبة، الكتاب الأول حاور فيه عمر عبد الكافى وعنوانه «العلاج بالقرآن»، أما الثانى والثالث فقد حاور فيهما محمود فوزى الشيخ الشعراوى وعنوانهما(الشيخ الشعراوى وفتاوى العصر) و (الحكمة الإلهية للمرض والشفاء).

بالنسبة للشيخ عمر عبد الكافى فقد حللنا آراءه من قبل، أما عن الشيخ الشعراوى وحواره فربما قد سمعنا آراءه هذه من قبل سواء فى دروسه التليفزيونية أو فى حواراته خاصة مع طارق حبيب ولكن لا بأس من عرضها هنا فى هذا السياق حتى ننظر لهذه الظاهرة ، ظاهرة الإفتاء الطبى ككل.

طبعا سمعنا عن حكاية زرع الأعضاء واعتراض شيخنا الشعراوى عليها وهذه هى الخطورة كما ذكرنا من قبل لأنه لو تعلق الأمر بمجرد أقوال فى تليفزيون أو فى كتاب لهان ذلك ولكن الأمر تطور إلى فزع فى مجلس الشعب من مجرد مناقشة قانون يبيح نقل

الأعضاء إلى آلاف يسافرون إلى الخارج ويدفعون مئات الملايين هرباً من جحيم مطاردات مجحفة، ومركز زراعة كلى عالمى يئن تحت وطأة الفتوى ، ومركز زراعة قرنية واحد يغلق أبوابه نتيجة هجمة غوغائية، ومعهد عالمى للكبد هو مجرد لافتة بالنسبة لعمليات الزرع، ورسائل دكتواره تقدم ولكنها توضع على الرف ...الخ ، هذا التعطيل بل والإجهاض لقانون زرع الأعضاء يأتى من تساؤله لماذا تبعدون الإنسان عن لقاء ربه ؟ )ص٢٩ كتاب الحكمة الإلهية)، باختصار تباً لكل طب ولعنة على كل دواء لأن كل هذا سيبعد الإنسان عن لقاء الرب كما يقول الشيخ الجليل ،ولو طبقنا هذه النظرية الشعراوية على البشر كان لابد أن يموت كل إنسان عند ولادته أى أن السر الإلهى لابد أن يصعد مع انقطاع الحبل السرى .. فعلا إحنا بنتكلم جد إذا كانت السرعة هى أهم العوامل المؤثرة فى لقاء الإنسان بربه!!..

أما عن عمليات التجميل مثل إزالة أصبع زائدة فى اليد فيهاجمها الشيخ الشعراوى هجوماً شديدا بحجة ان الإنسان لما يرى واحداً بستة صوابع يقول يا سلام شوف الخالق سبحان الخالق. بدليل أننا حين نجد شواذاً فى الحيوانات كأن نجد عجلاً بخمس أرجل بنحافظ عليه ونضعه فى متحف وكذلك إذا وجدنا سمكة غريبة نضعها فى متحف العلوم المائية!! (ص٩٠ .. الحكمة الإلهية)..

والسؤال هل لابد لكى نقول سبحان الله أن يتعذب هذا البنى آدم نفسياً بهذا الشكل البشع، فنحن من الممكن أن نقولها حين نرى زهرة جميلة، طاووساً بديعاً،طفلاً يحسب كالكمبيوتر أو بطلا للجمباز يتحرك برشاقة، لماذا لا يصح أن نقول سبحان الله مع مثل هذه الحالات المبهجة ونقولها فقط حين نرى إنساناً مشوهاً!!

حتى العقم أو عدم الإنجاب لم يسلم من تدخلات الشيخ الشعراوى فهو يتساءل «ما هى موضة أطفال الأنابيب التى انتشرت هذه الأيام؟ ايه الأنزحة دى».. ويؤكد «إننى فى دهشة من حكاية الذرية وحكاية العزوة التى ينادون بها.. ألا نرى ان الأولاد شقاء لآبائهم» (ص٧٠ .. فتاوى العصر)».

أيصح يا شيخنا الجليل أن تسمى أطفال الأنابيب «أنزحة»، تسمى محاولة الأنثى ان تكون أماً والرجل ان يكون أباً «انزحة»!!! سبحان الله.

إسمحوا لى هذه قسوة.. وندعو الله ألا يعرض أولادك أو أحفادك إلى مواجهة هذه اللحظة التى يدخلون فيها على الطبيب مطرقى الرءوس والدموع تنهمر من عيونهم يطلبون مجرد أمل.. مجرد كلمة بابا أو ماما.. يا شيخنا الجليل توجد حالات لا ينفع معها إلا أطفال الأنابيب ولا تجدى معها إلا مثل هذه المحاولات التى تسخر منها... ومهما كان ضعف نسبة نجاحها فلابد أن نحاول.. وهذه الحالات مثل إنسداد قناتى فالوب أو الضعف الشديد فى

عدد أو حركة الحيوانات المنوية..الخ.. ماذا نفعل مع مثل هذه الحالات ، أنقف صامتين أم نهز أكتافنا ونصرخ فى وجوهم ونعمل لك ايه ياسى انزوح يا بجح.. عايز تبقى أب.. عايزه تبقى أم.. أما شئ عجيب!!...

وللآسف ستظل مثل هذه الفتاوى فرامل تكبح أى تقدم لعجلة الحضارة.. وسنظل نحن على يقين من أننا لكى نحلم بالمستقبل لابد أن نغلق العيون وننسى أننا لكى نحلم بحق وحقيقى لابد ان نمتلك عقلاً.. فى البداية نمتلك عقلاً وبعدها يحلها حلال.



# ٢٤ - التقدم العلمى هو قراءة الطبيعة قبل قراءة النص

هل تعرفون لماذا تقدم الغرب وتأخرنا وماهو الفرق بين منهجنا ومنهجهم؟، الفرق ليس فى نقطة حرف الغين ، ولكن الفرق يكمن فى انهم أبناء الغرب إذا تعلق الأمر بالعلم قرأوا الطبيعة قبل النصوص الدينية، بينما نحن أبناء العروبة نقرأ النصوص قبل الطبيعة؟، هم يصدقون عيونهم وتجاربهم المعملية، ونحن نصدق فلان عن فلان حتى ولو تعارض كلام هذا الفلان مع ما نراه ومع ما يراه المعمل، وعندما كنت أفكر فى هذا الموضوع كنت أتصفح عدد مجلة النيوزويك الذى يحتل غلافه موضوع الجينوم البشرى حتى أيقظنى من حلمى الجميل صديق قرر ان يهدينى كتاب قصة الخلق الذى وافق عليه الأزهر والذى نشرت جريدة الأهالى صورة الموافقة الأزهرية عليه، الناس هناك يرسمون خريطة الإنسان لكى يعرفوا كنهه وبصمته الجينيه ، وهنا فى مصرنا المحروسة ما زلنا نناقش دوران الأرض ونتشكك فى الجاذبية!، المجلات هناك تتساءل عن إمكانية إعادة هندسة الإنسان والقضاء على شيخوخته أما هنا

فما زلنا نستفتى فى هل لبس الباروكة وسماع الموسيقى حلال؟ وكيف ندخل الحمام وما هى الزاوية المضبوطة لكى لا نستقبل القبلة ونحن بالداخل؟، وهل صوت المرأة عوره وهل الغسيل الكلوى جريمة وهل حالق اللحيه كافر وهل نجيب محفوظ مرتد؟، وقلت أن العيب ليس فى عيد وردانى مؤلف كتاب قصة الخلق ولكن العيب فى المنهج الذى يحكم تفكير هذا المؤلف وتفكير تيار عظيم وكاسح فى مجتمعنا المصرى والعربى ،وهو منهج قراءة النص قبل قراءة الطبيعة، والاحتكام إلى الفتاوى قبل الواقع، وطلب المشورة من شواهد القبور لا من شهود العلم والنور، وقد وقع الأوربيون فى هذا الفخ من قبلنا ولم يخرجوا من ظلام العصور الوسطى إلا بالتمرد على مثل هذه المفاهيم ويكفى أنهم منعوا التخدير مدة طويلة اعتمادا على نص مقدس وهو «بالوجع تلدين أولادك» وحوكم جاليليو أيضا بناء على نصوص مقدسة تتعارض مع ما وصل إليه، ولكنهم تخطوا كل هذا وعبروه بمجرد أن قرءوا الطبيعة ولاحظوها لكى يشكلوها فيما بعد ويجعلوها فى خدمة الإنسان، وفى هذه المشكلة بالذات خضع عيد وردانى لما خضع له الشيخ السعودى بن باز من قبل وهو إستنباط الحقيقة العلمية من النص الدينى وهو ما يمثل خطرًا مزدوجًا على الدين والعلم على السواء، فالقرآن ليس كتابا فى الفلك والطب وليس مطلوبا منه ذلك، ولكنه كتاب دينى له منا كل الإجلال والتقديس ككتاب دينى ولا نطلب منه أن يكون مرجعاً علميًا وإلا نكون قد ظلمناه.

عندما حول «جينر» مكتشف التطعيم ضد الجدرى دفة تفكيره أنقذ عقله من أسر التكرار وأنقذ معه الملايين من مرض الجدرى القاتل ،كان من قبله يسألون لماذا يصاب الناس بالجدرى ؟،وكانوا لايصلون لحل أو جواب، فالرد دائماً إما الصمت أو الفشل، ولكن جينر جاء بسؤال جديد وهو لماذا لاتصاب حالبات الأبقار بالجدرى؟ ، ومن هنا توصل إلى الجواب الشافى وهو إن إصابة هذه النساء الحالبات من الأبقار تمنع مرضهن بالجدرى ولذلك حول إنتباهه إلى الإستفادة من الأبقار فى تصنيع اللقاح أو التطعيم، ولن نتكلم فى تفاصيل هذه العمليه التى لاتهم إلا المختصين ولكن مايهمنا نحن كمجتمع هو طريقة تفكير هذا العالم الفذ وأمثاله، فالمفتاح السحرى هو السؤال الجديد أو السؤال بطريقة جديده لكى تحصل على إجابة جديده ،لأنك عندما تطرق نفس الأبواب القديمه لن تجد أمامك إلا نفس الحجرات القديمه يعشش فيها العنكبوت ، وعندما تصرخ بصوتك القديم المبحوح من كثرة الرغى والتكرار سيأتيك الصدى بنفس الإيقاع البطئ المعروف سلفاً ،إطرق أبواباً جديده وأصرخ بحنجرة زال عنها الصدأ ولاتخف من السؤال الجديد فهو حتماً الذى سيقودك إلى الإجابة الجديده.

مجتمعنا لايسأل لأنه يمتلك كل الإجابات ـ من وجهة نظره طبعاً ـ، مجتمعنا لايشك لأن كل الأشياء عنده محسومه، القلق

أغتيل لصالح الإستقرار، ولو كان حظ جينر التعس قد قاده إلى مراكز بحثنا وعرضت عليه نفس المشكله أعتقد أنه كان سيطلب كتب الأقدمين ويظل يبحث فيها عن نص يشرح له المستغلق، وسيحفظ الهوامش والمتن ويظل يكرر ويكرر كى تهبط الإجابه، ولايهم وقتها عدد الذين ماتوا من المرض بل المهم كم إسماً لعالم قديم قد تم حفظه وكم نصًا من الكتب الصفراء قد تم تلقينه، المهم العيشه وليست الحياه وهناك فرق بين هذه وتلك.

# ٢٥ - دكاتره بالجبة والقفطان !!

ماذا لوخلع الطبيب البالطو الأبيض وإرتدى بدلاً منه الجبة والقفطان ؟!، وماذا لو أجرى العالم الباحث تجاربه فى المسجد تاركاً معمله وأجهزته ورسائله العلمية ؟!، وماذا لو ترك الأكاديميون الميكروسكوب وأجهزة الليزر وكاميرا الفمتوثانية ليبحثوا بالمسبحة والإسطرلاب والساعة الرملية؟،وكيف يكون الحال لو أعطينا المحاضرات فى موالد الطرق الصوفية وعقدنا المؤتمرات العلمية تحت إشراف كودية الزار ووزعنا فيها الأحجبة والبخور بدلاً من ملخصات الأبحاث والمجلات العلمية؟، وأخيراً ماذا لوطرقنا نحن باب الشيوخ ذوى العمه والكاكوله لنسألهم عن الوراثة والإندماج النووى ونظرية النسبية؟!.

ألف علامة إستفهام قفزت إلى ذهنى بعد هذه التجربة الغريبة التى مررت بها ،فقد دعيت لأتحدث فى إحدى حلقات برنامج تبثه قناة فضائية عربية والتى كانت تناقش قضية الأم الحاضنة أو مانطلق عليه نحن تأجير الأرحام، وكان من ضمن الضيوف كوكبة من العلماء والأطباء ولم أتخيل للحظة أن يتم إجهاض الحقائق

العلمية الواضحة والتى لايمسها أى شك لصالح أفكار سائدة تلبس ثوب الدين تارة، وتارة أخرى تلبس ثوب الأخلاق والسياسة، ودائماً تغلف نفسها بما نطلق عليه عقلية القطيع، ومن الممكن أن نختلف حول قضية الأم البديلة أو غيرها من القضايا العلمية ولكن من غير المسموح على الإطلاق أن نخون الحقائق العلمية لمجرد تأييد فكرة سائدة أو إرضاء شيخ هنا أو مؤسسة دينية هناك، والذى حدث فى هذه الحلقة وأذهلنى أن أستاذة الوراثة الكبيرة بقصر العينى تقف لتقول وبأعلى صوتها أنه توجد إضافات فى التركيب الجينى للنطفة أو مانطلق عليه الزيجوت بعد تثبيتها فى الرحم، وأيدها فى ذلك أستاذان للنساء والولادة واللذان أكدا على حدوث التغييرات فى التركيب الجينى لهذا الزيجوت وهو ناتج إلتقاء الحيوان المنوى بالبويضة ،ولم ينقذ الموقف إلا وجود العالم الكبير د. أحمد مستجير وهو واحد من كبار علماء الوراثة فى الشرق الأوسط بل فى العالم حين قال بحسم وبصوت يشتعل غضباً «عيب أن يقال مثل هذا الكلام منكم يادكاتره، دى فضيحه لو حد سمع منكم الكلام ده» ،وأكد على أنه لايمكن أن يحدث أى تغيير فى التركيب الجينى لهذا الزيجوت فى رحم الأم الحاضنة أو البديلة لأن التركيب الجينى وقتها يكون قد إستقر وعليه لايمكن حدوث أى خلط للأنساب، وهذا الخلط هو مابنى عليه مجمع البحوث الإسلامية رفضه لمسألة الأم الحاضنة.

ولولا صرخة الدكتور مستجير الذى تربى على شئ منقرض فى حياتنا إسمه المنهج العلمى فى التفكير، لولاه لكنت قد شككت فى نفسى وفى كل ماتعلمته وللأسف تعلمته من هذه الأستاذه نفسها والتى لوكنت فى إمتحان البكالوريوس قد قلت كلامها فى البرنامج لكان السقوط هو نصيبى أو على الأقل الطرد من اللجنة، والمشكلة أن القضية ليست محصورة فى ثلاثة أسماء ولكنها بدأت تنتشر كالسرطان فى جسد الحقل العلمى والبحثى كله، ومازلت أذكر عندما كنت طالباً وطرحت فى إحدى المحاضرات مسألة حديث الذبابة والتى لابد أن تغمس فى الإناء لأن بأحد جناحيها الداء وفى الآخر الدواء، وكان الشيخ الشعراوى وقتها يدافع عن هذا الحديث بإستماته، حينها وقف الأستاذ المحاضر الطبيب العلامة الجهبذ العائد من السعودية ليقول لنا بكل ثقة سيثبت العلم فيما بعد صحة هذا الحديث حتى ولو كنا نظن أنه يتنافى مع العلم، وبالطبع كفرت بكل العلم الذى يقدمه مثل هذا النوع من الأساتذه الذين يخونون منهجهم العلمى لقاء بعض الريالات ونفاقاً للفقه البدوى العتيق وأيضًا رضوخًا للسائد برغم أن مهمته هو وأمثاله من العلماء ليس أن يرضخوا للسائد بل أن يغيروه ويبدلوه ويثوروا عليه حتى ولو صدموا المجتمع وهزوا ثوابته المزيفة.

وماقاله الأساتذه فى برنامج فضائى قال مثله الدكتور إبراهيم بدران أمام مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر قبل صدور قرار

تحريم تأجير الأرحام، والدكتور إبراهيم بدران جراح كبير وكان رئيساً لجامعة القاهرة ووزيراً للصحة ،وعندما سأله شيوخ الأزهر عن إمكانية تغير التركيب الوراثى للنطفة أو الزيجوت داخل رحم الأم البديلة رد بالإيجاب وقال «جايز جدًا»، وبسرعة البرق ضحى بكل مادرسه على مذبح المجمع المقدس ليرضى العامة ويداعب غرائزهم، وبدون أن يهتز له جفن أفتى بمعلومة طبية هو أول من يعرف أنها مجرد تخريفة، وأن بديهيات علم الوراثة لتى يعرفها أى تلميذ فى ثانوى تناقض مايقوله، ولكن وجوده وسط الشيوخ ورغبته فى الحصول على نصر زائف على جثة العلم والحقيقة جعلاه يدخل دائرة الدجل العلمى وينطق بما لايقتنع به ويردد ما لا يصدقه!.

وبناء على ماقاله د.بدران صدر ماهو أبشع من قرار مجمع البحوث بالتحريم المبنى على إختلاط الأنساب، صدر بيان الردة الذى وقعه ٤٥من أعضاء جبهة علماء الأزهر والذى وصفوا فيه تأييد د.عبد المعطى بيومى لتأجير الأرحام بأنه «جمع معالم الردة، حيث أنه عاند فيها قول الله تعالى وإتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام»، وتناسى هؤلاء العلماء عن عمد أن تلك الآية من سورة النساء تتحدث عن صلة ذوى الأرحام أى الأقارب بدليل أن الآية التى تليها تتحدث عن اليتامى، وهى بذلك لاتتحدث عن الرحم من حيث هو عضو جسدى للحمل والولادة، وهم بذلك يخونون علمهم

أيضاً ـ كمافعل بعض الأطباء ـ حين يلوون عنق الآيات ليبرروا بها رفضهم ويدعموا رأيهم بالباطل ويتاجرون بآيات الكتاب الكريم المقدس فى سبيل أغراض دنيوية زائلة !!.

وطابور الأطباء ممن يرتدون الجبة والقفطان طويل ولايقتصر على ماسبق ذكرهم، بل أن الموضة الحديثة هى ظهور طبيب درويش كل فترة يبيع الفتاوى العلمية التفصيل حسب مقاس الفتاوى الفقهية، والفتاوى الأخيرة عادة ماتكون بطلب من الحكومة التى تزايد وتتدروش هى الأخرى وتطلب الفتوى فى كل شئ بداية من قوانين الإيجار حتى لعبة البوكيمون مروراً بقضايا العلم مثل نقل الأعضاء والختان وعمليات تحويل الجنس ٠٠٠الخ، وصار عندنا فى المجتمع نوعان من العلماء، الأول عالم أكاديمى يتحدث بالأرقام والمعادلات والإحصائيات ، والثانى عالم شرعى يتحدث بكتب الفقه والطب النبوى والإعجاز العلمى ،والأول لايجيد إلا لغة علمية واحدة هى لغة الصح والخطأ، أما الثانى فهو يرهب ويخيف ويتوعد بلغة أخرى هى لغة الحلال والحرام فى مجالات لم تتطرق إليها كتب الفقه من الأساس ،ويظل الإستقطاب على أشده بين الفريقين، ومعها تظل الحيرة من العيون والعقول والقلوب، أيهما نصدق ومع من سيتقدم هذا الوطن ،مع الباحث الأكاديمى أم مع الباحث الدرويش؟!!

ومن ضمن هؤلاء الأطباء الدراوشة الذين تم تجنيد آرائهم فى جيش فتاوى التخلف ،الطبيب الذى قاد معركة الختان وهو للأسف أستاذ نساء وولادة بالجامعة والذى بلغ به الحماس مداه حتى رفع قضية مازالت منظورة أمام القضاء لإباحة ختان الإناث تلك العملية الهمجية التى تنتمى إلى القرون الوسطى ومفاهيم المرأة الجارية وحزام العفة وعصر تجارة العبيد،وقد حاول وزير الصحة السابق على عبد الفتاح إصدار قانون يمنع الختان ولكن هذا الأستاذ وقف ضده فتراجع د.عبد الفتاح وقرر أن يبتعد عن وجع الدماغ وحاول أن يميع الموضوع ويقف موقفاً وسطاً ويبيح الختان فى المستشفيات فقط، ولكن حتى هذا الموقف الوسطى المائع لم يرض الأستاذ الذى أعلن الحرب المقدسة ضد من يرفضون الختان، وهو يعلم مدى الخطر ودرجة البشاعة التى تحيط بهذه العملية، هو أولاً يعرف كطبيب نساء وولادة أن البظر وهو العضو الذى يستأصل فى عملية الختان هو عضو اللذة فى العملية الجنسية، وحرمانها منه يعنى حرمانها من حقها فى الإشباع الجنسى، والكلام الذى يقال عن التهيج الذى يحدث عمال على بطال حتى من الملابس فى ذلك البظر كلام من قبيل التخريف والفكاهة وليس له أصل علمى على الإطلاق ،فالختان يحرم المرأة من الإشباع وليس الرغبة ،لأن الرغبة مركزها المخ وليس البظر، يعرف الأستاذ الجامعى كل هذه المعلومات بل ويدرسها للطلبة ولكن عندما تأخذه نشوة الإفتاء

والدروشة يفرغ محتويات المخ ويقوره كالكوسة بمبشرة الشيوخ ،وينكر كل هذا ويؤيد الختان وينسى النزيف والعدوى والإلتهابات والإلتصاقات وإنسداد قنوات فالوب والألم أثناء اللقاء الجنسى والبرود... إلى آخر كل هذه الكوارث والمآسى التى يحدثها الختان.

وعندما تشجع د.إسماعيل سلام وأصدر قرار منع الختان نتيجة ضغوط وردود الفعل ضد ماشاهده العالم من بشاعة فى فيلم السى. إن. إن الذى صور فتاة فى عملية الجزارة البشرية التى تسمى بالختان ،وكان قرار الوزير ينص على «منع الأطباء والمستشفيات من إجراء عمليات الختان لأنها ليست علاجًا، وإذا حدث وتجاوز الأطباء ذلك فإنه يكون معرضاً للمساءلة القانونية»، والمدهش أن الوحيد الذى تحرك ورفع قضية ضد هذا القانون كان هو الأستاذ الجامعى الأكاديمى وكأن بينه وبين منع الختان تار بايت وقد ظن بعض الخبثاء أن هذه مسألة شخصية وأنه يكسب من هذه العملية فى عيادته، ولكن الحقيقة أنها ظاهرة الطبيب الدرويش التى لاترضى إلا ببيع العلم فى سوق النخاسة، والكارثة أن حرب هذا الأستاذ المقدسة أقنعت شيخ الأزهر السابق جاد الحق الذى إتكأ عليها وجعلها ذريعة لإصدار فتواه الشهيرة بأن «الختان واجب على الرجال والنساء وإنه لو إجتمع أهل بلدة على ترك الختان حاربهم الإمام كما لوتركوا الآذان»!!!،وهكذا ينسى دراوشة الطب

واجبهم الطبى الإنسانى بالأساس ويغرقون فى مستنقع التخلف والرجعية مساندين لأكلة لحوم البشر الذين يذ بحون المرأة من أجل حتة جلدة ويجهزون على أحاسيسها بساطور الفتاوى البدوية رافعين راية النصر الدموية وهم فى الحقيقة مرضى بالكبت الجنسى المزمن الذى يفرغونه فى المرأة الغلبانة بإسم الأخلاق وتحت راية العفة والفضيلة.

ولم تكن قضية نقل الأعضاء أفضل حظاً من قضية الختان، فقد تصدى لها أحد هؤلاء الأطباء وهو د.صفوت لطفى أستاذ التخدير بطب قصر العينى ،ولكن الوضع كان مختلفاً هذه المرة فالحقيقة أنه لم يؤيد أن يعمل الطبيب جزاراً كما فعل مؤيد الختان، بل كانت لديه نظرية أخرى أكثر إحترامًا وهو أن يعمل الطبيب حانوتياً أو تربياً أو على الأقل ندابة !!، فهو لم يناضل من أجل الحياة بل ناضل وأعلن حربه المقدسة من أجل الموت ،لم يدافع عن حق البشر فى الحياة بل إحتشد للدفاع عن حق الجثث فى الراحة داخل ثلاجات المشرحة !!، وظل يكافح ويرهب الحكومة ومجلس الشعب حتى نجح فى تعطيل قانون نقل الأعضاء وحفظه داخل علب فورمالين البرلمان لمدة ربع قرن ،وكلما أطل القانون برأسه هوى عليه د.صفوت بسيفه البتار وكأنه مسرور السياف فى ألف ليلة وليلة ليغتاله فى وضح النهار وأمام أعين الصامتين وأحياناً المتواطئين ،ولم يستمع المجلس ولا الحكومة للدكاترة محمد

غنيم وحسب الله وخيرى السمرة ويس عبد الغفار وحمدى السيد الذين بح صوتهم فى المطالبة بإصدار تشريع يبيح نقل الأعضاء من المتوفين حديثًا لأنه هو الحل الناجح لعشرات الآلاف ممن يموتون يوميًا من فشل الكلى والكبد ويصيبهم العمى من عتامة القرنية ،ولكن كل هذا لم يحرك ساكناً لهذا الأستاذ الذى أصر على أن مهنة الحانوتى أكثر رومانسية ونفعاً من مهنة الطبيب!

والبديهية العلمية التى خانها هذا الأستاذ هى موت جذع المخ التى أجمعت عليها كل المراجع العلمية والتى أكدت على أنه لاحياة بعد هذا الموت الإكلينيكى ،وإقتنع العالم كله بمافيه السعودية والمفروض أنها أكثر تزمتًا من مجتمعنا فى أمور الدين وحتى شيخ الأزهر إقتنع وكتب أنه يوصى بأعضائه بعد وفاته، ولكن د.صفوت لم يقتنع وكنا من الممكن أن نتغاضى عن هذا الرفض وعدم الإقتناع لو كان محصورًا فى دائرة الرأى الشخصى ولكن المصيبة أنه تحول إلى كفاح ونضال وشغب وإرهاب فكرى أودى بحياة الآلاف من المرضى الذين ينتظرون تعطف سيادته هو وأنصاره من بعض الشيوخ جامدى الفكر ومتصلبى الرأى ،والمدهش أن هذا الدكتور نفسه أشرف على رسالة تقول بعكس ماأشاعه وبلبل به أفكار الناس ومنحها درجة إمتياز مما يعنى الموافقة عليها فى أبشع صور النفاق العلمى التى سمعت عنها فى حياتى.

وتظل ظاهرة الطبيب الدرويش الذى يسكن فى رأسه جبة وقفطان مهترئين منذ أكثر من ألف سنة، هذا الطبيب تاجر الشنطة المستعد لتبديل ارائه العلمية فى لحظة وبمجرد إشارة، الطبيب الحاوى صاحب الجلا جلا الذى يخرج الأرنب من القبعة والعلم من مستنقع الخرافة، الطبيب البوق الذى يردد الرأى الشائع لفقهاء الظلام ليستعملوه بعد ذلك ككارت إرهاب وردع وتخويف، الطبيب البقال الذى كل همه إرضاء الزبون على حساب الحقيقة العلمية، إنها ظاهرة تنخر كالسوس فى نخاع المجتمع الذى ظل ينتظر علماءه لإنقاذه فإذا بهم منشغلون فى حلقة الذكر يتمايلون على دقات دفوف الزار ويقرطسون أبحاثهم العلمية ويصنعون منها أعمالاً سفلية وأحجبة وتمائم!!!!!

# ٢٦ - إنتحار مريض الإكتئاب ليس كفراً

تعب غير نافع وإجتهاد لايؤدى إلى غناء إجتهاد

تذكـرت هذا البـيـت الشـعـرى لأبى العـلاء المعـرى وهو يصف لحظات يأسـه الشـديد ووجـدته يلخص فى هذه الكلمـات القليلة تعـريف الإكتئاب ،فالبيت هو التـرجمة الفصحى للعبارة العامية الشهيرة التى يقولها كل المكتئبين «خـلاص مـاعـادتش تفـرق»، هذه الماعـادتش تفـرق هـى مـفـتـاح الإكتـئـاب وهـى تبـدأ من أول حـلاقـة الدقن وهندام الملبس الذى مـاعـادش يفـرق، إلى الحـيـاة نفسـهـا فى مـراحل الإكتئاب المتأخرة والتى من الممكن أن يضع نهايتها المكتئب بنفسه عندما ينتحـر لأنها مـاعـادتش تفرق، مـروراً برشـاقة الجسم والحـرص على العـمل والإقـبـال على مـتع الحـيـاة ...الخ كل هذا الشـريط يمر أمـامه بـلاأدنى إهتمـام أو حتى فـضـول، فالإهـتـمـام قـد تم إغتياله والفضول أودع أمانة فى ثلاجة المشرحة!!

تداعت إلى ذهنى كل هذه الصـور بعـد وفـاة سـعـاد حسـنى حين إحتـدم النقـاش مع صـديقى الذى صـرخ فـى وجـهى "كل الهيصـه دى علشـان سـعـاد حسـنى ،كل ده عـلشـان واحـده ماتت كـافـرة"! ،أصـابنى

الفزع وتساءلت هل حقاً ماتت السندريللا كافرة ؟،وهل حقاً يعد إنتحار المكتئب من قبيل الكفر؟، وتوصلت حينها إلى سر رفض الكثيرين من أصدقائها وأقاربها الإعتراف بإنتحارها، وعرفت أن كل هذا الرفض الشديد إنما يرجع لسبب واحد وهو دفع تهمة الكفر عن سعاد حسنى، كما حدث من قبل بالنسبة لأبيها الروحى صلاح جاهين حين إتفق الجميع على أن يبقى إنتحاره سرًا دفينًا لايذيعه أحد حتى جاء نجيب محفوظ فى مذكراته وأخرج السر من مقبرة الصمت، وقررت أن أرد على صديقى وأمثاله وهم كثيرون بتقديم بورتريه عن الإكتئاب هذا الدراكيولا الذى ينشب أظافره ويغرز أنيابه فى روح الضحية حتى يجعلها كالخرقة المبللة، ويطيح بعصاه العمياء فى وجدانه فيجعله كشظايا الزجاج التى كلما حاولت الإلتئام يدوس بلدوزر الإكتئاب عليها أكثر وأكثر فيحول المكتئب إلى فتافيت إنسان وبودرة بنى آدم وروبابيكية بشر!!، قررت أن أعود إلى محاضرات ودروس أساتذتى عكاشه والرخاوى وشعلان وعبد الستار إبراهيم وغيرهم من عمالقة الطب النفسى وعلم النفس، وهم للأسف لم يناقشوا قضية هل إنتحار المكتئب كفر أم لا؟ ولكنهم علمونا أن نسأل العلم ونتسامح مع المريض النفسى، ونحاول فهمه قبل علاجه والطبطبة على روحه قبل بلبعة الأدوية، فكبسولة التعاطف أهم أحياناً من كبسولة الدواء، وحقنة التواصل أخطر تأثيراً من حقنة المهدئ، وجلسات الود تفوق فى تأثيرها جلسات الصدمات الكهربائية، ولكن دائماً يظل رأى العلم

عندنا يتوارى فى الظل خافت الصوت مشلول الحركة والدليل أننا فى خلال كل هذه الضجة لم نر التليفزيون يعرض برنامجاً عماهو الإكتئاب حتى نتعرف على القاتل الحقيقى ،ولم يستضف أيًا من هؤلاء العمالقة الذين ذكرتهم، فسيد راضى عند أهل ماسبيرو أهم من أحمد عكاشة، وبواب عمارة الزمالك أخطر من شعلان ،وأختها جانجاه بالقطع تفهم فى النفسية وماوراء النفسية لدرجة أنها فتحت علينا حنفية علمها الفياض وغرقتنا تحليل نفسى فشر الرخاوى!!، ولو كنا قد إستمعنا لهؤلاء الأساتذه لعرفنا أن حكاية إنتحار المكتئب مسألة واردة جدًا، وقراره سهل جداً على مريض الإكتئاب ومن الممكن أن يتم فى ثوان وأحياناً وهو فى مرحلة العلاج وبأى وسيلة كانت أقراص أو حرق بالنار أو قطع شرايين يد أو طلقة مسدس، أو حتى ولو كانت القفز من البلكونة والتى إستنكر البعض حدوثها وتساءلوا لماذا لم تستبدلها بالحبوب المهدئة وكأن الإنتحار لابد أن يكون تفصيل على مقاس مزاج هؤلاء السادة !!، والمدهش أنه فى اليوم التالى جاء الرد المفحم وقرأنا عن شقيقتين إنتحرا بالقفز من البلكونة ثم عن زوجة إنتحرت بنفس الطريقة، ولم تثر حولهن الظنون ولم يطالبهن أحد بتناول الحبوب ،ولذلك سنرسم البورتريه لنحاول فك شفرة هذا اللغز المسمى الإكتئاب، وتتبع مسارات ودروب خريطته المعقدة الملتوية المليئة بكهوف الخفافيش وبيوت العنكبوت وأعشاش الدبابير.

نستطيع ببساطة تعريف الإنسان بأنه الحيوان الوحيد الذى يصيبه الإكتئاب وبالتالى فهو الحيوان الوحيد القابل للإنتحار، وهو المعنى الذى عبر عنه صلاح جاهين فى رباعيته الشهيرة التى تقول:

الدنيا أوده كبيره للإنتظار

فيها إبن آدم زيه زى الحمار

الهم واحد...والملل مشترك

ومفيش حمار بيحاول الإنتحار

عجبى!!

ومصر بها حسب إحصائية د.أحمد عكاشة أكثر من ٢ مليون مريض بالإكتئاب وهو عدد خطير ومفزع ولكنه لايصيب الحكومة بالفزع لأنها تحكم ٦٥ مليون مكتئب أصلاً قابلين فى أى لحظة للإنضمام لطابور المرضى تحت الظروف الخانقة والضغوط الشديدة والقهر الذى أصبح كالظل وتعدى منطقة الصديق الحميم ليصبح التوأم اللصيق!، ولأن الحكومة كل يوم فى عيد تطبيقاً لنظرية الفنانة شادية فقد قلصت المستشفيات النفسية وقررت أن تصبح حدود مصر محمية طبيعية للمكتئبين يسرحون فى شوارعها تحت عين وسمع الدولة كجزء من الحفاظ على الآثار وعدم التعدى على البيئة، وإنظر حولك تستطيع أن تتعرف ببساطة على جارك أو صديقك المريض بالإكتئاب، أو حتى أنت عزيزى القارئ إذا عرفت ماهى أعراض هذا المرض الذى هو بالطبع مختلف عن تعكر المزاج أو الإكتئاب الخفيف الوقتى الذى لاينجو منه أحد منا نتيجة

ضغوط عمل أو فقد حبيب أو صديق ...الخ، ولكن ماذا يميز هذا الإكتئاب المرضى عن هذا التعكر المزاجى؟، إنها أربعة خصائص رئيسية هى أنه أكثر حدة ،ويستمر لفترات طويلة، ويعوق الفرد بشكل خطير عن أداء واجباته المعتاده ،وأخيراً أسبابه قد لاتكون واضحة جلية نستطيع الإمساك بها والإشارة إليها بأصبع الإتهام.

ومن الممكن أن تكون بذرة الإكتئاب مرتبطة بحادث مأساوى معين وهنا نطلق عليه الإكتئاب التفاعلى، أما إذا إستمر بعد زوال السبب مدة طويلة بحد أدنى أسبوعين وأصبح يتردد كالضيف الثقيل كل فترة بلاسبب واضح ومفهوم فهنا نسميه الإكتئاب العصابى، وأنا أفضل تسمية د.الرخاوى الإكتئاب اللزج أو الرخم الذى يزحف كالسحلية على السلوك والوجدان ببطء فى منحنى متصاعد وفيه يبدو الشخص إعتمادياً سلبياً كثير الشكوى ناعياً حظه ومتفنناً فى إكتشاف أخطائه والإعلان عن جوانب ضعفه، وأحياناً يكون هذا الإكتئاب موسمياً يهاجمه فى فصل معين، وسنحاول أن نعرض لأعراض الإكتئاب ببعض التفصيل لأنه مجموعة أعراض وليس عرضاً واحداً دقيقاً واضحاً يسهل تشخيصه، وسنحاول للتسهيل أن نلخصها على هيئة جمل إقتبسناها من على لسان المكتئب ومن خلال سلوكياته :

١- ال DYSPHORIA أو الإحساس بعدم البهجة، يقول المكتئب «الدنيا ماعدش فيها حاجة تبسط والواحد بقى غبى وفاشل فى كل حاجه».

٢- الكسل والخمول: يجلس المكتئب طوال النهار والليل أمام التليفزيون وبالطبع هنا فى مصر يساهم التليفزيون فى زيادة إكتئابه فيكفى عليه ليالى التليفزيون!!، ونجد السيدة المكتئبة تقول «وحتى الطبيخ ماعدش ليا نفس أعمله»، والرجل يقول «حتى القعده على القهوه ماعدش لها طعم».

٣- الشعور بثقل الأعباء:فيقول «الطالب الواجبات كتيره قوى» ويشكو الموظف من إضطهاد مديره الذى يحمله كافة ملفات الإدارة، وتصرخ ربة البيت فى نوبة بكاء ونحيب "كل حاجة عليا حرام عليك إنت وعيالك».

٤- الأمراض النفسجسميه: يلف المريض كعب داير على الأطباء بلاعلاج ناجح وفعال ويعانى من عدة شكاوى جسديه هى فى الحقيقة إنعكاسات نفسية منها الصداع الدائم ،والطنين فى الأذن، والضيق فى التنفس ،وصعوبة فى الهضم، الدوار، ألم فى الأطراف، حكة فى الجلد ٠٠٠الخ.

٥ -عدم الرضا عن العلاقات الإجتماعية والميل للإنعزال والإنسحاب من الحياة لدرجة أنه لايستطيع حتى الرد على الإهانات الموجهة إليه وبالتالى يفقد دعم الآخرين له.

٦- تضخم وتورم مشاعر الذنب واللوم لديه والميل للتفكير السلبى والإنهزامى: وكما يلخص د.أحمد عكاشة هذه الأعراض من حصيلة شكاوى مرضاه فيقول" يصرخ المريض لماذا لايأتى الموت

وأستريح . أخاف من الموت بسبب هذه السيارات التى تمرق فى الشارع . لاأريد التوقيع على هذه الورقة فأكيد هناك عقوبة تنتظرنى . إبنى خرج أكيد عربية حتخبطه . أنا ملوث وعملت معاصى كتير قوى فى حياتى ماتتعبش نفسك يادكتور فى علاجى أولادى أحق بتمن العلاج ماتعرفش طريقة تخلصنى بها من حياتى . أنا عندى ستين سنة بس مش قادر أسامح نفسى على اللى عملته فى البنت اللى خطبتها من تلاتين سنه -مش عارف أنام بأنام ساعتين تلاته بالليل وبعدين أفضل صاحى لحد الصبح . مش قادر أقرب لمراتى خلاص زيى زيها فى السرير!!!!

الإكتئاب أخطر من السرطان هكذا تقول الأعراض فالألم فى الروح وليس فى الجسد ،والتآكل ليس فى الخلايا بل هو فى قيمة وجدوى الحياة نفسها ،فالقليل من مرضى السرطان ينتحرون لكن من ١٠ إلى ١٥٪ من مرضى الإكتئاب ينتحرون بل أن ٧٠٪ من حالات الإنتحار الناجحة وراءها الإكتئاب، فهو السبب الرئيسى والمجرم الحقيقى فى أكثر من ٨٠٠ ألف حالة إنتحار سنوياً حسب تقديرات منظمة الصحة العالمية، وإذا طبقنا قاعدة ليس على المريض حرج فى حالة الإكتئاب من المؤكد ان الكثيرين سيحتجون ويعترضون لأنهم يتخيلون أن الإكتئاب قرار شخصى أو رفاهية عقلية إرادية وكذلك الإنتحار الناتج عنه، والحقيقة غير ذلك فكيمياء المخ عند المكتئب مشوشة وغير متوازنة وبإختصار ملخبطة، فكيف نحاسب هذا المسكين على تلك اللخبطة اللاإرادية ،وكيف

نحاسب شخص جيناته الوراثية مطبوع عليها بصمة الإكتئاب، هل نحن نسأل مريض السكر ونحاسبه لماذا جاء له هذا المرض؟، بالطبع لا فالشخص المريض بالإكتئاب كيميائه مختلة كما إختلت كيمياء البنكرياس فى مرض السكر ،فبعض الأبحاث المبكرة أشارت إلى الإختلال مابين عنصرى الصوديوم والبوتاسيوم داخل الخلايا العصبية، والآن أصبح مستقراً أن الموصلات العصبية فى المخ والتى وظيفتها توصيل الرسائل القادمة والعائدة من الأعصاب المختلفة هى التى تؤثر فى الحالة المزاجية وهو ماإعتمد عليه الباحثون فيما بعد فى علاج الإكتئاب وهو إحداث التوازن فى هذه الموصلات العصبية مثل الدوبامين والسيروتونين والنورإبينفرين، وهى المواد التى تقوم بدور البوسطجى الذى من الممكن أن يحمل إليك رسالة فرح وبهجة أو يسلمك بعلم الوصول جواب عكننة ويأس ،وإذا شبهنا المخ بجهاز الترانزيستور فهذه الموصلات هى المؤشر الذى يضبط الموجة فإذا حدث به خلل تشوش الصوت وتوقف البث وتداخلت المحطات ،وبالطبع لاتتحرك هذه الكيمياء فى فراغ ولكنها لاتحدث إلا فى شخصيات مهيأة مسبقًا موضوعة فى ظروف تحفز وتثير هذا الخلل، إذن نخرج بنتيجة مؤداها أن المنتحر المكتئب ضحية وليس قاتلاً ،مجنيًا عليه وليس جانياً، تعيسًا وليس كافرًا.

والتعاسة تختلف عن الضيق ،فالتعاسة إحساس مزمن وخانق أما الضيق فهو وقتى ومن الممكن التخلص منه ،وبعض الضيق وقليل من الإكتئاب مطلوب ومسموح به ويمكن تجاوزه وغفرانه أما

التعاسة فهى يأس مطبق يودى بكل ماهو جميل فى حياتنا ويساوى بين الفرح والحزن والحياة والموت ،ومن أهم أسباب التعاسة إفتقاد الدعم النفسى والذى عانت منه سعاد حسنى حينما عاشت فى بلاد الضباب وحيدة تجتر ألامها وأحزانها وتكبر وتشيخ منفردة كزرع يذبل فى أرض جرداء، ومفتاح مأساة سعاد حسنى من الممكن تلخيصه فى رسالتها المسجلة على الموبايل والتى تقول «أنا زوزو النوزو كوالنوزو من فضلك إترك رسالة وسأتصل بك فيما بعد»، فهى تصر على أن ترجع لمصر زوزو والجسد يخونها والكل ينتظرها والنتيجة تغلب الواقع والضغوط على مقاومتها ،فالدعم النفسى عندما تكبر وسط أهلك وأصدقائك يجعلك تعبر النفق المظلم بسلام، أما أن تخلق نموذجاً لن يتحقق فهذا هو المستحيل ،وساعتها الحل هو تدمير ذلك الجسد الذى غدر بك وتحطيمه ، وأعتقد أن هذا هو السبب فى إنتحارها بتلك الطريقة المدمرة وعدم إختيارها للحل السهل عن طريق تناول المهدئات.

وحتى نفهم أسباب تلك التعاسة تعالوا معاً نفتح الشباك الموارب فى عقل أهل الإكتئاب المساكين لنعرف كيف يفكرون ويتفاعلون مع الواقع ،ويجعل منهم شخصيات هشة سلبية التعامل والتصرف، كمن يتعامل مع النار التى شبت فى بيته بتركها تلتهم أثاث البيت لينزوى فى حجرته ويجهش بالبكاء.

وأول أساليب تفكير المكتئبين هو مانطلق عليه أسلوب التهويل والتهوين، فالمكتئب يبالغ فى إدراك الأشياء فيهول عيوبه ويهون من مزاياه، والمدهش أن المكتئب هو أشد البشر موضوعية وصدقاً ولكن التوازن النفسى للأسف يتطلب قدراً قليلاً من الزيف و«الممايِنة»، فالمكتئب يتعامل مع الحياة ويقتحم معركتها بلادروع أو بلا مايسميه علماء النفس ميكانيزمات الدفاع مثل الجملة الخالدة «هو أنا الغلطان الوحيد ماالكل بيغلط يعنى هى جت عليا»!!.

ثانيًا: التعميم الذى هو أسلوب مرضى فى التفكير يجعلك مشلولاً بعد أى خبرة فاشلة فى الحياة، وهو يجعلك لاتثق بالنساء لأن واحدة رفضتك ،ولاتثق بعملك لأن مديرك أنذرك ،ولاتثق بنفسك لأن فلانا إنتقدك.

ثالثًا: الظاهرة التى يطلق عليها د.عبد الستار إبراهيم الكل أو لاشئ أو كما قال عادل إمام ياأبيض ياأسود وهذا يورث التصلب ومن ثم الإنكسار بسهولة، فالبحث عن الكمال بطريقة مرضية موسوسة تؤدى إلى الإحباط السريع .

رابعًا: عزل الأشياء عن سياقها كأن يعود الإنسان من عمله لايتذكر إلا من تجهم فى وجهه أو وجه له اللوم، ولايتذكر من تودد إليه أو وجه إليه التحية.

خامسًا: التفسير السلبى لما هو إيجابى، وتحويل كل النقاط المضيئة فى حياته إلى ستائر سميكة سوداء تحجب الرؤية والحكم

السليم، فيصبح الأطفال مصدر إزعاج، والفلوس مثارًا للقلق، والزوج الطيب راجل بارد و«برطه»، والشقة الواسعة تعب وهدة حيل فى التنضيف ٠٠٠الخ، فالمنظار أسود غطيس ونصف الكوب الفراغ هو مايجذب النظر.

سادسًا: القفز إلى الإستنتاجات فيقرأ المكتئب أفكار الآخرين ويترجمها خطأ والمصيبة أنه يتصرف على أساسها، فعندما يرد عليه الأنسر ماشين يشك فى أن صديقه يكرهه ولايريده، وعندما يعزم عليه أحد بسيجارة غالية وفخمة فهو يريد إهانته وتذكيره بأنه فقير ٠٠الخ.

سابعًا: التفكير بطريقة المنجم وقارئ البخت، فالمكتئب يتوقع السلب دائماً ويحول هذا المستقبل الأسود إلى يقين ويتصرف على أساسه حتى مع الطبيب نفسه، فيتوقع فشل العلاج ويستكمله وكأنه تحصيل حاصل.

ثامنًا: التأويل الشخصى للأمور كأن يدور حديث داخل غرفة المدير فى وجودك يتطور إلى مشاجرة فتفسر كل هذه المعركة على أنها بسبب وجودك النحس فى هذا التوقيت وأنك لو كنت غائباً ماكان حصل اللى حصل !!!

والإكتئاب ليس وليد اليوم ،من الممكن أن يكون قد إنتشر وزادت حدته ،ولكنه قديم منذ أن خلق الإنسان فقد تحدث عنه أمنحتب أبو الطب المصرى القديم، وأبقراط أبو الطب الإغريقى، وتحدث

أفلاطون فى جمهوريته عن حقوق المرضى النفسيين، وورد فى كتب العهد القديم قصة شاؤول الذى أصابته الأرواح الشريرة بحالة إكتئاب عقلى دفعه إلى أن يطلب من خادمه أن يقتله ،وعندما رفض الخادم الإنصياع لأمره أقدم هو على الإنتحار، ومن يقرأ مسرحية هاملت لشيكسبير يقرأ وصف والد أوفيليا لهاملت عندما صدته إبنته التى كان يهيم بها البطل الدنماركى ،يقول شيكسبير:

«فلما صدته عن نفسها ، أصابه الأسى ،ثم إمتنع عن الأكل ، ثم حرم النوم، ثم أصيب بالضعف ، ثم إبتلى بالخفة، وبهذا التردى والهبوط بلغ درك الجنون الذى يهذى الآن فيه ويبكينا جميعاً عليه ؟؟؟.

أما تشرشل السياسى الإنجليزى الداهية فقد أطلق على إكتئابه الكلب الأسود!!، وعانى منه سياسيون كثيرون غير تشرشل منهم أبراهام لينكولن وروزفلت ،أما الفنانون والمبدعون فلايحصى عددهم فمنهم كافكا وكيتس وجوته وفان جوخ وإزرا باوند وهيمنجواى وفيرجينياوولف وشومان ومى زياده وصلاح عبد الصبور وصلاح جاهين وتشايكوفسكى وألبير كامى ومارلين مونرو وغيرهم ممن لاتتسع لهم الصفحة، ولكن المهم لماذا يتسلط الإكتئاب أكثر على المبدعين ؟، وهو السؤال الذى عندما طرحته فى عدد سابق لتفسير حالات الإنتحار عند بعض المبدعين ،فسره البعض على أنه دعوة للإنتحار أو أننى أقصد أن المبدع الذى لم ينتحر هو فاشل فنيًا، وهو بالطبع تفسير عبيط لايصدر إلا عن حانوتى!!،

ولكنى كنت أقصد أن المبدع هو أسهل فريسة لضبع الإكتئاب،فالمبدع جهاز رادار حساس، أعصابه عارية فوق جلده، جهازه العصبى والنفسى مستفز ـ بفتح الفاء ـ على الدوام، فى صراع دائم مع واقعه وخصام مزمن مع مجتمعه لأنه يطمح دائماً إلى المثالى ،هو كالموج إذا سكن مات ،لايستقر على شاطئ ،مسافر على الدوام بتذكرة أبدية مفتوحة وليست له محطة وصول ،ويمثل هذا الضغط النفسى عبئاً جسيماً على جهازه العصبى ،فتطرف أحلامه يجعله مكتئبًا عندما يكتشف تكسر كل هذه الأحلام على شاطئ الواقع كما حدث لصلاح جاهين مثلاً عندما إكتشف أن شعارات الثورة التى روج لها فى أغانيه وأشعاره مجرد سراب فسقط فى هوة الإكتئاب، وكما حدث لسعاد حسنى التى إرتدت ثوب الثورية والناس تنتظر منها البنت الأمورة الشقية، أرادت أن تنضم إلى ذوى النظارات السميكة والياقات البيضاء من مثقفى الستينات والسبعينات وهى التى لم تتعلم الكتابة إلا وهى فى السادسة عشرة ،كان رصيدها فى بنك الثقافة قليلاً فبدأت السحب على المكشوف حتى تم الحجز عليها فى سجن الإكتئاب المزمن.

الفنان لايعرف الحلول الوسط ولايتقن فن إرضاء جميع الأطراف، فهو متطرف فى مشاعره وهذا سر تألقه ،نرجسى إلى حد كبير وهذا شئ مشروع لخدمة إبداعه، إستعراضى وطاووسى فى معظم الأحيان ولابد من مسامحته والصفح عنه حتى لايتحول

إلى دجاجة لاهم لها إلا إلتقاط حبات القمح المتناثرة التى يجود بها الراعى أو السلطة، حالم بدرجة مزعجة وهذا مايجعل إبداعاته نبوءة وفنه مرآة للمستقبل، ولأنه صادق فإن إكتئابه يسقط عنه كل حصونه النفسية فيخرج عارى الصدر مثخنًا بالجراح حتى يسقط ،ولانستطيع أن نقول عن إنتحار بعض المبدعين المرسوم المجبرين عليه إلا أنه لحظة صدق ومواجهة حارة وحميمة وصريحة إلى حد النزف، إنها أعلى لحظات الصدق المطلق ولكن من منا يحتمل الصدق المطلق.

# ٢٧ - الكورتيزون القاتل المظلوم

لم تكن وفاة سعاد حسنى كارثة على الفن فقط بل كانت كارثة على الأطباء أيضاً، فقد تحول كل سكان مصر المحروسة فجأة وبدون سابق إنذار إلى أطباء، فراجت سوق الفتاوى وكسدت عيادات الأطباء، وأصبح الجميع يفهم فى الإكتئاب، وصار الكل جهابذة فى العصب الخامس (ملحوظة: الشلل الذى أصاب وجه سعاد حسنى كان نتيجة العصب السابع وليس الخامس)، أما الكارثة الكبرى فقد كانت فى أن أكثر من٦٠ مليون مصرى بقدرة قادر حصلوا على درجة الدكتوراه وتم تعيينهم كأطباء متخصصين من منازلهم فى مادة «الكورتيزون»، وصار الكورتيزون هو بعبع كل بيت مصرى ،وتحول إلى دراكيولا مصاص الدماء، وأصبح من رابع المستحيلات أن يكتب دكتور فى الروشته كورتيزون وإن إضطر للإعتراف بخطيئته يخبر مريضه بأنه دواء شبيه باللى مايتسماش فهو إبن عمه ولايحمل نجاسته أوأخطاره، والطبيب معذور فى كذبته البيضاء تلك فماأن يتم النطق بلفظ كورتيزون أو إن إستطاع المريض أن يلتقط من خط الدكتور «المنعكش» إسمه المريب، ينتفض المريض من على كرسيه منتفخ الأوداج مشرئب العنق صارخاً

بطريقة يوسف وهبى «لا٠٠٠كورتيزون عليه اللعنه»، أو هاتفًا بطريقة مظاهرات حسن الإمام "لا كورتيزون بعد اليوم٠٠٠ الموت على يد عزرائيل أفضل من الإستقلال والشفاء على يد الكورتيزون»!!!

والشئ الذى لاتعلمه عزيزى القارئ وأرجوك ألا تندهش أوتنزعج، أنه لايمكن أن تكون قد عشت عمرك حتى الآن دون أن تعالج بالكورتيزون تحت أى مسمى أو بأى طريقة تناول، فلو كنت قد تعرضت لأرتيكاريا يوماً ما فحتماً ستكون قد حقنت بأمبول كورتيزون، أما إذا كنت قد إحترفت كرة القدم فعليك أن تسأل جميع لاعبى كرة القدم عن حقن الكورتيزون المفاصل والأربطة والتى أدمنها البعض حتى أجبرته على ترك المستطيل الأخضر، وكذلك لو أصابتك الحساسية سواء فى الصدر أو الجلد أو العين أو الأنف ٠٠٠٠الخ من المؤكد أيضاً أنك قد لجأت أو لجأ طبيبك إلى الكورتيزون سواء على هيئة أقراص أو حقن أو مراهم أو كريمات أو لوسيون أو قطرة أو بخاخة ،وكذلك الإكزيما أو حتى إنخفاض ضغط الدم وغيرها من المؤكد أنك قد دخلت المياه الإقليمية لهذا الفك المفترس ،والمدهش أنك تعيش وتقرأ الجريدة الآن وتشرب الشاى بطريقة عادية وبدون أن تصبح شجرة جميز مبعجرة من أثر الكورتيزون ،وذلك لسبب بسيط سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد وهو أن جرعات الكورتيزون التى تسبب أخطاراً هى جرعات عالية جداً ولكى تؤثر بشكل سلبى لابد أن تؤخذ

لفترات طويلة وممتدة، و هذه الجرعات تستخدم فى أمراض محدودة وخطيرة ويكون فيها الكورتيزون منقذاً للحياة ولابديل عنه.

وستندهش أكثر حين تعرف أن هذا الوحش المسمى الكورتيزون هو ضيف دائم داخل جسمك تفرزه غدة صغيرة تجلس مستكينة فوق الكلى، بتعبير أدق تفرزه قشرة هذه الغدة الجار كلوية فى الدم مباشرة كواحدة من الغدد الصماء أى التى ليس لها قنوات تفرز من خلالها ،وذلك معناه أن هذا الديناصور يعدو ويمرح داخل جسدك بكل حرية ولاتملك له رفضاً أو منعاً كما تفعل مع طبيبك ،ولكنه داخل جسمك وبالمقادير المقننة المضبوطة يصبح مروضاً هادئ الطباع سليم النية ،ولكن إذا تعدى الحدود الفسيولوجية ولفترة محدودة (إسبوعين مثلاً) وبجرعات بسيطة (قرص أو قرصين أو حتى ثلاثة) صار دواء سحرياً ناجحاً ،أما إذا تعدى هذه الحدود وتناولناه لمدة سنين وبجرعات كبيرة وضخمة فحتماً سيعود هذا الديناصور إلى بدائيته الأولى وتنمو له أنياب ومخالب يغرسها أول مايغرسها فى المريض نفسه ،إنه أهم دواء وكذلك أخطر دواء إخترعه الإنسان منذ بدء الخليقة.

والكورتيزون الذى نتكلم عنه هو هورمون الحياة، وهو الهورمون الذى نواجه به التوتر والخطر وبدونه لاحياة، ولذلك فمرض أديسون والذى تفقد فيه الغدة القدرة على إفراز الكورتيزون مرض قاتل إذا لم نسارع بإعطاء الكورتيزون البديل، ونستطيع أن نقول أن

هذا الكورتيزون الذى صدع الأدمغة إسم حركى للهورمون المهم الفعال الآخر وهو الهيدرو كورتيزون، فالأول وهو الكورتيزون المشهور هورمون خامل لانفع فيه ولاضرر ولابد أن يتحول إلى هذا الهيدروكورتيزون فى الكبد حتى يؤدى وظائفه البيولوجية سواء فى التمثيل الغذائى أو فى تنظيم الصوديوم والبوتاسيوم فى الجسم، وقد تقدم العلم الآن وقدم بدائل تخليقية مصنوعة فى المعامل تستطيع أن تعطى التأثير العلاجى المناسب، وقد لجأ العلماء لذلك لأن الجرعات الفسيولوجية الضئيلة التى يفرزها الجسم لاتنفع فى الأغراض العلاجية المضادة للإلتهابات أو المثبطة للمناعة.

قصة إكتشاف الكورتيزون قديمة جداً بدأت منذ عام ١٨٥٥ عندما كتب د.توماس أديسون ملاحظاته على أمراض الغدة التى فوق الكلى، وبعدها بعام أجرى العالم الفسيولوجى براون سيكوارد تجارب على الحيوانات أزال فيها هاتين الغدتين فماتت الحيوانات على الفور وقوبل هذا العالم بإستهجان شديد وإتهمه الآخرون بأن العملية هى السبب فى الموت وليس إزالة الغدتين،ومع نهايات القرن التاسع عشر حاول عالم آخر علاج مرض أديسون الذى سبق شرحه بكورتيزون مستخلص من غدد حيوانات وفشل لأن هذا الكورتيزون المستخلص كميته ضئيلة وغير مستخلص من البشر، وفى سنة ١٩٢٠ بات واضحاً أن هورمون الكورتيزون مختلف عن هورمونات أخرى تفرزها هذه الغدة وأهمها الأدرينالين وتأكد العلماء أنه يفرز من قشرة هذه الغدة، وفى سنة ١٩٣٥ تم فصل

الكورتيزون من الغدة بطريقة سليمة، ثم بعدها تم تصنيعه فى المعمل بطريقة معقدة من عصارة الصفراء، وأتيح بعدها للعرض فى السوق التجارى لأول مرة فى عام ١٩٤٩، ويعود الفضل فى هذه الثورة التى قلبت العالم رأساً على عقب للكيميائى الأمريكى إدوارد كيندال والذى حاز بسبب إكتشافه العبقرى على جائزة نوبل ١٩٥٠، وحينما مات كيندال فى ٤ مايو ١٩٧٢ نعاه العالم كله بصفته منقذ البشرية من الألام، ولكن مازال الجميع ينتظر المعجزة التى سيفوز بسببها من يحققها على عشرين نوبل، وهى حل المعضلة الأزلية فى كيفية توجيه سلاح الكورتيزون لهدفه المباشر دون أن يذهب إلى أهداف أخرى أو بالأصح دون تحقيق كل أعراضه البيولوجية الأخرى التى لايحتاجها المريض ،فعلى سبيل المثال يعالج الإلتهاب بدون رفع الضغط، أو يقضى على الحساسية بدون زيادة السكر....وهكذا ،إذا حدث هذه ستكون هدية القرن الجديد.

وإلى أن تحدث المعجزة لابد أن نفهم ونعرف ماهو تأثير الكورتيزون ؟، أو بعبارة أخرى ماذا يفعل الكورتيزون الذى يتجول فى أجسادنا ويرحل فى خلايانا وأنسجتنا؟؟، بإختصار نستطيع أن نضع خطين عريضين أو وظيفتين أساسيتين للكورتيزون هما:

١ - وظيفة تتعامل مع المعادن والأملاح فى الجسم أو بالأصح الصوديوم والبوتاسيوم فيزيد تخزين الصوديوم فى الكلى ويزيد إفراز البوتاسيوم فى الدم، ولو عرفت أن ملح الطعام إسمه العلمى كلوريد الصوديوم فستعرف جيداً أن تخزين الصوديوم أو الملح

يخزن المياه وبالتالى ينفخ الجسم ويجعله كالبالونة وذلك فى حالة الجرعات الخارجية الزائدة.

٢- وظيفة تتعامل مع التمثيل الغذائى العضوى للكربوهيدرات والبروتينات والدهون كالتالى:

( أ ) بالنسبة للكربوهيدرات أو المواد النشوية:يزيد إنتاج الجلوكوز من الكبد ويقل إستهلاك الجلوكوز فى الخلايا مما يرفع نسبته فى الدم وهو عكس وظيفة الأنسولين ،وهكذا مع الجرعات الدوائية العالية من الممكن أن يسبب مرض السكر .

(ب) بالنسبة للبروتينات: يقل بناء البروتين ويسرع إيقاع هدمه ولذلك يحدث ضعف فى العضلات وهشاشة فى العظام ويقل نمو الأطفال ويضمر الجلد ،وتزيد رقة الشعيرات الدموية ويصبح من السهل حدوث كدمات ،ويصير إلتئام أى جرح أو حتى قرحة المعدة أو الإثنى عشر صعبة وبطيئة.

(جـ) بالنسبة للدهون: يتأثر توزيع الدهون فى الجسم بتأثير الكورتيزون وهذه هى مأساة زيادة الوزن التى تحدثت عنها الصحف بالنسبة لسعاد حسنى، فالدهون تزيد فى منطقة الأكتاف فيحدث مايشبه «القتب»، وتزيد فى منطقة البطن فيحدث الكرش، وتزيد فى منطقة الوجه فيحدث مايسمى وجه القمر، وهكذا كان القمر وراء سعاد حسنى حتى آخر حياتها، فهى أخت القمر فى طفولتها عند باباشارو ووجه القمر فى لندن عند أطباء الغدد الصماء.

(د) تأثيرات أخرى: • الكورتيزون مضاد للإلتهابات وهذه هى أهميته القصوى التى جعلت منه عصا سحرية فى يد الأطباء ،وكان الهدف الذى إكتشف من أجله دكتور كيندال الكورتيزون هو علاج إلتهابات المفاصل أو بصفة خاصة الروماتويد ،ولكن هذه العصا السحرية من الممكن أن تتحول إلى خنجر يطعن ظهر المريض إذا كانت هذه الإلتهابات مصحوبة ببكتيريا وصديد أو فطريات وأعطينا جرعات كبيرة من الكورتيزون دون الإلتفات إلى هذه البكتيريا.

• الكورتيزون مضاد للحساسية وله بعض التأثيرات النفسية مثل الإكتئاب والتى يرجعها العلماء إلى الخلل فى توازن الصوديوم والبوتاسيوم، ولذلك كانت الصعوبة فى علاج مريضة مثل سعاد حسنى من إلتهابات العصب السابع والعمود الفقرى بالكورتيزون الذى يسبب بعض الإكتئاب فى نفس الوقت الذى تعانى هى من إكتئاب كان موجوداً بالفعل من قبل.

كان إكتشاف الكورتيزون التخليقى ثورة بكل المقاييس، وكان سعر الجرام من هذا الهورمون السحرى مائتا دولار عند إكتشافه ثم إنخفض إلى خمسين سنتاً فى عام ١٩٦٥ والآن يبلغ سعر أغلى حقنة كورتيزون عشرة جنيهات مصرية فقط لاغير، وأصبح الكورتيزون بطلاً لمعظم روشتات الأطباء وفى بعض الأحيان البطل الوحيد، وهناك بعض التخصصات مثل الأمراض الجلدية وأمراض الحساسية لوأصدرنا قراراً بمنع كتابة الكورتيزون فى روشتاتهم،

حتماً سيعتزلون الطب ويغلقون عياداتهم بالضبة والمفتاح ومن الممكن أن يتوبوا عن الطب كالفنانات التائبات عن الفن!!، وليست هذه نكتة ولكنها حقيقة يعبر عنها المثل القائل «ياما فتح الكورتيزون بيوت »!!، وبالطبع هذه البيوت هى بيوت الأطباء الذين يشكرون الدكتور كيندال فى كل صلاة أن أنقذهم من العجز والفشل أمام الحالات التى كانت مستعصية ومستحيلة قبل إكتشاف الكورتيزون.

وإستخدامات الكورتيزون العلاجية أكثر وأضخم من أن يحتويها مقال فى صحيفة، فهى تقريباً وبلامبالغة ثلاثة أرباع الطب، وبالنسبة لبعض التخصصات هى كل الطب، وأشكال تناوله هى تقريباً كافة السبل المتاحة فى علم الأدوية فهو قرص وحقنة ومرهم وبخاخة وقطرة ولوسيون٠٠الخ، أى أن كتاب الكورتيزون هو صفحات بلانهاية بإتساع الكون كله، وإستخداماته لاحصر لها ومنه أزمات الربو والحساسية بكافة أشكالها فى الجلد والعين والأنف والصدر، إكزيما الجلد والذئبة الحمراء والداء الفقاعى واللوكيميا (سرطان الدم) وبعض أنواع الأنيميا وهو يستخدم بعد حالات زرع الأعضاء وفى الإلتهاب الكبدى ،وأيضاً فى الروماتويد وإلتهابات المفاصل والأربطة وبعض أمراض القولون والكلى، والنقرس الذى يقاوم الأدوية العادية، ويستخدم الكورتيزون عند إرتفاع نسبة الكالسيوم بعد بعض الأورام الخبيثة، وحتى أطباء التجميل يستعملونه فى حقن الندبات التى تشوه الجسم، وأيضًا يستخدمه أطباء الأنف والأذن فى علاج إلتهابات العصب السابع التى هى

بداية مشاكل السندريللا التى جسمت الخطر الكورتيزونى أمام الناس.

بالطبع كانت هذه قطرة فى بحر الكورتيزون الفياض وإستخداماته المتعددة ،والتى ألفت فيها رسائل دكتوراه لاتتسع لها مخازن جمرك المطار !!، ولذلك فالكورتيزون هو آلة موسيقية تتحول على يد الطبيب المدرب الماهر إلى كمنجة رقيقة حانية تمسح دموع الشاكى ،أما الطبيب الكشكول الذى يستعمله بلاوعى أو فهم فهو فى يده طبلة مزعجة تصم الآذان وتصيب الجميع بالصمم ،إنه بالفعل مفتاح سحرى من الممكن أن يفتح الجنة ومن الممكن أن يدخل بنا إلى كهف النار ،وبالفعل كم من الجرائم أرتكبت تحت إسم العلاج بالكورتيزون ،ولم أجد دواء ينطبق عليه بيت الشعر العربى الشهير «وداونى بالتى كانت هى الداء» أصدق من الكورتيزون ،ففى كتب الطب باب كامل عن مرض إسمه «كوشينج» المسبب بكورتيزون الأطباء iatrogenic cushing syndrome وهو جريمة مكتملة الأركان يسرق فيها الطبيب عمر المريض مع سبق الإصرار والترصد وذلك بعد دفع الفيزيته والدعاء للطبيب بطول العمر وسعة الرزق !!، وأعراض هذا الكوشينج المرعب هى:

- زيادة عدد مرات الشرب والتبول.
- زيادة الشهية التى تصل لحد "الفجعة".
- زيادة الوزن .
- الضعف الشديد والتعب لأقل مجهود.

- فقدان الشعر وضعف نموه.
- زيادة صبغات الجلد مما يؤدى للون داكن .
- ضعف وضمور الجلد وإمتلاؤه بالكدمات.
- العقم.
- سهولة العدوى بالبكتيريا والفيروسات والفطريات.

والسؤال العويص الذى أتوقع أن يسأله كثير من القراء هل دخلت سعاد حسنى نتيجة كثرة الكورتيزون أو خطأ الأطباء في مبادئ هذا الكوشينج أو هذا المرض؟، بالطبع لاأستطيع أن أرجم بالغيب، ولكن الذى أستطيع أن أؤكده أن السندريللا ستحتل محاضرات وسكاشن كليات الطب كلما تحدث أحد الأساتذة عن الكورتيزون ،كما يحتل حبيبها العندليب نفس الإهتمام حين يتحدثون عن تليف الكبد بالبلهارسيا، وهكذا أحياناً تحتل النجوم صفحات كتب الطب بدلاً من أغلفة مجلات الفن!

ومظلوم أيها الكورتيزون، ظلمك بعض البقالين وتجار الشنطة ممن يرتدون البلاطى البيضاء وهم يتاجرون بأقدس المهن الإنسانية، فأنت دواء سحرى ولكن فى يد من يفهمه ولايلجأ إليه كسبوبة أكل عيش ،فى يد من يعرف كيف ومتى يعطيه بالجرعة المضبوطة؟ وكيف ومتى يسحبه بالتدريج والتأنى؟، فالكورتيزون دواء أرجو ألا نتهمه ويصيبنا الرعب منه، حتى لو أدى لإنتحار سعاد حسنى وإعتزال الخطيب وثراء الطبيب فلان وسجن الطبيب علان!!.

# ٢٨ - فتاوى بن باز على الإنترنت

**- على الإنترنت صبغ الشعر باللون الأسود حرام والتبول واقفاً غير مستحب!**

**- شرب البيريل حرام وأكل عين السمكة حلال.**

**- الكمنجة و الناى و التمثال هدايا تشجع على الكفر وطبيب النساء لامكان له على الإنترنت.**

أثناء تجوالى فى شبكة الإنترنت ،خطر على بالى سؤال هام وهو ماذا فعل المسلمون بإمكانياتهم المالية الهائلة وبماذا ساهموا فى هذه الشبكة الخطيرة والتى أصبحت لغة العصر الحديث ؟، هل تحول الإنترنت إلى مجرد لعبة يستخدمها عقل مازال يعيش فى القرون الوسطى أم أن هذا العقل قد تطور وتطورت همومه ومطالبه المترجمة على شبكة الإنترنت ؟، ولم أجد خيراً من المواقع الإسلامية للرد على هذا السؤال العويص الشائك، وقد وقع إختيارى على موقع الفتاوى داخل هذه الأماكن على الشبكة، وسر إختيار الفتاوى بسيط، فالفتاوى تعبر عن الهم العام للمسلمين

وتلقى الضوء على مايقلقهم ويشغل بالهم، فهى ترمومتر صادق لقياس درجة حرارة ويقظة العقل الإسلامى ومدى تطوره، وفى البداية غمرنى التفاؤل فمجرد التفكير فى إنشاء مواقع إسلامية على الإنترنت هو فى حد ذاته تفكير عصرى ومواكب للمتغيرات الجديدة، ولكن سرعان ماأصابنى الإحباط، فالمسألة لم تتعد للأسف إنشاء مواقع فقط ،ولكن محتوى هذه المواقع مازال ينهل من الكتب الصفراء التى مر عليها قرون وقرون ،الإختلاف فقط هو أن هذه الكتب قد نسخت على شبكة الإنترنت ،ولكن هل من كتب وفكر وبادر لإنشاء هذه المواقع كانت تشغله هموم المسلمين الحالية العصرية؟، لم تتعرض هذه المواقع لمناقشة التفاوت الإقتصادى البشع بين أبناء الأمة الواحدة، ولم تتعرض للأموال المهدرة على الأسلحة الأمريكية التى يضرب بها الأشقاء المسلمون بعضهم بعضاً ،لم يجب علينا موقع واحد كيف نحرر القدس وماهو ثمن الدماء الفلسطينية التى تباع فى سوق المفاوضات السرية، لم يبدد أحدهم حيرتنا إزاء الموت الجماعى لأطفال العراق مع سبق الإصرار والترصد أو إزاء مسألة الديمقراطية التى يتعامل معها البعض كمنحة علوية والبعض الآخر كوردة فى عروة الجاكتة يفاخر بها حين يشاء ويدهسها بقدميه حين يشاء ......الى آخر كل هذه المشكلات الملحة والتى أعتقد أنها أصبحت خبزنا اليومى.

وكانت فتاوى الماضى تتطرق كثيرًا إلى مانطلق عليه الألاعيب الفقهية، وهى مسائل يخترعها الفقيه لتمرين المخ وإيقاظه بغض النظر عن إستحالة حدوثها على أرض الواقع، ومن ضمن هذه الألاعيب والتمارين الفقهية مسألة حكم من رمى آخر ببهيمة، أو حكم من سرق عظام الفيل، أو من سرق خمر الذمى، وهل يقتل ساحر المسلمين ولايقتل ساحر أهل الكتاب ؟، وماهو حكم عقد أهل الخطوة أو حكم ميراث الخنثى المشكل أو حكم من قطع ذيل بغلة القاضى!!! ...إلى آخر هذه الأسئلة التى سادت فى أزمنة كسل العقل ونفاق السلطة الذى إبتعد بفقهاء ذلك الزمان عن قضايا الناس الملحة، ولكن مأشبه الليلة بالبارحة فالمشاكل قد إختلفت مسمياتها ولكن نوعياتها ودرجة أهميتها مازالت هى نفس نوعيات الفتاوى التى لاتمس صميم حياتنا ،وكأن عقارب الزمن قد توقفت عند ألف سنة مضت، وظلت فتاوى زمن الناقة والخيمة والسيف هى نفس فتاوى زمن الصاروخ والكمبيوتر والقنبلة النووية ،وكأننا مجتمع أصيب بالألزهايمر والشلل.

ومن ضمن مواقع الفتاوى التى إخترتها من على الإنترنت موقع فتاوى الشيخ الراحل عبد العزيز بن باز، وذلك نظرًا لأهمية الشيخ بن باز وموقع فتاويه من القلوب والعقول على مستوى العالم الإسلامى كله، وإخترته أيضاً لأن الإمكانيات المتوفرة لرعاة هذا الموقع عظيمة وسخية، وعنوان الموقع هو

htt//:ssmu.mcgill.ca/iss/fatwa/ binbaz، ويبــــدأ الحـــديث ببيوجرافى أو سيرة ذاتية للشيخ بن باز وإسمه بالكامل عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الباز، وقد ولد سنة ١٣٣٠ هجرية فى مدينة الرياض بالمملكة السعودية، وفى سنة ١٣٥٠فقد الشيخ بصره وهو مازال فى العشرين من عمره، وتعلم القرآن وهو مازال طفلاً صغيراً ودرس علوم الشريعة والفقه واللغة العربية على يد علماء كبار من أمثال الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الوهاب و الشيخ حماد بن فارس والشيخ صالح بن عبد الوهاب، وقد تدرج بن باز فى مناصب التدريس والقضاء حتى وصل لمنصب المفتى سنة ١٤١٣ وظل فيه حتى وفاته عام ١٤٢٠، وكان لفتاوى الشيخ بن باز وقع السحر فى العالم الإسلامى وحتى المتشدد من هذه الفتاوى كان لاتصمد أمامه فتاوى مشايخ آخرين كانوا يتميزون بالمرونة ،ولذلك يعد الشيخ بن باز أقوى شيوخ ومفتىّ السلفية فى العالم الإسلامى كله، وتحت عنوان «أنت تسأل والشيخ بن باز يجيب» والذى يعاونه فيه أئمة كبار آخرون، نطلع معاً على فتاويه فى المعاملات الإسلامية، ونبدأ بالسؤال الأول الذى يقول هل يجوز إلقاء شئ من الطعام فى الحمامات ؟، ونجد الإجابة فى الموقع بعدم جواز إلقاء شئ من الطعام فى المحلات النجسة لأن هذا فيه إهدار وإساءة للنعمة وعدم شكر الله، ولقد وجد النبى صلى الله عليه وسلم تمرة فى الطريق وقال لولا إنى

أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها، وأمر النبى من يتناول الطعام بأن يلعق أصابعه قبل أن يغسلها كما أمر بأخذ اللقمة إذا سقطت وإماطة ماعليها وأكلها، وتؤكد الإجابة أنه لايجوز إلقاء هذه الأشياء حتى تصان النعم وتحترم،لأن ذلك من شكرها ولأن هذه النعمة ربما يأتى من يحتاجها ويأكلها ولو من البهائم.

وفى الموقع سؤال عن حكم مشروب البيريل الخالية من الكحول والتى يطلق عليها البعض البيرة الإسلامية!!، والإجابة التى وجدناها فى الموقع تبدأ بالحديث الشريف «ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير إسمها »، ويخلص من ذلك بأن إختلاف المسميات لايغير من حرمة ذلك الشراب، والإجابة لاتقتنع بأن البيريل خالية من الكحول وتقول أنه قد ثبت أن بها كحول ولاأعرف من أين أتتهم تلك الثقة، وبعد الإستنكار يذكر الموقع الحديث الذى روته عائشة ويقول «كل مسكر حرام ومأسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام أو فالحسوة منه حرام، وتخلص الفتوى إلى أن البيريل حرام سداً للذرائع، ومن الشرب إلى الأكل وسؤال غريب فى موقع بن باز عن حكم الأكل من عين السمكة !!، ولاأعرف من الذى طرح السؤال أصلاً فالإجابة تهاجم بشدة من حرم الأكل من عين السمكة ولاأعرف من هو الذى حرم وماهى القضية أصلاً وماأهميتها حتى تحتل صفحتين من الموقع بهذا الشكل المكثف؟،المهم أن الإجابة تبيح كل أجزاء السمكة وتخبرنا بأنه حتى ميتة الحوت حلال بما فيها

الذيل والعين، وان الرسول لما كره رائحة الثوم ومنع الناس من دخولهم المسجد إذا أكلوا من شجرة الثوم لم يعنى ذلك تحريمه لها، وحتى حيوان الضب عافته نفسه ولكنه لم يحرمه على غيره ،وبذلك طمأننا الإنترنت على أن أكل عين السمكة حلال بلال.

ونأتى إلى سؤال حساس مطروح على موقع بن باز على الإنترنت عن دفن المسلمين فى مقابر غير المسلمين حيث أن المسلمين يسكنون فى بلاد بعيدة عن مقابرهم ويحتاج دفنهم فيها أن يسافروا بالميت أكثر من أسبوع علماً بأن من السنة التعجيل بدفن الميت، ويجيب الشيخ بأنه لايجوز للمسلمين أن يدفنوا مسلماً فى مقابر الكافرين، ولاأعرف ماذا يقصد بالكافرين فى هذه الإجابة وهل مسيحيى أوروبا وأمريكا كفار ،المهم أن الشيخ يؤكد على أن هذا عرف متبع منذ عهد النبى وهو الفصل وعدم دفن مسلم مع مشرك، ويؤكد على ذلك ماارواه النسائى عن بشير بن معبد الذى قال «كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر على قبور المسلمين فقال لقد سبق هؤلاء شرًا كثيرًا ثم مر على قبور المشركين فقال لقد سبق هؤلاء خيرًا كثيرًا فدل هذا على التفريق بين قبور المسلمين والمشركين، وينصح الشيخ كل من يقطن فى بلاد الفرنجة نصيحة غريبة ومدهشة لو طبقناها لمنعنا البعثات وأغلقنا السفارات، فهو يقول على كل مسلم ألا يستوطن بلداً غير إسلامى ولايقيم بين أظهر الكافرين بل عليه أن ينتقل إلى بلد إسلامى

فراراً بدينه من الفتن! ليتمكن من إقامة شعائر دينه ويتعاون مع إخوته المسلمين على البر والتقوى، وكما كان أمر دفن المسلم مع الكافر يمثل صعوبة فالهدية من الكافر تمثل صعوبة أخرى فهى جائزة لأن النبى قبل هدية كسرى والمقوقس ولكن يشترط فى الهدية أن تكون مالاً متقوماً ولذلك فلايصح أن نقبل الآلات الموسيقية الوترية أو النفخية أو التماثيل ،ولذلك وطبقاً لهذه الفتوى علينا أن نحطم دار الأوبرا ومعها تمثال سيمون بوليفار الهدية الأمريكية الجنوبية، أما صواريخ باتريوت الأمريكية فأعتقد أنها حلال لأنها شرعية وحقيقية وليست تماثيل، وتدك منازل عراقية ولاتعزف موسيقى شرقية!!

وفى الموقع سؤال آخر عن حكم الوشم وتبدأ الإجابة بتعريف الوشم وهو غرز إبرة فى ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من البدن حتى يسيل الدم ثم يحشى بعد ذلك بالكحل فيخضر والتى تفعل ذلك تسمى واشمة والتى تطلب ذلك تسمى مستوشمة، والوشم حرام كما يقرر موقع بن باز والحكمة فى تحريمه أن فيه تغييراً للخلقة وفيه غش وخداع بالإضافة إلى مافيه من ألم، وقد دلت على ذلك التحريم أحاديث كثيرة منها :قال عليه الصلاة والسلام لعن الله الربا وآكله وكاتبه وشاهده وهم يعلمون والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة، ويضيف

بن باز فى النهاية أن محل الوشم نجس فإذا غسل محل الوشم لابد أن يطهر.

أما السؤال المحير الذى إحتل مكانًا هامًافى موقع بن باز للفتاوى فهو هل يجوز أن يتبول الرجل وهو واقف ولو كان فى محل مستور عن الناس؟!، ويجيب الأصل أن يبول الرجل وهو جالس إقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فقد روى النسائى والترمذى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت (من حدثكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بال قائماً فلاتصدقوه ،ماكان يبول إلا جالساً)، ولكن إذا دعت الحاجة إلى بوله قائماً جاز، ولو بال قائماً لغير حاجة لم يأثم ولكنه خالف فى قضاء حاجته الأفضل ،ومن التبول إلى الكشف الطبى وحكم الخلوة بين الطبيب المعالج والمريضة، ويرد الموقع بأن الأولى بتطبيب النساء الطبيبات مثلهن، ولكن يجوز للضرورة أن يكشف عليهن طبيب، و يصرخ الإنترنت الحذر الحذر من الخلوة فمن واجب الطبيب أن لايخلو بإمرأة أجنبية وعليه أن يحتاط لذلك وعلى المرأة المسلمة أن تحرص أشد الحرص على هذا الجانب فتصطحب معها محرماً لئلا تقع الخلوة فالخلوة بين الطبيب والمرأة الأجنبية عنه محرمة شرعاً لقوله صلى الله عليه وسلم إياك والخلوة بالنساء والذى نفسى بيده ماخلا رجل بإمرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، وعلى الطبيب أن يحرص على توفير الجو الذى يضمن عدم الخلوة بالمريضة إما أن يصرف

الطبيب الناس ويغلق الباب منفرداً ويمكث الوقت الطويل فى علاج مريضته فهذا يبعث على الشبهات ويشكك فى نزاهة هذا الطبيب وأمانته!!!

وعن صبغ الشعر باللون الأسود فهو لايجوز حسب كلام موقع بن باز فالحناء هى الجائزة والمباحة فعن جابر بن عبد الله قال جئ بأبى قحافة يوم الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذهبوا به إلى بعض نسائه لتغيره بشئ وجنبوه السواد.

والموقع ملئ بأسئلة أخرى عن مصير أولاد الزنا وهل تجوز العقيقة على الطفل السقط أو المجهض؟ وعن مصى الطفل إبن الكافر ....الخ، وأعتقد أن هذه الأسئلة وماسبقها لاتجوز أن تقتحم شبكة الإنترنت التى هى عنوان حضارى وعصرى لاينفع أن نتعامل معه بهذه الشيزوفرينيا، ومانستنتجه هو أن ماقاله نزار قبانى هو فى منتهى الصدق فقد لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية.

# ٢٩ - نظرية الإنتقام الإلهى من هزيمة ٦٧ إلى حريق أمريكا!!

عندما إحترقت أمريكا يوم ١١ سبتمبر فى مشهد مأساوى لايستطيع تصوره أعتى مخرجى السينما الأمريكيه، سارع الكثيرون إلى تبنى نظرية الإنتقام الإلهى أى أن الرب ينتقم من هؤلاء الأمريكيين لما فعلوه بالعرب والمسلمين، وقد ساهم فى نمو هذه النظرية وتبنيها ماحدث ويحدث من مجازر يومية فى الأرض المحتلة على يد الجزار شارون سفاح صابرا وشاتيلا وموافقة الولايات المتحده فى ظل هذه الظروف القاسية على إرسال صفقة طائرات ف ـ ١٦ جديدة لإسرائيل برغم أن القانون الأمريكى يمنع بيع الطائرات لدولة تستخدمها فى ضرب المدنيين، وترسخت نظرية الإنتقام الإلهى أكثر وأكثر فى أعقاب دعم أمريكا اللامحدود لإسرائيل فى ديربان حيث إنسحبت لمجرد الإحساس بأن المجتمعين فى مؤتمر مناهضة العنصرية ينوون أن يدينوا إسرائيل، وفى هذا الجو الملبد بالتحيز السافر حدثت واقعة الثلاثاء الأسود فوجدها البعض فرصة للشماته وإثبات نظرية الإنتقام

الإلهى وهى النظرية الجاهزة التى نتبناها دائماً لفض أيدينا من المسئولية وإراحة دماغنا من وجع الدماغ ،ومادمنا قد وكلنا القوة الإلهية أن تنتقم لنا فلنهنأ بالوسائد التى ننام عليها إنتظاراً ليوم الإنتقام، ولنستمر فى اللعب فى أصابعنا مادام الحل سيأتى من السماء!، وتوكيل السماء الذى تكتبه شعوبنا على بياض يدل على عقلية كسولة تمكن منها الترهل وتفشى فى خلاياها الكوليسترول وأطبق على أنفاسها التراخى والرضا بالمقسوم، ونحن بالطبع مقتنعون بأن الله أكبر من كل كبير على هذه الأرض وأقوى من كل قوة فى هذا الكون، ولكننا مقتنعون أيضاً بأنه إله صفته العدل ومنزه سبحانه عن الظلم وإن من يريد إقحامه جل جلاله فى لعبة أتارى مع مخلوقاته أيًا كانت هذه المخلوقات ،هذا الإقحام فيه نزع لصفة العدالة عن الله سبحانه وتعالى العادل الذى لايظلم عباده، وإختزال للعلاقة المركبة المقدسه بين الخالق والمخلوق إلى لعبة إستغمايه، وتحويل الحياة نفسها لمجرد فخ يصاد فيه البشر بقطعة الجبن المغموسه بالسم.

ولذلك نحن ضد هذه النظرية فى تفسير أحداث أمريكا الأخيره لعدة أسباب:

أولها ببساطة أن الحرائق الأمريكية طالت ألسنة النار فيها عرباً ومسلمين بالإضافة إلى ديانات أخرى مظلومة وبريئة،وإذا كان الله يريد أن ينتقم للمسلمين فلماذا يقتل مسلمين فى هذه الأحداث؟.

ثانيًا: ألم يكن من الأولى أن يتم الإنتقام من إسرائيل نفسها بإزالتها من الوجود بدلاً من الذهاب عبر المحيط للإنتقام من أمريكا؟.

وثالثًا: النتيجه المعروفة لهذا الهجوم هو المزيد من إضعاف المسلمين داخل أمريكا وخارجها، فداخل أمريكا نحن نرى كم تضررت الجاليات العربية والأمريكيه من هذا الهجوم، وخارج أمريكا شاهدنا كم الهلع داخل البلاد الإسلامية خوفاً من الإنتقام الأمريكى والذى تحول لتعاطف بل وشبهة تحالف كما سمعنا من كولين باول وزير الخارجية الأمريكية الذى يطالب بتحالف أمريكى إسلامى !!

رابعًا: المسارعة بتبنى نظرية الإنتقام الإلهى فى الشارع العربى والإسلامى لدرجة تشبيه الطائرات الإنتحارية بالطير الأبابيل التى أرسلها الله على الكفار فى عام الفيل، وحتى فى الإنترنت إنهالت التفسيرات التى تروج لهذه النظرية وكأننا نستخدم التكنولوجيا الحديثه فى الترويج للأوهام !،هذه المسارعه واللهاث تعمينا عن حقائق أساسية وهى أن إنهيار الإقتصاد الأمريكى هو إنهيار فى نفس الوقت للإقتصاد الإسلامى التابع الخانع له ،لأننا كمسلمين للأسف نملك المال والجاز والمدخرات ولكنها جميعاً ياللعار تصب فى ماكينة مانهاتن حى الإقتصاد والثروة الذى وقعت به أشد الإنفجارات تدميرًا، ألم يكن من الأنفع والأجدى قبل الإنتقام أن يسمح لنا بسحب أموالنا نحن المسلمين ثم يتم بعدها الإنتقام بأية صورة كانت!!!

عشرات الأسئلة وغيرها جالت بخاطرى وأنا أسمع هذه النظرية الجاهزة التى نلتقطها من على شجرة الأوهام سريعًا كلما حدثت مصيبه أو كارثة، فعندما حدثت كارثة ١٩٦٧ تبنى الناس نظرية أن الرب ينتقم من النظام الناصرى الذى عاث فساداً فى الأرض وعذب الإخوان المسلمين، وأن دعوة سيد قطب قبل إعدامه على عبد الناصر قدتقبلها الله وكسر أنف ناصر فى ستة أيام، وإقتنع الكثيرون بهذا التفسير وإستراحوا إليه خاصة وأنه قد أضيفت إليه بعض التوابل مثل إعتناق نظام ناصر للشيوعيه وإستخدامه للسلاح الشيوعى (ملاحظة: هذا السلاح الشيوعى من المدهش أنه ساهم فى نصر أكتوبر!!)، وجاء الشيخ الشعراوى ليعطى بعدًا ميلودراميًا للمشهد الإنتقامى الإلهى بقوله أنه سجد لله شكراً بعد هزيمة ١٩٦٧ لنفس الأسباب والمبررات السابقه ،وتناسى الشعراوى ومن قبله أنصار نظرية الإنتقام الإلهى أن الذى هزم لم يكن عبد الناصر وحده بل كان الشعب المصرى كله ،وأنه عندما سجد شكراً لله فإن دماء الألاف من الشهداء الذين سالت دماؤهم على رمال سيناء ومنهم من كان يصلى قبل الهجوم الإسرائيلى لايسفحها الله فى سبيل الإنتقام ، ننزهه عن ذلك لأن هؤلاء على الأقل أبناؤه المسلمون ،ولم يفكر الشعراوى وأعوانه وقتها أن الهزيمة لها أسبابها الموضوعية من جيش مهلهل غير مؤهل وقتها لخوض تدريب فمابالك بحرب، إلى نظام قد دب فيه السوس من داخله فأصبح هيكلاً كرتونياً سهل التحطيم ...الخ ،وبالعكس

عندما حدث النصر فى أكتوبر أرجعه هؤلاء إلى الملائكة وليس إلى قدرة المقاتل المصرى الذى تغير وتأهل، وفى الحالتين فالواقع غير موجود والإنسان مغيب والفعل الإنسانى منفى وليس هناك إلا الإنتقام من السماء أو الملائكة أيضاً من السماء.

وكما حدث الإنتقام الإلهى مع عبد الناصر حدث أيضاً مع السادات عند إغتياله حسب تفسير أصحاب النظرية ،فقد حدث الإنتقام بعد أن وصف السادات الشيخ المحلاوى بأنه كلب ،وبعد أن قبض على الإخوان المسلمين فى أحداث سبتمبر ،وأيضاً وهذا ثابت فى التحقيقات مع الجماعات الإسلاميه حينها إنتقم منه الله لأنه هاجم النقاب ووصفه بالخيمه !،وتناسى هؤلاء أن السادات نفسه هو الذى أخرجهم من الجحور والكهوف لنور العمل السياسى فى الجامعات والنقابات ولذلك وتبعاً لنظريتهم كان لابد أن يكافأ ولايعاقب ،ولكنه التوكيل الرسمى السماوى الذى تخيلوا معه بأنهم كهنوت على الأرض تحميه إرادة السماء ،والمدهش أن أميرهم عمر عبد الرحمن لجأ بعدها إلى الكفرة فى أمريكا ولكن هل أخطأت بوصلة الإنتقام فطالته هو شخصياً هذه المرة فظل قابعاً داخل أسوار السجن الأمريكى حتى هذه اللحظة لاحول له ولاقوة ؟.

والمدهش أن نظرية الإنتقام الإلهى لم يتبنها المسلمون فقط فقد تبناها أيضاً المسيحيون والغريب أنهم تبنوها إبان إغتيال السادات أيضاً ،فقد فسر البعض إغتيال السادات بأنه إنتقام لإعتقال البابا شنوده أو ماأطلق عليه وقتها تحديد إقامته ،وقد ساهم فى نجاح

هذا التفسير موت صموئيل القس الذى وقف مع السادات وعضد موقفه من داخل الكنيسه ضد رغبة البابا فتم إغتياله على المنصه ،وبذلك تم الإنتقام من وجهة نظرهم من خائنين لاخائن واحد ،وتناسوا أنه لو نجحت تلك الخطه وتسلم الإسلامبولى ورفاقه السلطه فإنهم سيكونون أول المنبوذين ووقتها لم يكن أحد سيعرف مصير البابا نفسه !!،فقد كان على الأقل معروفاً مكانه مع السادات ولكنه مع الجماعه المتطرفة من الصعب أن يكون له مكان أصلاً .

حتى الكوارث الطبيعيه كان لها التفسير الجاهز والإنتقام الإلهى سابق التجهيز والمعد سلفًا، وكلنا يتذكر ذلك الزلزال المدمر الذى داهمنا منذ مايقرب من تسع سنوات وحطم المبانى وأزهق الأرواح، وقتها خرجت مانشيتات بعض الصحف وتعليقات كثير من الأقلام بأن ماحدث هو عقاب ربانى وإنذار إلهى لأننا بعدنا عن حظيـــرة الدين !!، ولأننا نقول فى أمثالنا الشعبيه أن ربنا رب الغلابه فقد تنبه بعضنا إلى أن الزلزال قد إجتاح مناطق الغلابه بالذات وكان معظم من ماتوا من البسطاء والمعدمين أو الذين نسميهم بالبلدى على باب الله، والسؤال هل طردهم الله من أمام بابه فى هذا اليوم المشئوم، حاشا لله بالطبع ،ولكنها التفسيرات القاصــره والعقل المشلول الذى يسلب إرادة البسطاء بتغييبهم عن واقعهم وإرجاع كل شئ إلى خارج الواقع الذى بالطبع لن يتغير إلا إذا لجأنا إلى أصحاب تلك التفسيرات ممن جعلوا أنفسهم

محتكرى الحقيقه ووكلاء الله على الأرض، والغريب أن هذه التفسيرات كانت من الممكن أن تؤجج نار الفتنه الطائفيه وقت الزلزال حين فسر البعض إنهيار المقطم بأنه إنتقام إلهى من المسيحيين الذين يربون الخنازير أسفل جبل المقطم، وبالطبع كانت إضافة الخنازير إلى القصة جعلها قصة بالفلفل والشطه والبهارات وقابله للتصديق والتضخيم والإنتشار.

أما المرض فهو أيضاً فى قائمة الإنتقامات الإلهية فى تفسيراتنا ،بل أستطيع أن أقول أنه فى مقدمة تلك القائمه ،فالمرض البدنى أو النفسى حادث مجسم يعتبر كنزاً ثميناً لمن يريد تبنى ونشر نظرية الإنتقام الإلهى ،وأهم مرض إعتبرناه إنتقاماً إلهياً من الغرب الكافر هو مرض الإيدز، الذى تنافس الكتاب والمحللون فى إعتباره عقابًا إلهيًا على الشذوذ الجنسى المتفشى عندهم وعلى الإنحلال والإباحية... الخ ، والغريب أننا لو تبنينا تلك النظرية فإننا سنقع فى حيص بيص حين نناقش البلهارسيا التى ننفرد بها عن العالم والتى تأكل فى أجساد فلاحينا الغلابه ،وماذا سنقول عن فيروس الكبد الوبائى الذى ينهش فى أكباد شباب المصريين الذين لايملكون ترف الشذوذ بل يسرى الإيمان فى عروقهم مع كرات دمهم الحمراء ؟ ،ولذلك فالمرض ليس عقابًا إلهيًا وإلا كان ذلك منتهى الظلم ،والإيدز مرض يسببه فيروس من الممكن أن يصيب الشاذ جنسياً ومن الممكن أن يصيب شخصاً متدينًا إذا إنتقل إليه دم فاسد، والتفسير الأخلاقى للمرض يجعلنا نتعامل مع بعض

الأمراض بوسواس قهرى وحذر أخلاقى وكراهيه للمريض نفسه برغم أن العلم يحتاج أولاً إلى حياد صارم حتى نصل إلى حقيقة المرض ويتم علاجه وهنا ينتهى دور الطبيب الذى عليه ألا يرتدى مسوح الرهبان أو عمة الشيوخ وهو يمارس الجراحه أو يصف الدواء!!.

وكلنا يتذكر التفسيرات التى أطلقها البعض على مرض سعاد حسنى والذى فسروه بأنه إنتقام لبعدها عن حظيرة الإيمان، وأيضًا نتذكر الفنانة التى فسروا السرطان الذى أصابها بأنه عقاب إلهى لأنها فنانه مما جعلها تخاف وتلجأ فى لحظة هلع وفزع لإرتداء الحجاب حتى لايمتد العقاب لمناطق أخرى.

والحقيقه أننى أرفض وبشده ذلك المنطق الذى يجعل الدين رموزاً قاسيه فيها دراكولا مصاص الدماء وفرانكشتين وراسبوتين وآكلو لحوم البشر، وأرفض إختزاله إلى حياة هى سلسلة من العقوبات المتصلة التى لاتنتهى، فالدين رحمه والله عادل ورحيم بنا، ولاتزر عنده وازرة وزر أخرى ولايأخذ الشعوب بجريرة فرد ، ولايحرق بلدًا وأطفالاً بذنب قائد عسكرى، وعلينا لكى نعتذر عن مثل تلك الإعتقادات التى تسئ للدين وتزدرى العقل وتحتقر التفكير وتنشر الخرافه، علينا أن نبحث لكل حادثة عن سبب، ولكل مشكلة عن حل وأن نواجه أنفسنا بصراحه ولانحتمى وراء أسوار الأوهام ونتخيل أنفسنا فوق البشريه ،لأننا وقتها سنختنق بالأسوار ونصبح فى قاع البئر حيث لن نسمع إلا صدى أصواتنا فقط.

# ٣٠ - حبة البركة وخرافة الطب الإسلامى!!

الخرافة هى قارب نجاة العاجز لكى يصل إلى بر السلامة المزيفة أو سراب اليقين المخادع ،وأخطر شئ هو أن يكون الدين مجدافاً وشراعًا ودفة لهذا القارب الخرافى، يرسم له الطريق ويحدد له الهدف فيخدر العامة ويجعلهم يصدقون أن هذا القارب المصنوع من القش والكارتون والوهم والكذب هو سفينة نوح التى ستنقذ أهل المعمورة، والأخطر هو أن نلجأ لهذا القارب الهش المتهرئ بدلاً من اللجوء لقارب العلم الصلب المتماسك والمتوازن والراسى بجانب الشط والذى نستطيع من خلال بوصلته الهادية والواضحة والمحددة أن نصل إلى البر الآخر بر الأمان والإطمئنان، والمدهش أن أول من أمرنا وأوصانا بركوب قارب العلم هو الدين نفسه الذى للأسف نستعمله فى أحيان كثيرة لترويج وتجميل الخرافات والأباطيل.

ومن ضمن الخرافات التى إرتدت ثوب الدين خرافة «حبة البركة» أو الحبة السوداء التى تشفى من كل الأمراض ،والتى إعتنقها الكثيرون لدرجة أن أصبحت وثناً لايستطاع المساس به

وخاصة أنها تعتمد على حديث أورده البخارى وهو «عليكم بهذه الحبة السوداء فإن فيها شفاء لكل داء إلا السام» أى أنها تشفى جميع الأمراض قاطبة إلا الموت !!، ومع كل إحترامى لهذا الحديث ولصحيح البخارى إلا أننى أستطيع أن أقول وبكل راحة ضمير وبدون أن يكفرنى أحد أن هذا الحديث مشكوك فى صحته حتى ولو كان فى البخارى، بل وأستطيع أن أقول أيضاً أن مثل هذه الأحاديث التى لايتفق متنها مع العقل هى أكبر خطر على الإسلام وهو ماسيأتى تفصيله فيمابعد حين نتحدث عن الأحاديث التى تتناول العلم والأدوية، وذلك لأنه إذا كان الأمر كذلك وبهذه السهولة فلنهدم مبانى كليات الطب بأقسامها المختلفة ونزرع على أرضها نبات وبذور حبة البركة ،فلم يوجد ولن يوجد أى دواء فى العالم يدعى مخترعه بأنه يشفى جميع الأمراض لأنه ببساطة شئ مستحيل ولاعقلانى، فأين هو الدواء الذى يحتوى على مضاد حيوى يغطى كافة أشكال البكتيريا السالبة والموجبة ويوجد فيه قاتل للفطريات والفيروسات ومعه فوق البيعة كورتيزون ومسكنات وهورمونات ومثبطات أورام وفيتامينات ومضاد للحساسية وللحموضة ومنشط جنسى...الخ، إن ذلك يذكرنى بما كان يفعله بعض الدجالين فى الأرياف عندما يقفون فى وسط القرية ويهتفون «قرب.. قرب.. وإشرب شربة الشيخ على اللى بتشفى كل عليل»!، وبما أن قدرة شربة الشيخ على الأسطورية إتضح أنها وهم كبير،

كذلك قدرة حبة البركة العابرة لكل قارات الأمراض وهم أكبر،لأننا لو حكمنا العقل لثوانٍ قليلة لوجدنا أن بعض الأمراض التى تحتاج إلى دواء فعال محدد كالإنسولين يتعارض معها الكورتيزون مثلاً فكيف يكون فى حبة البركة هذين المكونين المتعارضين وأى منهما سيعمل؟!، ولو قرأنا كتاب معجزات الشفاء ستصدمنا هذه المبالغة الفجة وسنتذكر فوراً الدجال الذى يبيع شربة الشيخ على ،فالكتاب يقرر أن «حبة البركة تعالج تساقط الشعر والصداع والأرق والقمل والدوخة وألام الأذن والقراع والثعلبة والتنيا وأمراض النساء والولادة واللوز وألام الأسنان وأمراض الحنجرة واللوز وحب الشباب والبرص والبهاق والكسور والكدمات والروماتيزم والسكر والضغط والإستسقاء والتبول اللاإرادى والكبد والطحال وحصوات المرارة وكل أمراض الصدر والقلب والمغص والقئ والبلهارسيا والقولون وبالطبع السرطان والضعف الجنسى وأخيراً الإيدز!!!.

وحبة البركة ليست إختراعاً إسلامياً فمثلها مثل أى عشب أو نبات طبى تناولته الدراسات والكتابات القديمة وعددت فوائده وبالغت فيها فى بعض الأحيان مثل الكراوية والينسون والنعناع والحلبة...الخ، ومثله مثل الشاى الأخضر الذى إدعى الآسيويون أيضاً أنه يشفى من أمراض كثيرة ولكنهم لم يدعوا أنه يشفى كل الأمراض من بابها، وأيضًا لم يزايدوا على العلم ويتفهون إنجازاته ويوهمون الجميع بأن فى الشاى الأخضر السر والكهنوت، ولم تجبر

مثلما فعل المسلمون شركات الأدوية على صنع دواء إسمه الشاى الأخضر بل إنه يباع على أنه عشب أو نبات مفيد وكفاية ،ويعتبر ترويج مثل هذه الأشياء فى أوروبا وأمريكا من باب الفولكلور والفرجة على بضاعة أهل الشرق ولكن ليس من باب الإنبهار بعلمهم ومعجزاته.

والإسم العلمى لحبة البركة هو NIGELLA SATIVA ويسمونها فى أوروبا وأمريكا BLACK CUMIN وهو عشب موجود منذ ألاف السنين ويستعمل فى مطابخ وأطباق بلدان البحر المتوسط والهند وشرق أوروبا ،والنبات تنمو زهوره طرفيًا وينمو ورقه فى الإتجاه المضاد فى أزواج كل على طرف الساق، والأوراق الأعلى أكبر فى الحجم وعندما يثمر النبات تكون البذور فى كبسولة وتكون بيضاء اللون فى البداية وعند النمو والتفتح تتعرض هذه البذور للهواء فيصبح لونها أسودًا، وقد إكتشفت حبة البركة فى قبر توت عنخ آمون لأنهم كانوا يتوهمون أنها ستساعده فى الحياة الآخرة، وقد ورد ذكرها فى كتب اليهود ،وكتب عنها أيضاً الطبيب اليونانى ديوسكوريدس والبيرونى وإبن سينا فى كتابه القانون وذكر أنها تحفز نشاط الجسم ،وهى تحتوى على بعض الزيوت الطيارة وبعض الأحماض الدهنية والأمينية وبعض الفيتامينات، وبالطبع ماتحتويه حبة البركة له فائدة ولكن الإعتراض على المبالغة فى هذه الفائدة بحيث تمتد مظلتها على كل

الأمراض، ومحاولة إكسابها شكل الإعجاز والإنتصار الدينى على الآخرين برغم أن هؤلاء الآخرين من كافة الأديان تحدثوا عنها بطريقة عارضة كما ذكرنا.

يقدم دراويش الإعجاز العلمى حبة البركة على أنها الحبة السحرية وسوبرمان المنقذ،ويتناسون عن عمد بعض أعراضها الجانبية والتحذيرات التى لابد أن تقال لمتعاطيها ،فهى ممنوعة على سبيل المثال على الحوامل والأطفال أقل من ثلاث سنوات وتسبب إنخفاض ضغط الدم. وهى التهمة التى يتهمون بها الفياجرا. فكيف أعطيها لمن يعانى من إنخفاض الضغط ؟! ..الخ، وهؤلاء يتركون المرضى المعذورين عن جهل أو عن يأس يستخدمون حبة البركة كحل ناجع وعلاج وحيد مثلما فعلوا مع العسل الذى يستخدمه البعض تنفيذاً لدعاوى هؤلاء الدراويش فى علاج السكر وتطهير الجروح وهم لايدرون أنهم ينتحرون بكارثة أفظع من مرضهم الأصلى.

والمسألة أخطر من مجرد مسألة حبة البركة فهى تثير عدة قضايا تتجاوزها لتفضح تركيبة العقل وكارثة منهج التفكير العلمى فى مجتمعنا الحالى، وهذه القضايا هى :

سيطرة العلم الزائف وإنتشار دجالى العلم المتسترين وراء الدين والذين سيطروا على بعض البلاد الإسلامية لفترة وأنشأوا فى جامعاتها أقساماً للطب الإسلامى وأجروا أبحاثاً لإستخراج الطاقة

من الجـان !، وهـى لـيـست نكتـة على كل حـال ولكنهـا حـقـيـقـة من الممكن أن نصل إليـها لـو خضـعنا لمثل هؤلاء (لمزيد من التـفاصـيل أنظر كـتاب عصـر العلم للدكـتور سـمير حنا صـادق)، أما البـحث العلمى الحـقـيـقى المسـتـقـر والمتـعـارف عليـه وخـاصـة علم الأدوية لايعـرف الفهلوة فـهو يـعرف فـقط دراسـة الجـرعة ومـدى سـمـيـة الدواء والتـفـاعل مع الأدوية الأخـرى ومـحـاولة عـزل المادة الفـعـالة ومحـاولة تخليق مثلها كيميائياً بل وتخليق مواد مشابهة لها، ويحكم إنتـاج أى دواء إتفـاقـيـة هلسنكى التى تفـرض مـتطلبـات أخـلاقـيـة وضعـهـا من نطلق عليهم الغـرب الكفـرة وهـى عـدم إجـراء أى بحث على بشـر إلا على بالغ عـاقل وبعـد إقـراره من لجنـة مـحـايدة تقـر بجدواه وجـدارته وبعد دراسـته على حيوانات التجـارب ومقـارنته مع مـايسـمى المجـمـوعـات الضـابطة أو الحـاكمـة من خـلال قـرص غيـر مـؤثر إسمـه «البـلاسـيبـو» وبيان كل تفاصـيله التى ذكـرناها من قبل، وعـدم إسـتبـدال عـلاج غيـر مـعروف بعلاج مـعـروف للتـجـربة إلا فى أضيق الأحوال، وغير منطقى بل وغير إنسـانى أن نعزل بجرة قلم أو بفـتـوى دينيـة رافـداً مـثل طب الأعـشـاب عن نهـر الطب العظيم الأسـاسـى تحت دعـوى الطب الإسـلامى ،بالإضـافـة إلى أن إدعـاء أن العشب يشـفى الكلى والكبد والطحـال.. الخ إدعاء باطل وغيـر علمى فـأى دواء على ظهر الأرض يعـدل وظائف كيميائيـة مـحـددة أو يقـتل ميكروباً معينًا ولايشـفى عضـوًا بعينه، وهـذا المفهوم الأخير مات منذ

أن كان الطب سحراً يمارسه الكهنة فى المعابد.

من المهم أن نعرف أننا لو تناولنا أى شئ وشفانا فهذا ليس دليلاً على أن ذلك الشئ أصبح دواء، ولنضرب مثلاً على ذلك ،فلو تعاطى مريض حبة البركة وشفى من مرضه بعد سبعة أيام فإن هناك عدة إحتمالات وتفسيرات منطقية:

الإحتمال الأول : أن المريض كان سيشفى سواء تعاطى حبة البركة أم لا.

الإحتمال الثانى: أن المريض كان سيشفى بعد ٣ أيام بدون حبة البركة.

الإحتمال الثالث: أن المريض شفى بالحبة ولكن المرض سيعاوده بعد ذلك أو سيصاب بمضاعفات شديدة بعد سنين.

مايحدث من ترويج للطب الإسلامى أو النبوى المبنى على بعض الأحاديث النبوية هو أكبر خطر على الدين الإسلامى نفسه، لأنه يثير فى الغرب الرثاء والضحك فى نفس الوقت، والرثاء مصدره التعسف والبهلوانية والإدعاء ولوى عنق النصوص الذى يمارسه أدعياء الطب الإسلامى الذين لم يقدموا بحثاً طبيًا جديدًا فى مسيرة الطب العالمى يفيد أوطانهم الفقيرة ،والضحك مصدره أنهم بعد هذا الجهد يثبتون ماهو مثبت فعلاً وماأثبته الغرب قبلهم ولو كانوا صادقين بحق لبحثوا أولاً فى نصوصهم ويرون أتعطيهم

نظريات علمية أم سراباً فى سراب ،ويظل مكتوباً عليهم أن ينتظروا الغـرب ثم يخـرجـون لسـانهم قـائلين مـثلمـا قـال الإعـلان «كنت حـأقولها» !، والحل هو أن يعرفوا أن الأحاديث النبوية التى جاءت عن الأكل والشـرب واللبس والسـيـر والركوب...الخ هى كمـا قـال مجتهدون كثيرون وآخرهم الأستاذ جمال البنا لاتعد ملزمة فى شئ وإنما هى أخبار عن واقع الحياة اليومية فى جزيرة العرب فى ذلك الحين وتؤخـذ على أنها تاريخ ،وهو حل فى صالح الإسـلام وليس ضده لأنه سينقذ تراثنا من أحاديث أصبح متنها مخالفاً للعقل والتطور مثل حديث حبة البركة ومثل هذه الأحاديث التى سأورد بعضها كى يضع لنا رجال علم الحديث مفاهيم جديدة تساير العصر ولايكون كل همها هو دراسة السند وصحته، وأيضاً لاتجعل دارسى العلم يقفون موقف تشكك من الدين نفسه الذى يحض أول مايحض على العلم، ولننظر فى هذه الأحاديث كعينة مبدئية:

- «لاعدوى ولاطيره»
- «التين يقطع البواسير»
- «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء».
- «أكل العدس يرقق القلب ويدمع العين ويذهب الكبر»
- «ربيع أمتى العنب والبطيخ»
- «الباذنجان شفاء من كل داء»

- «الهريسة تشد الظهر» وفى قول آخر تعطى قوة أربعين رجلاً فى الجماع.

- «من إصطبح كل يوم بسبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولاسحر ذلك اليوم إلى الليل».

- «لايبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة»

هذه الأحاديث وغيرها الكثير موجودة فى كتب الحديث وأغلبها فى صحيح البخارى مما يلقى بمسئولية كبيرة على علمائنا بأن يبادروا إلى تنقية ديننا الحنيف مما يعارض العلم الحديث، والعلم هو العلم الذى يمكن قياسه وتكراره فى كل العالم ولايوجد طب إسلامى وطب مسيحى وطب يهودى وطب بوذى إنما هناك طب فقط له قواعده التى لابد أن تحترم، هذا إذا كنا نريد أن نتقدم ونلحق بركب العلم الحديث الذى يهندس الآن الإنسان وراثياً ولم يعد يناقش الحجامة وحبة البركة والعلاج بالعسل والباذنجان، والسؤال الحقيقى هل نريد حقاً هذا العلم وهذا التقدم أم لا ؟ ،والرد سيحدد موقعنا على الخريطة وأعتقد أننا إذا لم نرد بالإيجاب سنخرج من الخريطة أصلاً!!!



# المحتويات

| الموضـــــــوع | الصفحة |
| --- | --- |



# وهم الإعجاز العلمى

## د. خالد منتصر

- إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الأخر دواء.
- أكل العدس يرقق القلب ويدمع العين ويذهب الكبر.
- الباذنجان شفاء من كل داء.
- من إصطبح كل يوم بسبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل.

هذه الأحاديث وغيرها الكثير موجودة فى كتب الحديث وأغلبها فى صحيح البخارى مما يلقى بمسئولية كبيرة على علمائنا بأن يبادروا إلى تنقية ديننا الحنيف مما يعارض العلم الحديث، والعلم هو العلم الذى يمكن قياسه وتكراره فى كل العالم ولايوجد طب إسلامى وطب مسيحى وطب يهودى وطب بوذى إنما هناك طب فقط له قواعده التى لابد أن تحترم، هذا إذا كنا نريد أن نتقدم ونلحق بركب العلم الحديث.

دار العين للنشر